رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

الآداب
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
بيروت
ص.ب. ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

العدد التاسع
ايلول (سبتمبر) ١٩٥٧
السنة الخامسة

No. 9. Sep. 1957
5ème année

ثائرون ... في كلّ مكان !

بقلم محمد النقاش

منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، حتى لا نذهب الى ابعد من ذلك ، وعالمنا العربي يتململ ويتقلب ، شأن مارد تلقى بضع ضربات افقدته الرشد ، وشد وثاقه ، فلما افاق واستعاد وعيه ، راح يحاول التخلص من قيوده واغلاله . لكن الخصوم من حوله لم يكونوا قد اخلوا الساحة ، ولو انهم صاروا اكثر احتشاما في تسديد الضربات ، ولم يعودوا عصابة منسجمة متفاهمة يرفع الرئيس يده فيصدعون .. كما ان المارد الصريع كسب بعض العطف ، واستطاع ان يفيد بعض الشيء من خلافات الخصوم ...

وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية التي ادخلت على مسرح السياسة الدولية قوتين جديدتين احتلتا مكان الكواكب ، وازاحتا الدولتين اللتين جثمتا على صدر المارد العربي زمنا غير قصير ، استطاع هذا المارد ان يقف على رجليه ، وما زال في رأسه آثار دوار ، وفي جسمه آثار جراح لما تندمل من جراب الاستعمار وعهود الانحطاط ، وفي قدميه بقايا سلاسل .. لكنه وقف وراح يتلمس طريقه للانطلاق والمسير .

وفجأة ، سددت اليه ضربة جديدة هائلة ، في تحد واستفزاز لم يسبق لهما مثيل في التاريخ .. الضربة الغربية بقفاز صهيوني .. فاهتز المارد اهتزازا عنيفا ، كمن اصابه مس من كهرباء ، وانتفض انتفاضة كبرى ، ومشى ... لا يدري تماما الى اين ، لكنه مشى .

***

بعد قيام اسرائيل ، انتقل العالم العربي انتقالا تاما من حالة الركود ، الى حالة الحركة ، في دينامية مدهشة لم يعرف مثلها الا ابان نهضته الاولى ، وانطلاقته العجيبة في دروب التاريخ

العالم العربي اليوم في ثورة متأججة ، ثورة تتخذ طابعا خاصا في كل جنب من جنباته وزاوية من زواياه ، ثورة على الاستعمار هنا ... ثورة على الرجعية هناك .. ثورة على الظلم والطغيان هنالك .. وتختلف الوسائل في كل مكان ، وتختلف الاساليب . فهي بيضاء هنا ، حمراء هناك ، بين هنالك . لكنها ثورة حيثما كانت .

هذه الثورة ، هذه الثورات الآخذة بعضها برقاب بعض ، في سائر اقطار العرب ، وفي القطر الواحد ، هي بمثابة مخاض كبير ، عن قومية عربية تقدمية متحررة خيرة ، تنشد التبلور في وحدة شاملة ، تشيع الانسجام في جزء كبير من العالم الاسيوي — الافريقي ، وتسهم في اقرار سلام يشمل العالم كله .

محصول هذه الثورة حتى الان جيد : عشر دول فازت بالوضع الاستقلالي الذي يفتح امامها جميعا طريق الاستقلال التام ، وقد تحقق هذا الاستقلال فعلا في بعضها . عرشان . احدهما فاسد ، والآخر بال ، انهارا لتقوم على اطلالهما جمهوريتان فتيتان . قوة عسكرية اذا قيست بما مضى ، وهو العدم او شبه العدم — فهي قوة محترمة . اقبال على التعلم والتخصص . نصر في الحقل الاجتماعي ، نهضة عمالية ، توزيع الاراضي على الفلاحين غير المالكين ، الغاء المحاكم الشرعية في مصر ، الغاء تعدد الزوجات في تونس .

واهم من هذا وذاك ، تجاوب شعبي زاخر في دنيا العرب من اقصاها الى اقصاها ، للتضامن والتكاتف في سبيل تحقيق اهداف هذه الثورة الشاملة ، تحت لواء القومية العربية .

وبديهي ان مثل هذه الثورة التي تحاول قلب عالم برمته ، لا تنتقل دائما من نصر الى نصر ، بل تعاني نكسات وردات .



فالقوى المستهدفة لا تقف مكتوفة الايدي ، فالاستعمار والصهيونية التي هي اشد الوانه صراخا، والاقطاع والرجعية بكل مصادرها واشكالها ، تعمل على صد هذه الثورة ، على قهرها ودحرها .

وقد يكتب لها احيانا نصر موقت . لكن الكلمة العليا ما زالت للثورة ، ما زالت لهذا الانطلاق المحموم نحو الحرية والتقدم .

ولنحاول الآن ، ان نستعرض حال هذه الثورة في وثباتها وكبواتها ، خلال الديار العربية .

سوريا

لا ريب ان المخاض الكبير يتجلى اكثر ما يتجلى اليوم في سوريا ، فهذا القطر الذي عاونت جهاده ظروف دولية ، ففاز مع لبنان بالاستقلال قبل سائر الاقطار العربية الخاضعة لنوع من انواع النفوذ الاجنبي ، آمن باستقلاله منذ اللحظة الاولى . وادرك ان عليه صيانته ، من اجله هو ومن اجل بقية البلدان الشقيقة ، وهكذا بدا ضنينا به ، حريصا عليه ، بكثير من التزمت ، حتى انه رفض المعونة الاميركية على اساس النقطة الرابعة، ووقف في وجه جميع المحاولات التي دبرها الاستعمار للحد من استقلاله، حتى انه - وهو الذي نص دستوره على انه ما من علم يرتفع فوق علمه الا علم الوحدة العربية ، وهو الذي طالما تاق الى اتحاد مع العراق - رفض العرض العراقي بالاتحاد ، حين راى فيه اداة مستترة لعودة النفوذ الاجنبي الى ربوعه .

ثم ان سوريا كانت اكثر البلدان العربية تأثرا بالكارثة الفلسطينية ، واشدها تحسسا بها ، فقامت فيها سلسلة من الانقلابات ، جعلت الحكم غير مستقر . لكن بالرغم من عدم الاستقرار هذا ، وبالرغم من تقلب انواع شتى من الحكم عليها خلال تسع سنوات ، مما يجعلها هدفا سهلا للمؤامرات الاستعمارية ، فان سوريا بقيت صاعدة ، وكانت وطنية حكامها العسكريين او المدنيين المستمدة من صميم الشعب العربي فيها ، تحبط تلك المؤامرات ، وتنتصر عليها .

وكانت سوريا اول من رفع راية التحرر على الغرب ، لا برفضها النقطة الرابعة الاميركية والاتحاد العراقي المفلفل بتوابل بريطانية فحسب ، وانما بمد يدها الى يوغوسلافيا تستعين باحدى شركاتها على بناء مرفأ اللاذقية، وعقد اول صفقة اسلحة سرية مع تشيكوسلوفاكيا .. ثم بفسحها المجال امام شيوعي بارز هو السيد خالد بكداش ان يصبح نائبا ، في انتخابات عامة حرة .

وازدادت سوريا عنادا وتمردا ، يوم قامت ثورة مصر ، فعرفت منذ اللحظة الاولى اي خير لمصر وللعروبة جمعاء من وراء هذه الثورة . وتحالفت معها تحالفا قلبيا وثيقا . فلما كانت المؤامرة الجديدة بحلف بغداد ، لغل يدي سوريا ، صمدت سوريا مع مصر ، واحبطتا المحاولة . ثم كانت اكبر عون لمصر في المحنة التي عانتها اثناء ازمة السويس . ودشن البلدان ، بعد ان استمالا السعودية والاردن ، سياسة الحياد الايجابي .

وظهر ان هذه السياسة تحد جديد للغرب . فاميركا زعيمة العالم الغربي ، لم تهضم هذا الحياد . وراحت ، وهي تتقدم بمشروع ايزنهور المعادي للمعسكر الشرقي - تضع مصر وسوريا امام مخرجين : اما معنا ، واما علينا .

ويشهد الله ان سوريا - ما دام الكلام هنا على سوريا - تمسكت بالحياد ما وسعها ذلك ، هذا اذا اعتبرنا طلبها للعون الاقتصادي السوفياتي ضربا من الانحياز . وهي التي سبق لها ان رفضت حتى النقطة الرابعة - لكن الغرب الذي كان يستهدف عزل مصر ، شدد النكير على سوريا ، وفرض عليها ضغطا اقتصاديا مريرا ، حتى ان فرنسا رفضت شراء القمح السوري الذي تحتاج اليه ، واحاطها بدول موالية كلها له ، بعد نجاح مؤامرته في الاردن ، ازاء هذا الضغط السياسي والاقتصادي المزدوج ، بل الضغط العسكري تارة من اسرائيل ، وتارة من تركيا ، واخيرا من الاردن نفسه ، على لسان عميل الاميركان سمير الرفاعي - لم تجد سوريا مفرا من طرق باب موسكو ، اذا هي ابت ان تركع امام الغرب .

ورحبت موسكو بالطلب ، وفتحت ذراعيها ، وبسطت يدها ..

وعاد الوفد السوري من موسكو وبراغ ، حاملا اتفاقات مبدئية حول مساعدات اقتصادية وفنية كفيلة بان ترفع كابوس الغرب عن سوريا ، وان تفتح لها طريق التقدم والقوة .

بديهي ان الاتحاد السوفياتي لم يفرض شروطا سياسية على سوريا لقاء مساعدانه ، لم يطلب مثلا مكافحة الرأسمالية الدولية ، او الديمقراطية الغربية .. لكن لن نغالط انفسنا ، فنرغم ان علاقات دمشق بواشنطن مثلا ، يمكن ان تبقى مساوية لعلاقاتها بموسكو ، بعد هذا الاتفاق، لاسيما وان الغرب الذي ابى على سوريا مجرد الحياد بين المعسكرين ، لن يغتبط برؤية بلد عربي له اهميته الكبرى في الشرق الاوسط يتلقى المساعدات السوفياتية . ولا بد له ان يضاعف جهوده للقضاء على سياسة سوريا الجديدة .

وهذا ما تنبه له المسئولون السوريون ، فاحدثوا تغييرات هامة في قيادة الجيش وقوى الامن الداخلي .

وليس عندنا شك ، سواء اثبتت المؤامرة الاميركية مع الشيشكلي والحسيني بحذافيرها ام لم تثبت ، لا شك عندنا في ان اميركا - ولها سابقة في الاردن - لم تكن تقف موقف المتفرج في دمشق .

ولما كانت سوريا لا تخلو من عناصر موالية للغرب، او عناصر اثرت فيها دعاية الغرب من ان سوريا تسير نحو الشيوعية - ونحن لا نرى اية علاقة بين قبول العون السوفياتي وانتشار الشيوعية في سوريا - فلا بد من نشوب صراع داخلي ولو في الخفاء بين التقدميين السوريين والمحافظين .

ونعتقد انه بقدر ما يتشدد المحافظون ، بقدر ما يكون رد الفعل قويا عند التقدميين .

وفي رأينا انه اذا ما كتب النجاح للخطوة السورية الجديدة المليئة بالجرأة - وهو مكتوب لها ان شاء الله - فلن تسفر عن سوريا شيوعية، بل عن سوريا قومية عربية ، ذات اتجاه اشتراكي ، يرفع مستوى الفرد والجماعة في سوريا ، ويجعل من سوريا وحدها في بضع سنوات ، قوة حقيقية حية كافية لكبح جماح اسرائيل ، وشل خطرها الى الابد .

ان الخطر الاسرائيلي المخيف لا يهزم بقادة من البدو ، ولا بزعامات سياسية منحلة ، ولا باساليب حياة تقوم على الميعان والتخاذل ، ولا بقوى رجعية متهرئة .. انه خطر شاب ، خطر عصري بكل ما في روح العصر من قوة . ولن تهزمه الا قوى عربية شابة جديدة ، تتسلح بالعلم والبسالة ، وتؤمن بالتطور .

وهذه القوى هي التي تنشط اليوم في سوريا ، وتقود الدفة .

مصر

هذه القوة نفسها تقود فعلا في مصر ، منذ خمس سنوات . وتبدو اكثر استقرار على الدفة منها في سوريا . فالتطهير الذي تبدأه سوريا اليوم،

التطهير على نطاق واسع ، حققته مصر خلال خمس سنوات. وليس في مجلسها النيابي الا وجوه جديدة آمنت بالثورة وتجندت لخدمتها . كما ان اجهزتها في الجيش والادارة سليمة لا تفسح خطا من النجاح لاية مؤامرة اجنبية او غير اجنبية .

النجاح الوحيد في مصر هو للثورة ، باهدافها العربية والمحلية ، وان الخطابين اللذين القاهما الرئيس عبد الناصر في ذكراها الخامسة ، احدهما امام مجلس الامة ، والاخر امام الجماهير في الاسكندرية ، عبرا عن ثقة بالنفس لا حد لها ، وابرز دليل على ذلك ، ذلك التحدي الصارخ الذي قذف به الرئيس في وجوه الخونة والمنحرفين من رجالات العرب ، اذ اعلن ان لا تضامن معهم ولا اتفاق. فمصر - الثورة لا تخشى العزلة، لان الشعب العربي معها في كل مكان . وان كانت تخشى شيئا ، فهو ادخال حصان طروادة الى صفها المتراص .

وهكذا ، بعد تجارب قاسية وانتصارات باهرة ، اثبت الزعيم المصري انه - وقد اصبح رجل دولة من الطراز الاول - ما زال يطل ثورة، وان للمبادىء والمثل العليا في نظره المكانة الاولى . فمصر لن تضع يدها الا في ايدي الخلص وحدهم .

لبنان

الثورة في لبنان ، تتجلى في المعارضة ، المعارضة الشعبية التي تزيد حتما عن نصف اهل البلد ، والمعارضة البرلمانية التي استطاعت ، رغم ما دبر في الانتخابات ، ان تنتزع عشرين مقعدا من اصل ستة وستين .

ومن يعرف تاريخ لبنان الحديث يدرك اية اهمية واي وزن لمثل هذه المعارضة في البرلمان اللبناني ، لاسيما حين تستند الى كثرة شعبية ، ففي عام ١٩٥٢ ، لم يكن يزيد عدد المعارضين عن ثمانية او تسعة في مجلس يضم سبعة وسبعين نائبا . ومع ذلك استطاعت هذه القلة ان تحدث انقلابا ...

ان لبنان يعاني اليوم وعكة لم يمر بمثلها منذ استقلاله . فاكثر من نصف سكانه ناقمون على سياسته الخارجية . وهم لا يغفرون للمسئولين انهم انحازوا الى الغرب ، ودماء اخوانهم المصريين لما تجف في سيناء وبور سعيد . ولا يغفرون للمسئولين هذا السبق البطولي في اعتناق مبدأ ايزنهاور ، قبل سائر الدول العربية . فسياسة التسوية التي نهض عليها لبنان عام ١٩٤٣ ، وكرست له كيانا مستقرا بموجب ما يدعى الميثاق الوطني ، فرضت على لبنان ان ينضم الى الاسرة العربية ، وان يندمج فيها لا ان يكون قائدا لها كما اراد الدكتور شارل مالك ... وان لا يكون رأس جسر للاستعمار باي شكل من الاشكال ، وكان المغفور له رياض الصلح في القضايا العربية الخطيرة ، يعبر عن هذه السياسة التقليدية التي التزم بها لبنان الى ان ذر قرن السياسة المالكية ، يعبر عنها بقوله : « لبنان اول من اطاع ، وآخر من عصى » . هكذا ، لما تم توقيع الهدنة مع اسرائيل ، كان لبنان آخر من وقع ..

وخرق هذه السياسة التقليدية هو الذي احدث الوعكة ، وعكة يحس الحاكمون انفسهم بخطر عواقبها ...

واذا شئنا وضع النقاط على الحروف ، قلنا ان المسلمين في لبنان - او اكثريتهم على الاقل - وقد ضحوا بالوحدة السورية يوم ارتضوا الكيان اللبناني ، وقبلوا ان يعيشوا اقلية رسمية في لبنان ، متنازلين عن طلب الاحصاء العام الذي من شانه ان يثبت انهم اكثرية في الواقع ، وتخلوا عن كثير من حقوقهم في مناصب الدولة ، اي عن كثير من مصالحهم المادية ، انما فعلوا ذلك وعزاؤهم الوحيد ان لبنان اعتنق سياسة الاستقلال عن الاجنبي ، وسار في ركب العروبة . فاذا نكبوا بمثلهم الاعلى هذا ، بعزائهم الوحيد ، فليس طبيعيا ان يسكتوا طويلا على خسارة كل شيء ...

ومتى علمنا ان اقطابا وافرادا مسيحيين كثيرين يماشونهم في هذه السياسة ، ويعلمون ان مصلحة لبنان هي اولا في التجاوب مع العروبة المتحررة ، ثبت لنا ان الحركات الطائفية مستبعدة حتما . وان المعارضة للسياسة المالكية - الايزنهورية ستجد دائما طابعا قوميا يجمع لبنانيين من مختلف الطوائف .

وهذا ما يدعو الرسميين الى التفكير مليا في الحالة . ويدفعهم الى استرضاء المعارضين بكل وسيلة . حتى قيل ان البيان الوزاري لحكومة سامي الصلح الجديدة - ولم يكن صدر عند كتابة هذه السطور - ربما نص على ان لبنان يقبل المساعدات الاميركية على اساس النقطة الرابعة فقط ، لا على اساس مبدأ ايزنهور...

عمان

اسم جديد اقتحم الاذاعات العالمية والاوساط الدولية . لعل القليلين سمعوا به من قبل .. عمان الضائعة في مجاهل الجزيرة العربية ، تريد هي الاخرى ان تتحرر .

ليس يهمنا انه قد يكون وراء ثورة عمان على سلطان مسقط الموالي للبريطانيين ، قصة نفطية .. فاكثر الحركات الاستقلالية عبر التاريخ كان وراءها قصة خبز او قصة شركة احتكارية ... المهم ان مجاهدي عمان امتشقوا السلاح دون ان يكون في صفهم جندي اجنبي واحد ، شان جنود سلطان مسقط التابع للانكليز ، وهبوا يحاولون انتزاع استقلالهم بسواعدهم .

وثورة عمان ، سواء استطاع البريطانيون اخمادها، بطائراتهم وصواريخهم وجندهم ام لم يستطيعوا ، فشرارة الثورة ، شرارة القومية العربية المتحررة ، تطايرت في ما يسمونه المحميات - هذا الحزام الذي تستولي عليه بريطانيا جنوب جزيرة العرب - وهي شرارة لن تنطفىء بعد اليوم .

محمد النقاش

حاشية - تلافيا للاطالة ، وقفنا الاستعراض عند هذا الحد ، مع العلم بان الثورة العربية التي تصطرم بشكل رائع خليق بأمجد شعب، والتي تخبو نارها مثلا في الاردن والعراق ، هذه الثورة لا تقتصر على ما سردناه اعلاه .

م.ن.

قضية الجزائر .. أبداً

« مأساة الجزائر »

بقلم الدكتور عبدالله عبدالدائم

من ابرز امائر النصر الذي يلقاه نضال الشعب العربي في الجزائر تلك الازمات الوجدانية والعقلية التي خلقها في نفوس ابناء فرنسا . ذلك ان النضال الحي لا يغزو بقوته وارادته فحسب ، وانما يغزو فوق هذا وقبل هذا بالقيم العقلية والانسانية التي يحملها .

اما الازمات الوجدانية التي خلقها نضال الجزائر في قلوب الفرنسيين وغير الفرنسيين ، فالشواهد عليها غدت اكثر من ان تحصى . ولا ادل عليها من تلك المظاهرة التي قام بها اخيرا فريق من كبار رجال الفكر في فرنسا . غير ان الى جانب هذه الازمات الوجدانية ازمات من نوع آخر ، تحمل طابع العقل والتفكير العلمي قبل الوجدان والمنازع الانسانية. انها تنتصر لقضية الجزائر ، لا لانها قضية عدل وحق فحسب ، بل لان العقل يأبى ان يتنبأ لها بغير النصر ، ولان التفكير العلمي يكشف عن ان كل مماراة في امرها عبث وضلال .

ومن اهم ما ظهر في هذا الاتجاه الاخير ، الكتيب الذي كتبه المفكر الفرنسي « ريمون ارون » استاذ علم الاجتماع بجامعة السوربون ، تحت عنوان : « مأساة الجزائر » (1) . ان كاتبه يميني النزعة ، بل كثيرا ما عبر عن عدائه لاعمال الثوار الجزائريين . ومع ذلك لم يجد عقله سبيلا الى انكار حقيقة لا مرية فيها وهي ان حركة الجزائر حركة لا بد لها من النصر، وان مقاومة هذه الحركة على نحو ما فعلته حكومة « غي موليه » مقاومة عديمة المعنى ، فاقدة المدلول. ولهذا نراه يدعو الى ان يحاكم ابناء جلدته هذه المشكلة محاكمة عقلية صريحة ، لا زيف فيها ولا خداع ، وان يقبلوا فيها الحقيقة المرة ، وهي ان الوصول الى ما ندعوه بالسلم في الجزائر عن طريق القوة والارهاب مطلب مليء بالتناقض فارغ من اي مضمون . ومن هنا يفضل الف مرة ان يواجه الفرنسيون الواقع دون ما وجل ، فيقبلوا بارادتهم وعزمهم ان الجزائر بلد مستقل عن فرنسا ، ولا سبيل الى دمجه بالكيان الفرنسي . وهو يريهم ، بنور العقل ، ان القول السائر « الجزائر هي فرنسا » قول لا يستقيم امام البحث والمنطق ، على ما فيه من حرارة وغذاء للعواطف ، وهدهدة للاحلام . وهو يتخذ له شعارا في هذا كله كلمة اثرت عن « مونتيسكيو » : « على المرء ان يقول الحق ولو على وطنه . ان كل مواطن مجبر على ان يموت في سبيل وطنه . غير ان اي مواطن لا يجبر على ان يكذب من اجل وطنه » .

يتألف الكتيب من كلمتين ، كتب اولاهما في نيسان عام ١٩٥٦ ، وكتب الثانية بعد عام تقريبا (في ايار ١٩٥٧) . ولهذا نراه لا يخلو من اعادة لبعض الافكار .

اما الكلمة الاولى فهمها ان تبين ان فرنسا اذ تحارب في الجزائر تحارب دون ما هدف واضح ، وان الشعارات التي تطلقها شعارات تناقض نفسها بنفسها .

فالكاتب يسائل باديء الامر عن مبلغ اخلاص فرنسا لنفسها حين تحاول الابقاء على « صلات لا تنفصم » مع الجزائر ، وحين تريد ان تفرض « وجودها » في الطرف الآخر من البحر الابيض المتوسط .

وهنا يثير مسألة هامة ، مسألة المبادىء التي تزعم فرنسا انها تود الدفاع عنها حين تدافع عن الجزائر ، وما تقوله من ان « وجودها » هناك يحول دون تعسف جبهة التحرير الوطني ، ويساعد على اشاعة الحياة الحرة . ويبين ان ثورة ابناء الجزائر على فرنسا كثورة سائر الشعوب المستعمرة في آسيا وافريقيا على الغربيين ، ثورة لا تهدف الى الحصول على حقوق فردية وعدالة انسانية ، بقدر ما تهدف الى الخلاص من السيطرة الاجنبية . ولا يعني هذه الشعوب ان تحصل على مؤسسات حرة ونظم عادلة ، بمقدار ما يعنيها ان تحكم نفسها بنفسها . وهي اذا خيرت بين النظم الحرة تحت الوصاية الغربية وبين نظم جائرة في دولة قومية مستقلة ، فضلت الثانية على الاولى دون اي تردد . ففي الجزائر وفي غير الجزائر ، تأتي مسألة النظم الحرة بعد الاستقلال القومي . وهكذا ينعدم المبرر الاول الذي يزعمه الفرنسيون حين يحاولون القضاء على الثورة في الجزائر ، مدعين انهم يفعلون ذلك لانهم يرون من المشروع ان يفرضوا حضارتهم ومبادئهم الحرة . فالاستقلال كلمة سحرية لا تقاوم لدى الشعوب التي تناضل في سبيل حريتها ، وهي « اسمنت الكتل الاسلامية » .

وهكذا ينتقل الى تفنيد المبرر الثاني الذي يصطنع دفاعا عن الحرب في الجزائر . فكثير من السياسيين والكتاب يبينون ضرورة الاحتفاظ بالجزائر لاسباب اقتصادية : فيذكرون بمئات الالوف من العاطلين عن العمل الذين يخلقهم انفصام العلائق بين فرنسا والجزائر . وهنا يقول في صراحة ووضوح ان مثل هذه الحجة حجة كاذبة وخطرة جدا تسيء الى القضية التي يدعي انصار هذا الرأي خدمتها. ذلك ان من غير الجائز ان نقول ان شعبا من الشعوب يقاتل في سبيل الاحتفاظ بمنصرفات لعمل ابنائه . صحيح ان استقلال الجزائر ، بعد استقلال تونس ومراكش ، قد يؤدي الى ركود اقتصادي . وصحيح ان بعض الصناعات ، ولا سيما صناعات النسيج ، قد تصاب بأذى . غير ان من

(1) Raymod Aron : La tragédie algérienne, Plon, Juin 1957

الصحيح ايضا ان فرنسا توظف حوالي ثلاثماية مليار فرنك من اموالها في الجزائر ، وان الاسواق المحمية تجلب الكسل وتجر اخيرا نفقات تفوق الارباح . على ان ثمة امرا فوق هذا كله : وهو الاقتصاد الذي يعجز عن ان يحيا ويقوم بنفسه دون ما « صيد غريب » ، اقتصاد ضعيف ينبغي ان يعالج في ذاته . واذا كان الاقتصاد الفرنسي لا يصل الى التغلب على الصعاب التي يخلقها استقلال شمالي افريقيا ، فمعنى ذلك ان علينا ان نتهم هذا الاقتصاد نفسه لا استقلال الجزائر الذي يؤدي اليه . ان هولاندا قد عرفت ان تتغلب على نتائج استقلال اندونيسيا ، رغم ان شأن هذا البلد في اقتصادها يفوق شأن افريقيا في اقتصاد فرنسا .

أفيقال بعد هذا ان اعادة فرنسيي الجزائر الى فرنسا سوف يكلف نفقات ضخمة ؟ أم يقال ان العامل الفرنسي سوف يضطر الى البطالة يوما في كل اسبوع اذا فقدت فرنسا الجزائر ؟ يكفي لدحض هذا كله ان نذكر ان حرب الجزائر تكلف فرنسا كل عام من ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليار فرنك . واذا ما ربحت فرنسا الجزائر كلها جدلا ، اضطرت الى توظيف مثل هذا المقدار من المال في كل عام . وهذه الاموال لو وظفت في فرنسا بدلا من الجزائر لدرت على الفرنسيين ارباحا اكبر تشملهم جميعا بدلا من ان تشمل طبقة محدودة من اصحاب رؤوس الاموال المقيمين في الجزائر .

غير ان هذه الامور كلها امور تمس الغد . واهم منها ان نتحدث عن يومنا . اننا اليوم في حرب مع الجزائر . فلنسائل ما معنى ان نربح الحرب في الجزائر ؟ ان حكومة « غي موليه » الاشتراكية تلخص سياستها الرسمية هناك في كلمات موجزات : عمل حربي لخلق الشروط اللازمة لانتخابات حرة ، ثم مفاوضة مع النواب الذين ينتخبهم شعب الجزائر حول الوضع المقبل لهذا البلد . ومثل هذه السياسة معروضة لاعتراضين اساسيين : فمن حقنا ان نتساءل : هل من الممكن ان نعيد النظام الى الجزائر على نحو تغدو فيه الانتخابات الحرة ممكنة ؟ فالحرب لا تبقي بعدها مجالا للحرية . ومن حقنا بعد ذلك ان نتساءل: اذا طلب نواب الجزائر الاستقلال التام والناجز فهل نحن على استعداد لان نمنحهم اياه ، ام ان المفاوضة ستدور فقط على الشكل الذي يتخذه الوضع في الجزائر ضمن الجمهورية الفرنسية او الاتحاد الفرنسي ؟

ولكن لنذهب الى ابعد من هذا . اذا لم تنجح فرنسا في القضاء على الثورة في الجزائر بعد بضعة اشهر – وسائر القرائن تدل على انها لن تقوى على ذلك – فماذا يحدث في فرنسا ؟ وكم من الزمن يستطيع الرأي العام الفرنسي ان يدعم الجهود الحربية هناك ، اليس من المتوقع ان يصبح الخلاف بين الفرنسيين الذين يقاومون مبدأ التفاهم مع الثوار وبين اولئك الذين ينتصرون لهذا المبدأ ، من الحدة والقوة بحيث يصبح من المستحيل تأليف حكومة شرعية في فرنسا ؟ ثم ان تونس ومراكش حصلتا على الاستقلال والجزائر بدورها لا بد ان تعي ذاتها . ولا يمكن بحال من الاحوال ان تغدو جزءا من فرنسا . ولا مناص من تكوين وحدة سياسية جزائرية . اما دمجها بفرنسا ، مهما يكن معنى هذا الدمج ، فأمر لا يمكن تطبيقه عمليا . ويكفي لذلك ان ندرك ان تمثيل ابناء الجزائر في مجلس النواب الفرنسي تمثيلا يتناسب مع عددهم هو خير وسيلة لتهديم نظام الحكم في فرنسا . فتكاثر السكان مختلف جدا بين فرنسا والجزائر ، وهذا الاختلاف وحده كاف لان يجعل من المستحيل على هذين الشعبين المنتسبين الى عرقين مختلفين ودينين مختلفين ، ان يكونا مجتمعا واحدا .

ثم ان اعتراف الاشتراكيين وحكومتهم بالشخصية الجزائرية على حد تعبيرهم ، هو في اعماقه اعتراف بأن حكومة جزائرية لا بد ان تتشكل في الغد . واذا شكلت حكومة جزائرية في الغد ، فلا بد ان تصبح مستقلة عاجلا أو آجلا . فللسياسة منطقها : والحماية تجلب الاستقلال ، لان الدولة الحامية لا يمكن ان تقوي الدولة المحمية دون ان تمنحها شيئا بعد شيء مقومات الاستقلال واسبابه . وهكذا حين يرفض حزب مبدأ الدمج التام (كما يفعل الاشتراكيون اذ يعترفون بالشخصية الجزائرية) فهو يطلق لا محالة الحركة الاولى من عمل لا بد ان ينتهي بالاستقلال . ومن الخلف المنطقي ان نعترف بأن الجزائر سوف تغدو في الغد دولة ، دون ان نعترف بأنها لا بد صائرة في الغد أو بعده دولة مستقلة .

ففيم يقاتل الفرنسيون اذن اذا كانت النتيجة المحتومة للقتال ، سواء ظفروا او هزموا ، نتيجة واحدة ، ألا وهي استقلال الجزائر اخيرا ؟

قد يقال ان الفرنسيين اذ يرسلون اربعمائة الف جندي الى الجزائر ، يبغون هدفا بسيطا الا وهو عدم التخلي عن الفرنسيين المقيمين هناك منذ سنوات طويلة . وقد يقال ايضا ان الفرنسيين لا يشرفهم ان يضحوا بأصدقائهم المسلمين هناك وان يدعوهم فريسة لاقلية عنيفة (في رأيهم) . ولكن معنى هذا ان هدف الحرب في الجزائر ينبغي ان يرسم بكلمات ابين فيقال : ان فرنسا تحارب هناك لتجعل الجزائر تصل الى الاستقلال دون ان يكون في ذلك مساس بكرامة فرنسا ، ولتخرج هناك بحكومة اكثر اعتدالا من ثوار الجزائر واقرب الى الغرب . فهلا صرح المسؤولون بمثل ذلك ؟ لعل في بيان الهدف على هذا النحو تيسيرا للوصول الى حل مقبول ولاعادة النظام . فاذ ذاك تعمل الحكومة الفرنسية على بينة من الامر وتتخذ الخطوات العملية المؤدية الى هذا الغرض ، وعلى رأسها التعويض عن الفرنسيين الذين سوف يغادرون الجمهورية الجزائرية ..

ويختم الكاتب كلمته الاولى هذه ، ملخصا وجهة نظره ، فيقول :

« مبلغ ظني اننا نخفف كثيرا من محنة الفرنسيين اذا لم

نزيف لهم الحقائق . ففرنسا لا يمكن ان تحارب لتحول نهائيا دون استقلال الجزائر . انها تحارب لتمنح هـذا الاستقلال وفق اسلوب معين ولزعماء دون آخرين . واذا كان الفرنسيون يتأبون على هذه اللغة ولا يقرون ان يحاربوا الا للابقاء على سيطرتهم وحكمهم هناك (وهذا ما لا اعتقده) فخير لنا اذ ذاك ان نتبنى حلا بطوليا هو التخلي عن الجزائر واعادة الفرنسيين المقيمين هناك الى بلادهم ، من ان نتبنى حربا نسوقها عن غير ارادة منا ودون عزم ومن غير امل في النجاح » .

***

وفي الكلمة الثانية التي كتبها بعد عام ، يعاود الكاتب افكاره السابقة ، مع وقفة خاصة مفصلة عند بعضها . فلقد كشف العام الذي انقضى بين تحرير كلمته الاولى وبين كلمته الثانية عن كثير من الحقائق التي صدقت حدسه ونبوءته . فالسياسة التي تتبعها الحكومة والتي تدعى بسياسة تحقيق الهدوء والسلم اثبتت فشلها ، واستبان للجميع انها زادت في تعقيد الامور ، وعملت على ابعاد الشقة بين الفريقين المختصمين . لقد انقطعت الصلة خلالها بين السيد « لاكوست » الوزير المقيم في الجزائر وبين صفوة الجزائريين . وانضم الى جيش التحرير اكثر العلماء والبورجوازيين والطلاب والمفكرين وسائر من كانت تعقد عليهم الآمال في الوصول الى تسوية معقولة .

ولهذا آن الاوان في نظر الكاتب ، لتخلية مؤامرة الجبن، للكلام عاليا وقول الحق صراحا ، مهما يكن مرا ، ودون ما مداعبة للعواطف ،مهما تكن مشروعة .

ومن هنا نراه يصوغ افكاره التي عرضها في كلمته السابقة صياغة جديدة ، فيجنح الى التساؤل عما ترغب فيه فرنسا بدلا من التساؤل عما يمكنها ان تفعله . واول ما يثيره بهذا الصدد القول السائر : « الجزائر فرنسية » .. فيصيح في حماسة وحنق : « انتم يا من تلقون بهذا التعبير المؤثر في حمى العزة القومية ، انظروا اولا الى الواقع ، وتدارسوا الارقام ، قبل ان تحلموا في الثروات الدفينة في الصحارى المحرقة » .

وما عسانا واجدين ان نحن درسنا الارقام واستقرأنا الواقع ؟ ان اول حقيقة نجدها هي ان شعب فرنسا وشعب الجزائر لا ينتسبان الى نموذج سكاني (ديموغرافي) واحد، ولا يخضعان لمستوى اقتصادي واحد .

ومعنى هذا ان دمج هذين الشعبين المتباينين تباينا جذريا يصطدم بعقبات لا يمكن تذليلها : ذلك ان القوانين (الاقتصادية والاجتماعية) التي تلائم احدهما لا يمكن ان تلائم الاخر :

فنسبة الوفيات لدى عرب الجزائر تبلغ ١٥ ٪ ، ونسبة الولادات تبلغ ٤٣ ٪ وتقدر الاحصاءات تزايد عرب الجزائر بـ ٣٣٧٣٠٠٠ بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠، وبـ ٤٥٢٧٠٠٠ بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٨٠ . وفي هذا التاريخ تبلغ عدة الشعب العربي في الجزائر حوالي ١٨ مليون نسمة .

ومثل هذا التزايد السريع يخلق شعبا فتيا من طراز خاص : فيه ٥٥ ٪ فقط يتجاوزون الستين مقابل ١١،٦ ٪ لدى غير العرب المقيمين في الجزائر و ١٦،٤ ٪ لدى الفرنسيين المقيمين في فرنسا . اما عدد الرجال القادرين على العمل فقد انتقل من ٢٠٤٨٠٠٠ عام ١٩٤٨ الى ٢٣٦٥٠٠٠ عام ١٩٥٥ . ومن اجل هذا نجد زهاء ٨٠٠٠٠٠ شاب عاطلين عن العمل . ولا بد من خلق ٦٧٠٠٠ عمل جديد في السنة حتى عام ١٩٦٠ ، و ٩٨٠٠٠ عمل بين عام ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، و ١٢٧٠٠٠ عمل جديد بين عام ١٩٧٠ ، و ١٢٧٠٠٠ عمل جديد بين عام ١٩٧٥ – وعام ١٩٨٠

ومعنى هذا مرة اخرى ان الاوروبيين المقيمين في الجزائر لا بد ان يكتسحوا عدديا من قبل السكان العرب . ان عدد هؤلاء الاوروبيين اليوم حوالي ١،٠٤ مليونا مقابل ٩ ملايين عربي . وفي عام ١٩٨٠ لن يزيد عدد الاوروبيين زيادة تذكر (فلن يتجاوزوا ١،٢ مليونا) بينما يبلغ العرب ١٨ مليونا كما ذكرنا .

وتنجم عن هذا نتيجة اخرى هامة . وهي ان سائر ما نسمع به من تصريحات رنانة تتعهد فيها فرنسا برفع مستوى حياة الشعب الجزائري وجعله قريبا من مستوى حياة الفرنسيين ، اقوال فارغة من اي معنى ما دامت زيادة السكان قائمة على هذا النحو وما دامت القوانين «المالتوسية» في تحديد النسل لا يمكن ان تطبق في مثل هذا البلد المسلم .

ولا يقف الامر عند هذا الحد ، بل يتجاوزه الى ابعد من هذا . فخلق وظائف واعمال جديدة يستلزم تصنيع الجزائر ولكن صناعيي فرنسا لا مصلحة لهم في اقامة مصانعهم في الجزائر ، ومصلحتهم تقضي على العكس من هذا بانشائها في فرنسا : فما ينتج في فرنسا اقل نفقات وكلفة ، والحرب الان قائمة ، وليس هنالك اي فرنسي يطمئن الى توظيف في ارض تخربها الاحقاد والمنازعات .

ولنخط خطوة ايضا . ما دامت الجزائر خاضعة لسلطان فرنسا ، كان لا بد ان ننقل اليها نظمنا الفرنسية من مدارس ومستشفيات وتشريعات اجتماعية . ومعنى هذا اننا اذا اردنا ان نحقق العدالة لشعب هذا عديده ، وهذا تزايد سكانه ، كان ذلك خرابا لفرنسا دون ان يكون فيه انقاذ للجزائر .

وجملة القول ان الجزائر ليست جزءا من فرنسا ، ولا ينبغي ان تكون ، ولا يمكن ان تكون جزءا منها . فتزايد السكان فيها وفقرها يجعلان منها بلدا متخلفا . وليس من المعقول ان تطبق فيها فرنسا نظاما مختلفا تماما عن بقية المحافظات الفرنسية اذا اصرت على كونها فرنسية . وهكذا يصبح الاعتراف « بالقومية الجزائرية » ضرورة تفرضها الحقائق السكانية (الديموغرافية) والاقتصادية كم تفرضها مطالب شعب الجزائر واعمال الثوار .

بل ان هنالك حقائق اخرى تجعل استقلال الجزائر امرا

مرغوبا فيه .

فدخول العمال الجزائريين لفرنسا دخولا حرا يطرح منذ الآن مشكلة خطيرة . لقد ازداد عدد هؤلاء العمال من ٦٠٠٠٠ عام ١٩٤٥ الى ٣٣٠٠٠٠ عام ١٩٥٦ . صحيح ان الصناعة الفرنسية في حاجة اليهم . ولكن البون الشاسع

مؤلف من ٤٠٠٠٠٠ جندي يبدو له ابعد عن الانسانية دون شك .

وبعد ، اي تناقض بين القول بأن الجزائر مصدر ثروة لفرنسا وبين القول بأن فرنسا تود انقاذها من البؤس ؟ ان الكاتب يطلب بقوة من اولئك الذين يفاخرون بخدمات

بد ان يشجع العناصر المتطرفة هناك ويقلب فوق مراكش وتونس من فرنسا رأسا على عقب ويبعد عن الساحة العناصر التي ترغب في التعاون معها . وهب جدلا ان مراكش وتونس لم تتدخلا في المعركة فعلا . انهما على اية حال ستظلان قواعد مغذية للمقاتلين الجزائريين ، كما كانت الصين قاعدة لفييتنام الشمالية وان ننس لا ننس ان افريقيا الشمالية ، شئنا ام ابينا ، تؤلف وحدة لا تتجزأ . ولا يمكن ان نتبنى في الجزائر سياسة مباينة للسياسة التي تتبنى في تونس او مراكش .

اما الحل الثاني ، نعني تغيير الوسائل دون تغير الاهداف فصعوباته اكبر ايضا . فالقيام باصلاحات معدودة في الجزائر وتقديم مساعدات لبعض العرب الناقمين على جبهة التحرير ، لن تجدي في هذا المجال . فالعرب الناقمون ، ان كان هناك قلة منهم ، لا يمكن الا ان تأخذهم العزة القومية ويتعاونوا مع ابناء جلدتهم . وفي حركات الثورة القومية ، الوزن الحقيقي للاقليات الفعالة النشيطة على اية حال .

اما الحل الثالث ، نعني تقسيم الجزائر فأسق مطلبا . انه يرى ان يجمع اكثر الفرنسيين في المنطقة الشاطئية من مدينة الجزائر الى وهران ، ويؤلفوا جمهورية فرنسية يسمح للعرب بالحياة فيها على الا يتجاوزوا نسبة معينة . واما باقي البلاد فتؤلف جمهورية جزائرية يعيش فيها الفرنسيون على قدم المساواة مع الجزائريين ولكن على شكل غرباء .

ويرى بعض انصار هذا الحل ان يلحق الجانب الشرقي بتونس والجانب العربي بمراكش ، وان يؤلف المركز ، مع رأس منه ممتد في الصحراء ، مقاطعات فرنسية .

وواضح ما في مثل هذا الحل من مصاعب . انه لا يعدو ان نطبق على افريقيا الشمالية الحل الذي طبق في فلسطين . والسابقة الفلسطينية لا تشجع على اعادة مثل هذه التجزئة . يضاف الى هذا ان مثل هذا الحل لن يرضي اي فريق من الفريقين المتخاصمين . فلن يرضى عنه فرنسيو الجزائر كما لا يرضى عنه عرب الجزائر .

وهكذا يصبح الحل الرابع هو الحل الوحيد الممكن . انه يعني القبول مبدئيا بدولة جزائرية ، مع الاعتراف بامكان استقلال هذه الدولة . ومثل هذا الحل لا ينافي المصالح الفرنسية ، على نحو ما بيَّن الكاتب ، كما انه قد يساعد على الوصول الى حل وسط بين العنف المتواصل والتخلي المفاجىء .

ويختم الكاتب كلمته بدعوة صادقة الى ترك الاهواء والعواطف والاحتكام الى لغة العقل . فأكثر الحجج التي يذكرها انصار الحرب في الجزائر تبريرات عقليا لمواقف عاطفية جموحة . وما يزال الفرنسيون يفتقرون ، على احد تعبير « رينان » Reman عام ١٨٧٠ الى « الدماغ المفكر لا الى القلب . »

عبد الله عبد الدائم

قضايا الفكر العربي المعاصر

محمود المسعدي يحدث «الآداب» عن

الوضع الثقافي في تونس

زار لبنان في هذا الشهر الاديب التونسي الكبير الاستاذ محمود المسعدي مدير التعليم الثانوي في الحكومة التونسية .

ويعرف قراء « الآداب » ان الاستاذ المسعدي ، مؤلف تمثيلية «السد» وروايتي «مولد النسيان» و «حدث ابو هريرة قال ...» هو الم وجه من وجوه الادب التونسي المعاصر .

وقد وجهت « الآداب » اليه عددا من الاسئلة التي تلقي ضوءا كاشفا على الوضع الثقافي في تونس . وهذه هي اجوبة الاديب العربي الكبير :

السؤال الاول ـ هل لكم ان ترسموا لقراء « الآداب » الخطوط الكبرى للوضع الثقافي والفكري في تونس ؟

١ ـ للواقع ـ اي واقع ـ على صاحب الفكر اذا رام تقريره او تحليله او وصفه المجرد ان لا ينقصه حقه من البحث العلمي وما يستلزم من تطويل الاستيعاب . وقد حملتموني بطبع سؤالكم على الاجمال . واود ان يؤخذ جوابي لكم على انه لا يعدو الاشارة البسيطة والايماء التقريبي .

في رأيي انه ينبغي اولا للمتطلع الى احوال تونس الثقافية والفكرية ان لا ينسى انها البلد التي كان لها بعد القرن الثاني للهجرة اعلام من علماء الاسلام امثال سحنون واسد بن الفرات تدوي باصواتهم اركان جامع القيروان ، وانها اغنت ثروة الثقافة العربية على كر العصور بمثل مؤلفات ابن رشيق وابن شرف وابي القاسم الشابي وانها كان بها طوال قرون احد معاقل العلم الاسلامي الثلاثة الكبرى الا وهي جامع الزيتونة بتونس والازهر بالقاهرة والقرويين بفاس ، ثم انها فوق ذلك كله انجبت للعالم باسره احد عمالقة الفكر الانساني : ابن خلدون ...

ولعل اخص خصائص الوضع الثقافي والفكري في تونس انه يتنزل في صميم هذه السنّة الثقافية العربية الاسلامية التي لا تزال سنته على وجه الدهر وانه قائم على هذا الضرب الفطري او الجبلي من الوفاء التاريخي الدائم الى ذاتيته تلك ولونه الانساني ذاك .

على ان من السنة ما قد يكون جمودا ومن الوفاء ما قد يكون شيخوخة ، ونضوب حياة . وما وفاء تونس ولا اخذها بسنتها الثقافية التالدة من هذا ولا من ذاك في شيء . بل لا اظنني مخطئا اذا قلت ان تونس لا تزال منذ القرون تجهد ان يكون وفاؤها لسنتها الثقافية وفاء « ديناميا » حيا لسنة « دينامية » متجددة حية وان يكون الذي ترثه عن الماضي في غير تنكر له او انكار نقطة انطلاق نحو جديد يكتسب بجهد جديد ويضاف الى صالح الموروث وباقيه .

بهذا يفهم السر في ان الثقافة التونسية والتفكير التونسي استطاعا ان يتحملا نحو القرن من الغزو الاوروبي والسطو الاستعماري وان يخرجا من ذلك بذاتية سالمة من مسخ التقليد للاجنبي والاصطباغ بمستعار الصبغة من ثقافته وتفكيره وسالمة في آن واحد من التجمد والتحجر في قديم الذاتية الموروثة اللذين كانت تدفع اليهما غريزة المحافظة على الوجود تجاه الاستعمار واخطاره وهجوماته .

ولا ريب ان طور « التعصّي » الضروري الذي مرّ به الشرق العربي كله بين اواسط القرن التاسع عشر واليوم قد مر على تونس اعسر ما يكون وفي اشد الظروف وبأعظم الاخطار . وقد خرجت منه البلاد مع ذلك بثقافة «مبعوثة» كأصدق ما يكون البعث واقوى ، وبفكر مجدد كأحيا ما يكون التجدد والتجديد . وما من شك عندي في ان الذي خرجت به تونس من هذا الطور هو ـ الى جانب محافظتها الكلية على ذاتيتها الثقافية العربية الاسلامية ـ تقوية الجانب «الانساني» الصميم من تفكيرها ونظرتها الى الوجود . وقديما انتقل ابن خلدون التونسي بالتفكير العربي الاسلامي



الكتاب ...

رسم للفنان التونسي حاتم المكي

من لفظة «سنة الله» التي كان بعض العملاء قبله يكررونها من دون معنى علمي الى مفهوم « السنن الكونية » المستقراة من واقع الاحداث والتي يعني جماع ما كسبه الفكر الانساني لما ابتدع العلم الحديث .

وكذلك في ميدان آخر ترى ابا الشابي يتأثر بالغرب وآدابه على طريق شعراء المهجر ولكنه لا يلبث ان يعود الى « حظيرته » الاولى مجددا النظرة والاحساس فيخرج شعرا عربيا صميما يتعالى فيه عن نواح « الرومانتيكية » المجردة وعن « العبرات » المنفلوطية الساذجة الى التغني بالحان مأساة مصير الانسان وشأنه في الوجود وفي الكون .

ومع انه ليس اكره الي من الكلام عن نفسي فأن التصفح والاستشهاد يوجبان علي ان اذكر هنا رواية « السد » التي نشرت لي بتونس في السنة الماضية والتي لا اعلم انه كتب عنها وعرفها في الشرق غير الدكتور طه حسين . وهي رواية عالجت فيها مشكلة الفعل والخلق الانساني من بعض وجوهها . وكل ما يهمني ذكره منها هنا انها تتناول مشكلة « وجودية » تنتسب في جوهرها الى بعض ما عالجته في القديم «الميثولوجية» اليونانية الخالدة وعالجه في العصر الحاضر الكثير من كتاب الغرب ومفكريه ، ولكنها مع ذلك منزلة تنزيلا في صميم الفلسفة الوجودية الشرقية او بالاحرى الاسلامية بكل ما تذهب اليه من تحديد لماهية الانسان ومنزلته من الله ومن الكون ومن تقدير لامكانيات الانسان وفعالية ارادته ولقدرته وخلقه وبكل ما تحويه تلك الفلسفة من روعة الايمان وقوة الشك (١)

السؤال الثاني ـ كانت الثقافة التونسية مرتبطة اشد الارتباط بالثقافة الفرنسية . فهل تعتقدون انها بدأت تستقل عنها ، وما هي خصائص هذا الاستقلال ؟

٢ ـ هذا ما كنت اتوقعه سؤالا منكم فتعمدت السكوت عنه في الجواب عن سؤالكم الاول عن الوضع الثقافي والفكري بتونس .

وسيكون جوابي لكم بسيطا: هذا الارتباط الذي تتحدثون عنه بين الثقافة بتونس (ولا اقول التونسية) وبين الثقافة الفرنسية هو اشبه شيء بالصلة بين الغل والمغلول به على وجه من الوجوه وبين الظمآن والماء الذي يشربه على وجه آخر . فان اخذته على الوجه الاول فما اظن ان غلا يصح ان يعد عنصرا من عناصر ثقافة المغلول به . وعلى كل فقد سقط الان وانكسر القيد . وان اخذته على الوجه الثاني فان الماء المشروب لا يسأل عنه بل المهم ان تعرف كيف اصبح الظمآن بعد شربه وهل ارواه الماء وهل انعش فيه قوى الحياة .

وذاك هو معنى الاستقلال في اخصب صوره واحياها ، ان يكون الغذاء خادما للحيوية وان ينقلب الى طبيعة المتغذي به قوة فيه . فان كان على هذا المعنى فان الثقافة بتونس كانت ولا تزال اشد الثقافات ـ الشرقية منها على الاقل ـ استقلالا عن الثقافة الفرنسية لانها كانت ولا تزال اشدها ملاصقة لها واكلا وهضما واشدها تغذيا بها وامتلاكا لقواها.

وهل شأن الحي غير انتزاع قوى الحياة من كل ما يجده حوله من مأكل ومشرب ؟ انما مدار الامر كله ان يقلب الآكل ما يأكل الى جوهره وطبعه . وقد سبق ان قلت ان الثقافة التونسية موفية كل الوفاء الى طبيعتها العربية الاسلامية . فاي ضير عليها بعد هذا من التغذي بالثقافة الفرنسية ـ في الماضي وفي المستقبل ـ او بغيرها من الثقافات الغربية ان هي استطاعت ان لا يمسخها الغذاء الى غير ما ينبغي ان تكون بحسب ارادتها الوجودية .

ولعل اشنع صور الاستقلال واقربها الى الحماقة استقلال الظمآن عن الماء . واشد الناس احتماء من ملابسة الغير من لم يكن له بقوة شخصيته وامتياز ذاتيته ايمان.

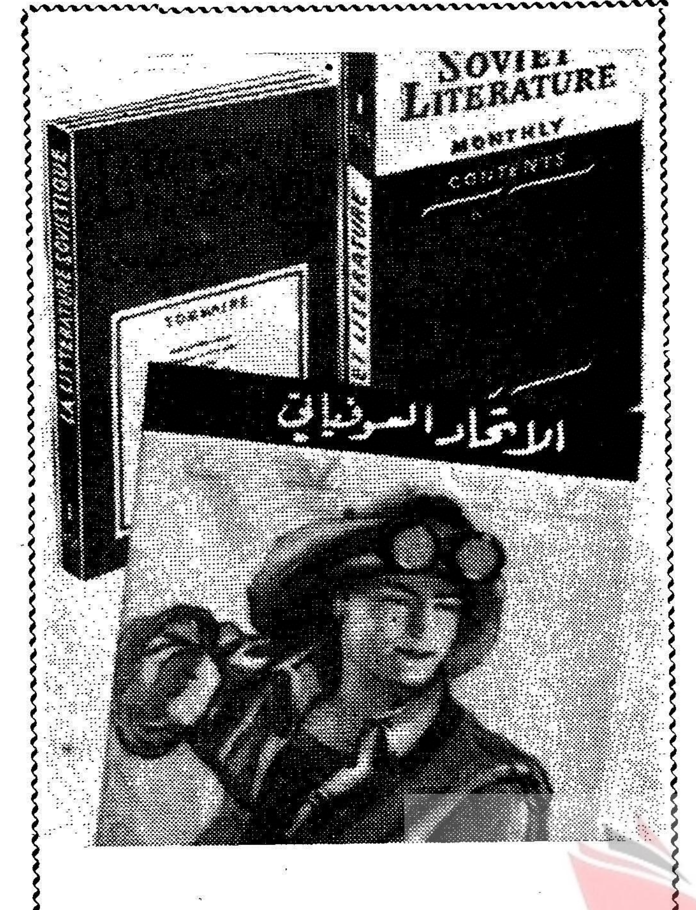

محمود المسعدي

السؤال الثالث ـ ما هي في رأيكم اسباب تأخر الادب التونسي عن الادب العربي في الاقطار الاخرى ، بصرف النظر عن اضطهاد الاستعمار الفرنسي للفكر التونسي ؟

٣ ـ اما ان يكون هناك « تأخر » كما تقولون ففي الامر نظر... على الاقل . واما ان يكون انتاج تونس الادبي قليلا في الجملة فهذا امر لا ينكر . ولا ارى هذا الاقلال الحالي امرا غريبا . فان تونس كانت في جميع العصور مقلة على وجه العموم ، لم تنجب شعراء كثيرين ولم تنبت تربتها غير ابن خلدون واحد . على اني اعتقد مع ذلك ان هذا الاقلال لا يصح تقريره ، على وجه الاطلاق . فقد كان في الماضي ولا يزال في الحاضر بتونس انتاج فكري ليس في كميته ولا في قيمته قليلا كل القلة . ولكن مراكز

(١) راجع حول هذه النقطة ما كتبه المؤلف جوابا عن تحليل الدكتور طه حسين لرواية « السد » بمقاله في جريدة « الجمهورية » المصرية (انظر مجلة « الفكر » التونسية)

الاشعاع ـ ونقط الانطلاق ومصادر التصدير ان صح هذا التعبير ـ لم تزل منذ القديم واقعة بالشرق . فكل كلمة تقال بالشرق تسمع بالمغرب العربي وكل حدث يحدث به يدوي صداه هناك وكل شويعر او كويتب يظهر بالشرق يصل صيته الى المغرب وقد فخمته الابعاد ودوت به ابواق الصدى المترامي . وعلى العكس لا يكاد يصل الى الشرق من المغرب صوت ولا يصدى لديه صدى . حتى التيارات التجارية جارية على ذلك . فانه لا يكاد يصدر بالشرق (وبمصر ولبنان وسوريا خاصة) كتاب الا استوردته تونس وطالعه الناس . اما اذا صدر بتونس تأليف ما فانه قلما يستورده بالشرق مستورد او يسمع به بالتالي سامع . ومع ان التحري العلمي يوجب الاحتفاظ بالرأي والتحرز من الحكم على الادب التونسي قبل التصدي الى تعرفه والاطلاع على مجموع مؤلفاته وتناولها بالبحث والتحليل والنقد ، فاني شخصيا واثق ـ في غير زهو بادب بلادي ولا جحود جائر لقيمته ـ بانه ليس متأخرا عن ادب الشرق الى الحد الذي قد يظن . وهل نزل ادباء الشرق شعر الشابي وشاعريته الا المنزلة الممتازة التي تعلمون ؟ ولو تتبع الشرق حركة تونس الادبية وانتاجها عن كثب واستدرك ما فاته حتى الان من تعرفها حق المعرفة لاستقام له حينذاك ان يصدر فيها حكمه الصحيح . فلاجعل اذن آخر كلامي هنا رجاء في ان يكون استقلال تونس الحديث ودخولها عهد اتصال وتعاون مع شقيقاتها الشرقية عاملا على تسهيل ذلك التعرف وعلى اتاحة الفرصة لادباء الشرق للاطلاع على مقدار ما تشارك به تونس في حقل النشاط الثقافي والادبي العربي العام من جهود وانتاج ولتقدير تلك المساهمة حق قدرها في الكمية وفي القيمة الفنية .



عودة الى سدوم

— ١ —

عدتُ في عينيَّ طوفانٌ من البرقِ ،
ومن رعدِ الجبالِ الشاهقه ،
عدتُ بالنارِ التي من أجلها
عرّضتُ صدري عارياً للصاعقه
جرفتْ ذاكرتي النارُ وأمسي
كلُّ أمسِي فيكَ يا نهرَ الرمادْ :
صلواتي سِفْرُ أيوبٍ ، وحبّي
دمعُ ليلى ، خاتَمٌ من شهرزادْ
فيكَ يا نهرَ الرماد _

. . .

وَلْيَمُتْ مَنْ ماتَ بالنارِ
حملتُ النارُ للفندق ، للبيت المُخرّبْ ،
فيه أطهارُ أبي ، عُكّازُهُ
ويُضيءُ البيتَ خفّاشٌ مُذَهّبْ
دونَهُ يخشعُ أهلي ، اخوتي ..
نسلُ السَّبايا
خلَّفتهمْ غزَواتُ الشرقِ والغربِ
لصوصاً وبغايا
خِرَقاً ، بمسحةَ في فندق الشرقِ الكبيرْ
بِنتُهمْ تستمرئُ النابَ الذي يغرزُ
في البضّ الحريرْ
وَلْيكُنْ نابَ خصيٍّ
إنْ يكُنْ نابَ أميرْ
لَمْ يزلْ شاعرُهُمْ ينسلُّ من جيبٍ
لجيبٍ خلفَ دينارٍ صغيرْ
ثُمّ يزهو ، يتشهّى ، يستعيرْ
لصريرِ الفأرِ في أمعائِه
من ضميري ، صوتَ عملاقِ الضمير

. . .

لستُ بوذيّاً بحبّي
أطْعِمِ الطحلبَ والقملَ شرايِيني وقلبي
فلْيمُتْ مَنْ ماتَ بالنارِ
وبالطوفانِ .. لن ابكيكَ يا نسلَ
سدُوم
لن تموتَ الارضُ إنْ متُّمْ ....

لها بعلٌ إلهيٌّ قديمْ
طالما حنّتْ إليه عبرَ ليلِ العقمِ ..
أنثى والهَهْ
فَضَّها البعلُ وروّاها
ففضّتْ بالرجالِ الآلهَهْ

—٢—

ما الذي أبقتْ عليهِ النارُ
مِنْ بيتي ، وأتعابي ، ومن تاريخ عمري
ما الذي ينبضُ محروراً طريّاً
في رماد المَطرحِ الحاوي بصدري ؟
كدتُ أبكي لابتسامات الصِّغارِ السُّمر
أطفالي وأبناءِ حنيني ،
إنها أصفى من النارِ ،
وأقوى من أعاصيرِ جنوني .

. . .

طالما روّضْتُهُمْ في الريحِ والثلجِ ،
وفي الشمسِ على جمرِ الرمالْ ،
شِئْتُهُم من معدنِ الفولاذِ سُمْراً
ورَياحيناً طوالْ ،
وأنا من أجلهِمْ أحرقتُ تاريخي ...
وطئتُ التاجرَ الوغدَ المرائي
ثعلبٌ يمتصُّ من أعضائهِمْ
وهجَ دمائي .
كلُّ جيلٍ كنتُ أبنيه من السُّمْرِ الطِوال
لا مكاناً لهُ ، لا بيتاً وخبزاً ،
صفوةُ المطلوبِ خصيانٌ ضالّ
مهنةُ التمسيحِ في الفندقِ
لا يبرع فيها غيرُ أشباهِ الرجال

. . .

وتذكّرتُ قتالَ الغولِ والتنّينِ
في أرضي ، وكانتْ وادعه
اخوتي ، أهلي على دربِ الهلاكْ ،
بعضُهُمْ في شِدْقِ هذا
بعضُهُمْ في شِدْقِ ذاكْ
وليموتوا مثلما عاشوا
بلا تاريخ ، موتى لا يُحِسّونَ الهلاك .

. .

وتذكرتُ الصّغارَ السمرَ حولِي
والوجوهَ اليانعه
معهُمْ في الكدحِ والضحكِ ،
ووحدي مُوجعٌ ، وجهي بوجهِ الفاجعه
من خلالِ الوردِ والحورِ
أراها خلفَ سورِ « الجامعه »
أترى يُولَدُ من حبّي لأطفالي
وحبّي للحياةْ
فارسٌ يمتشقُ البرقَ على الغولِ ،
على التنّينِ ، ماذا هلْ تعودُ المعْجزات
بدَويٌ ضربَ القيصرَ بالفُرْسِ ،
وطفلٌ ناصريٌ وحُفاةْ
روّضُوا الوحشَ بروما ، سحبوا
الانيابَ من فكِّ الطُّغاة
ربِّ ماذا
ربِّ ماذا
هل تعودُ المعجزاتْ ؟

. . .

بأسمِ ما أحرقتُ من نفسي بنفسي
لأُصفّي وجهَ تاريخي وأمسي
باسمِ هذا الصبحِ في « صنّينَ » ،
والعتْمةَ خلفي ، وجحيمُ الذّكريات :
لِيَحلَّ الخصبُ والتجرِ اليَنابيعُ
ويمض « الخُضرُ » في إثرِ الغزاةْ
فارسٌ يُولدُ من حبّي لأطفالي
وحبّي للحياة
لتحلَّ المعْجزات
ربِّ ماذا
ربِّ ماذا
هلْ تعودُ المعْجزات ؟؟

خليل حاوي
الجامعة الاميركية — بيروت

نكبة دمشق

بقلم الامير مصطفى الشهابي

هذه صورة تاريخية كتبتها على صوت قنابل الطائرات وقذائف المدافع ورصاص البنادق والرشاشات ، حين ضرب الفرنسيون دمشق سنة ١٩٤٥ . وقد تركتها على ما هي عليه ، اي كما كتبتها في تلك الايام . وهي لم تنشر . وآثرت « الآداب » بنشرها لما لهذه المجلة الممتازة من منزلة في عالم الادب العربي .

والغرض من نشر هذه الصورة الافصاح عن حقيقة تاريخية معروفة وهي ان من سياسة الانكليز القديمة ابعاد فرنسة عن المشرق اي عن سورية ولبنان ليشمل نفوذها جميع البلاد العربية الشرقية . فلما لاحت لهم الفرصة سنة ١٩٤٥ اغتنموها وظهروا في مظهر من لا يبتغي الا استقلالنا والا صداقة العرب . ونتج عن مقاومتنا وعن تخاصم الدولتين الاستعماريتين جلاؤهما جميعا عن سورية ولبنان والدول الاستعمارية تتخاصم على مرافق الشعوب المغلوبة على امرها ما دامت هذه الشعوب نائمة . اما اذا افاقت من سباتها ، ورغبت في الاستئثار بخيرات بلادها فسرعان تتألب الدول الاستعمارية عليها ، كما حصل في موضوع قناة السويس مثلا .

ويقظة الشعوب العربية في مختلف اقطارها ، وانبعاث القومية العربية من رقادها ، هما اليوم الكابوس المزعج الذي يقض مضاجع الدول الاستعمارية ، ولذلك رأيناها تنسى او تتناسى تزاحمها القديم ، وتتساند على ايقاع الشر بنا بشتى الوسائل ، لتظل تمعن في مرافقنا سلبا ونهبا .

في مساء التاسع والعشرين من أيار (مايو) سنة ١٩٤٥ ، وكان يوم ثلاثاء ، خرجت من داري في سفح قاسيون ، وسرت الهوينا في رفقة من الاقارب ، نيمم مقهى جبل الصالحية المشرف على دمشق وغوطتها المترامية الاطراف . وكانت الريح نسيما من الصبا اللينة الرخاء . وكان اليوم مفصحا سماؤه جلواء ، لا يشوبها الا زبرج من سحب الصيف الحمر الرقاق . وقد طفلت الشمس ، ووسنت الطبيعة ، وبدت دمشق طاقة عظيمة من النور الابيض في خضم من الخضرة الحانئة . وبرزت قباب المساجد وكأنها عن بعد تويجات تلك الازاهير . وعلت المآذن وكأنها تحاول ان تدنو من العلي الاعلى بضراعة المصلين . وتميز الجامع الاموي ، عظيم بيوت الله ، وشمخت قبته ومآذنه الثلاث ، حتى لكأن الضخم من جدران قلعة دمشق قد تضاءل في جانب هذا الصرح العلوي العظيم . جلسنا نسرح الطرف في هذه المفاتن الاخاذة ، فهذه ابنية الجامعة السورية وامامها قصر الحير كان لهشام بن عبد الملك فنقل وشيد من جديد في حديقة المتحف السوري . وبجانبه قبتا التكيتين السليمية والسليمانية . وهذه محطة الحجاز الجميلة ، امامها فندق الشرق الكبير ، والى جانبها شارع النصر الآخذ الى السوق الحميدية . وشمالي هذه المجموعة ، بين دمشق والصالحية ، قامت الدور الجديدة ، وامتدت الشوارع الواسعة : فمدرسة التجهيز ودار المجلس النيابي وبناء لاشغال العامة وعشرات من القصور تعرض عن بعد كأنها الحمائم البيض التي عناها البحتري في قوله :

ونعمدت ان تظل ركابي   بين لبنان طلعا والسنير
مشرفات على دمشق وقد اعرض منها بياض تلك القصور

لكن غربي هذه المناظر التي هي بهجة العين ودهشة المتأمل تقوم ابنية كبار لا تكاد تراها العين حتى تنقبض لها النفس . تلك هي الثكنة الحميدية وثكنة الجبخانة اللتان احتلهما الجيش الفرنسي منذ سنة ١٩٢٠ . فصارتا عنوان الكآبة وسط هذه المباهج ، كالجرب في الجلد الرقيق ، او الجدري في الوجه الوسيم ، او الجراثيم في الجسم الصحيح . ونلفتنا فاذا عن يميننا قلعة المزة المطلة على دمشق والغوطة وفي اعاليها مدافع للفرنسيين لا تصلح الا لدك القصور وحرق البيوت وازالة معالم المدنية من عاصمة الامويين الجبارة . وناهيك من مدافع لم تطلق منذ ربع قرن الا على بيوت الآمنين من سكان العاصمة السورية كلما يئست السلطة الفرنسية من حملهم على قبول انتدابها البغيض .

وفيما نحن نفكر في هذه المبهجات وتلك الشجيات واذا بفتى وفتاة ممن يمتون الينا بصلة وهما خطيب وخطيبته ، يترقرق ماء الشباب في وجهيهما ، قد جلسا يتناجيان في خفر على مقربة منا . وكنا من المدعوين الى زفافهما في الغد .

وانا على وشك الانصراف الى دورنا ، بعد ان دنت الشمس من المغيب ، فما راعنا الا صوت انطلاق الرصاص من البنادق والرشاشات مدويا في سماء دمشق الوديعة الهادئة . فانتصبنا نتقرى عن بعد مصادر هذا الازيز المزعج ، واذا بحصن المزة عن يميننا يصب علينا جام غضبه ، واذا بالرصاص يتساقط حولنا . فعدونا نستجن بالبيوت القريبة وحاولنا الهبوط الى المدينة فلم نفلح ، فقد سد الفرنسيون الطرق بين جبل الصالحية ودمشق . وخاطر الخطيب ليقوم بواجبه ، وليطمئن على اسرته ، فانحدر الى البساتين ، ودخل المدينة من الباب الشرقي ، ولبثت فتاته في ضيافتنا ، وهي لا تدري من مصير اهلها واهل خطيبها شيئا .

وكان الامر مقتصرا على البنادق والرشاشات باديء ذي بدء . ولكن ما عتمت المدافع ان لعلعت . فاخذت المدنية (الناظور) اتعرف الى مواقع القذائف ، فالفيتها تقع على قلعة دمشق مقر الدرك السوري ، وحول القلعة ، وفي سوق « صاروجة » حيث كان الوزراء مجتمعين في دار احد الوجهاء بعد ان تمكنوا من مغادرة دار الحكومة تحت وابل من الرصاص .

وتعاظمني الامر وقف شعر رأسي . ولم اكد اصدق انه يوجد في العالم دولة ، بالغا بها اليأس والحمق ما بلغ ، تجرؤ على اقتراف هذه الاعمال الوحشية دون ان تكترث الى مؤتمر سان فرنسيسكو المنعقد يومئذ لوضع ميثاق للسلم العالمي ، وسورية بعد عضو من اعضائه .

وهو منا في تلك الليلة على اصوات الرصاص والقذائف . وما فترت الا بعد منتصف الليل . وعادت في صباح اليوم التالي اي الاربعاء على اشد مما كانت عليه في اليوم الاول . وانضم الى المدافع والرشاشات واخذوا يحدثوننا بحوادث تقشعر لها الابدان : فسطح احد سجون القلعة

وشب الحريق في ((العصرونية)) وسوق ((صاروجة)) وزقاق ((رامي)) وتضرمت النار ، وعلا لهيبها وتقاذفته الرياح . وجعلت بعض الاسر من رجال ونساء واولاد تهجر المدينة الى جبل الصالحية بطرق البساتين . واخذوا يحدثوننا بحوادث تقشعر لها الابدان : فسطع احد سجون القلعة هوى على السجناء فقتل منهم نحو مائتي سجين . وضربت مصفحات الفرنسيين بمدافعها قصر المجلس النيابي ، وقتلت حماته من الدرك . ولما استسلم الباقون ، بعد نفاذ رصاص بنادقهم ، مثل جند الفرنسيين ببعضهم افظع تمثيل ، ففقأوا عيونهم ، وقطعوا ايديهم ، وكسروا عظام سيقانهم ، ولم يجهزوا عليهم الا بعد ان نضبت دماؤهم .

وكان للمجلس النيابي جلسة موعدها مساء الثلاثاء اي في الساعة التي اعدها الفرنسيون لاعمالهم الهمجية . ومن حسن حظ النواب ان كثيرا منهم كانوا غائبين في بلدانهم ، فلم يكتمل عددهم ، فارجأ الرئيس الجلسة وتفرق النواب الحاضرون قبيل ضرب المجلس . ولولا ذلك لما سلم منهم ومن جمهرة النظارة الا كل من امد الله في عمره .

وحقد الفرنسيين على النواب وعلى رئيسهم شيء عجيب ، ذلك بانهم دعامة استقلالنا الذين لا تلين لهم قناة . ولما كان رئيس المجلس وجل الاعضاء مقيمين في فندن الشرق الكبير جعل الفرنسيون ديدنهم ضربه ، حتى ثقبوا جدرانه ونوافذه جميعا بالرصاص والقنابل ، وقتلوا فيه ضابطا بريطانيا . وكاد يقتل بطرك روسيا احد نزلاء الفندق ، وهو في القبو مع سائر النزلاء .

ومما يدل على نية الاجرام الفظيع وقوف مصفحة امام دار الحكومة تطلق عليها النار على حين ان مجلس الوزراء كان منعقدا فيها . وكان فيها ايضا ضباط بريطانيون ورجال اجانب يراجعون الحكومة في شؤون رسمية . ولم ترجع المصفحة الا بعد ان القيت عليها قنابل اليد وكادت ذخيرتها تنفد .

ومن دلائل الطيش ان رصاص الجند الفرنسي اصاب نافذة دار الوزير البريطاني المفوض ، فجرح الوزير وجرحت عقيلته ، بشظايا الزجاج المتكسر ، على حين ان تلك الدار تقع بين المدينة وجبل الصالحية بعيدا عن اهداف الفرنسيين . وظل اطلاق النار طيلة يوم الاربعاء في الثلاثين من ايار . واشتد في المساء وفي الليل . فالمدافع توجه قذائفها الى بيوت دمشق دونما تمييز من حصن المزة ومن الثكنة الحميدية ومن ثكنات شارع النصر ومن ثكنة الجبخانة ، والطيارات تلقي قنابلها على القلعة وعلى بيوت الناس ، والبنادق والرشاشات تصوب رصاصها الى كل احياء المدينة حتى الى جبل الصالحية حيث القصر الجمهوري ومعظم المفوضيات الاجنبية . وكأن كل من في دمشق اعداء الداء يجب القضاء عليهم او اخضاعهم لمشيئة نفر من الفرنسيين جلهم من اتباع فيشي الحاقدين على الحلفاء ولاسيما ، على البريطانيين ، حقدهم على السوريين واللبنانيين الذين ابو ان ينقادوا لاغراضهم الاستعمارية .

ولعل ادهش المشجيات وآلمها كون دور كثير من المستشارين الفرنسيين وموظفيهم المدنيين والعسكريين وبعض مدارسهم اتخذت حصونا يطلق منها الرصاص على البيوت المجاورة لها وعلى السابلة ايا كانوا .

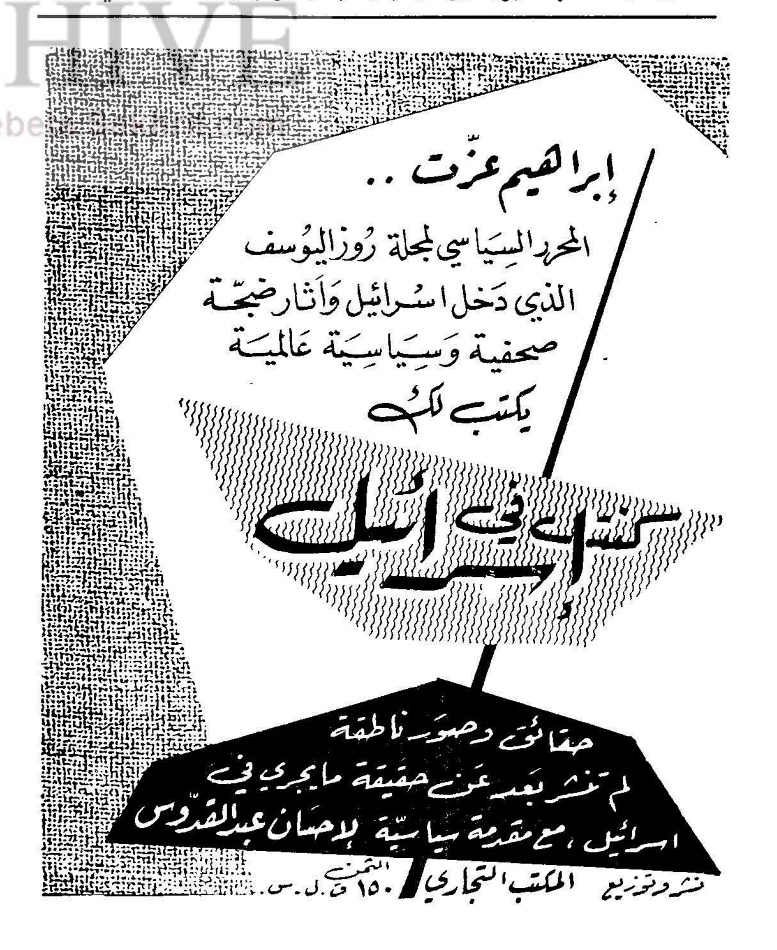
واصيب بعض الجوامع بقذائف المدافع ، منها جامع تنكز في شارع النصر ، وقد احترق قسم منه ، وتهدم جزء من مأذنة جامع التكية المولوية في الشارع نفسه . وبعثر الجند اوراق دار الحكومة ودار البلدية ، ومزقوا كثيرا من دفاترها . ولم يتركوا شيئا سليما من اثاث دار المجلس النيابي . ومن حسن الحظ ان مصفحاتهم الضعيفة لم تتمكن من فتح باب دار العدل لان الدرك السوري اقام وراءه سدا محكما غليظا من اكياس الرمل ، وهكذا سلمت مستندات القضايا الحقوقية والجزائية .

ولم يتمكن احد في يوم الاربعاء ولا في اليوم التالي من نقل الجرحى الى المستشفى الحكومي لان الجيش الفرنسي كان يسدد رصاصه الى كل من يراه من افراد الشعب . ولم يعف حتى عن سيارات الهلال الاحمر .

ومن طريف ما حدثني به رئيس المستشفى الوطني ان بين ابنية ذلك المستشفى ومستودع ارزاقه حديقة جعلها الفرنسيون نصب اعينهم ، فكلما مر بها احد اطلقوا عليه النار ، فتحاشاها الخدم حتى حيل بين المرضى وطعامهم . قال : واني لاضرب اخماسا لاسداس بغية تدارك قوت للمرضى ، فاذا برأس من الضأن شارد من اصوات المدافع يقف امام باب المستشفى ويخور ولا صاحب له ، فأمسكنا بهذه الهدية الالهية وجعلناها بلغة للمرضى في يومين . وسبحان اللطيف بعباده !

وعلى الرغم من هول هذا الموقف ، فقد كان ثمة عدد من كرائم السيدات السوريات اتخذن مدرسة تجهيز الاناث في شارع الصالحية مستشفى لتضميد جراح المصابين ، ريثما نقلهم الى المستشفيات الحكومية والاهلية . ولم يقصر المستشفى الانكليزي العسكري (المدرسة الايطالية) ، الواقع على مقربة من بناء تجهيز الاناث ، في مد يد المعونة اليهن .

وكانت الوزارة تجتمع في دار رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي بالجسر الابيض . وكان على مرضه يتابع الاحداث في اشد اهتمام ، ويشير على الوزارة والدرك والشرطة ورؤساء الاحياء بما يجب عمله ، ويطلع ممثلي الدول الاجنبية تباعا على فظائع الجيش الفرنسي بدمشق . وقد خاطر بحياته على علمه بان مرضه يحتاج الى راحة في الجسم والبال . ولكن الله الذي جعله حامل مشعل الاستقلال في ديار الشام منذ ثلاثين سنة



لم تقض ارادته جل وعلا بان يفجع الشعب به في اشد ايام محنتـــه . وانقضت ليلة الخميس على اصوات المدافع والرشاشات والبنادق تطلق على غير هدى . ولم يغمض احد جفنه في هذه الليلة المشئومة . وكـل امريء يتوقع ان يصاب بين لحظة واخرى . ولم يكفوا عن الضرب الا قبيل الصبح ، حتى اذا اشرقت الغزالة في يوم الخميس ، عادوا الى متابعة عملهم البربري ، وعدنا نستقبل في جبل الصالحية الاسر الهاربة من دمشق بطريق البساتين . وقد خبرونا ان النساء غادرن مع اطفالهن بيوت المدينة وانتشرن في بساتين الغوطة . اما الشبان فقد حمل كل منـهم ما عنده من سلاح ورابطوا في الشوارع يصدون الجيش عن التقـدم الى قلب المدينة . وفي الحقيقة لم يتمكن هذا الجيش في الايام الثلاثة ان يتجاوز ساحة المرجة وشارع النصر وطريق الصالحية وهي لا تبلغ عشر مدينة دمشق . ولو حصل المواطنون على مثل ما عند الفرنسيين من سلاح، اي على مدافع ورشاشات ، لاجلوهم عن سورية كلها في ايام معدودات .

وكانت خطة السلطة الفرنسية ، على ما اعتقد ، دوام ضرب الآمنين من سكان مدينة دمشق بالمدافع وقنابل الطيارات ، حتى تستسلم الحكـومة، او ان تستقيل فيستسلم الشعب ، ويؤلف رئيس الجمهورية عندئذ حكومة يسمونها معتدلة ، تنزل على ارادة الحكومة الفرنسية ، اي تقبل بعقد اتفاقات تجيز لهم استخدام قواعد حربية في سورية ، وتجعل قائد الجيش السوري فرنسيا الى اجل غير مسمى ، كما تجعل لغتهم اجبارية فـي المدارس ، وثقافتهم متفوقة ، وقناصلهم مرجع السوريين في البلاد التي ليس للحكومة السورية فيها تمثيل خارجي الى آخر ما طالبوه .

وفات هذه السلطة خمسة امور تفسد عليها هذه الخطة السقيمة وهي : اولا كون رئيس جمهوريتنا السيد شكري القوتلي هو زعيم قضية حمـل لواءها ومشى في الطليعة منذ اوائل هذا القرن الى اليوم . فرجل كهذا يفضل ان يقتل على ان يفرط بامانته . والقول بان دمشق كانت قـد استسلمت او كانت على وشك الاستسلام اكذوبة لا تنطلي على احد . ثانيا كون استسلام العاصمة وسائر المدن السورية ، اذا صح ، ليـس معناه استسلام البلاد السورية ، فعندما تشب الثورة يحتاج الفرنسيـون الى خمسة امثال قواهم الحاضرة لتطويع جبل الدروز والغوطة وجبل الشيخ وحوران وجبل الزاوية وجبل العلويين والبادية وغيرها ، هــذا اذا طاوعهم الجيش السوري على محاربة ابناء جلدته وهو في نظري من المستحيلات . ولعلهم نسوا الدرس الذي تلقوه في ثورة سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ اذ احتاجوا الى مائة الف جندي لاخماد تلك الثورة في سنتين . ثالثا كون حكومات الجامعة العربية لن تقف مكتوفة الايدي ، فهي لـن تجيز للفرنسيين ان يفرضوا ارادتهم بالقوة على الحكومة السورية ، وان ينتقصوا من استقلالها التام . رابعا كونه يوجد على هذه الكرة الارضيـة دولة اسمها بريطانية العظمى انتزع جيشها سورية ولبنان من حكومة فيشي ، وصرح رئيس وزارتها ووزير خارجيتها غير مرة ان من اسـاس سياسة تلك الحكومة في الشرق الاوسط ان يكون لبنان وسوريا مستقلين. واذا قبلت هذه الحكومة ، خلافا لسائر الدول الكبرى ، بان يكون لفرنسة نفوذ ادبي وتأريخي في ذينك القطرين فليس معناه انها قبلت بان يكـون لفرنسة مراكز حربية فيهما ، وبأنه في استطاعة الحكومة الفرنسية ان تنتزع هذه المراكز وتضمن هذا النفوذ بتقتيل السوريين وتدمير بيوتهم وتحريقها، دون اكتراث لمؤتمر سان فرنسيسكو ولاسس العدل والسلام التي تبنتها خمسون دولة في ذلك المؤتمر . ومزاحمة انكلترا لفرنسا في الشرق الادنى شيء قديم ومعروف .

خامسا كون فرنسة قد قهرت في هذه الحرب، وكونها من الضعف بحيث تحتاج الى من يأخذ بيدها . وكون بريطانيا اذا كانت في حاجة الــى صداقتها فهي ، اي بريطانيا ، اشد احتياجا الى صداقة شعوب الشرق العربي . والذي يريد ان يفرض ارادته بالحديد والنار ينبغي له ان يكون قادرا على مجابهة هذه العوامل كلها ، والا اصبح عمله شبيها بحركات دون كيشون في قصته المشهورة .

وكذا كان . اذ بينما كنت جالسا استمع الى الراديو ظهر الخميس في الواحد والثلاثين من ايار ، وانا على اشد ما اكون من الهم والتفكير ، واذا بالمذيع يفجؤنا بقرار التدخل الذي اتخذته الحكومة البريطانية . وسـرى النبأ في المدينة سريان البرق . لكن الجيش الفرنسي ظل يقوم باعمال العدوان . ولما شعر بالمصير الذي ينتظره ، اباح لجنوده نهب الحوانيت الكبيرةفي شارع الصالحيةوفي المرجةفلم يتركوا فيهاشيئا ينتفع بهاحد. وتقدر المنهوبات ببضعة ملايين من الليرات السورية . ونهبوا ايضا احدى عشرة سيارة من مرأب وزارة الاشغال العامة بجانب البرلمان وفي جملتها سيارتي الحكومية . وذكر لي شاهد عيان انه رأى جنديا سنغاليا وفـي زنده خمس ساعات يدوية . واكد لي ثان ان جنديا باع في زياق كيسا مملوءا بالاحذية الجديدة بمبلغ صغير وهو مائة ليرة سورية . فلما تمت الصفقة وانصرف الجندي وفتح المشتري الكيس ، وهو اسعد ما يكون حالا ، فما راعه الا كون معظم الاحذية افرادا يمينية او افرادا يسارية لا ازواجا . فراح يلعن نفسه لاقدامه على مشترى المال الحرام . وانبأنـي احد الثقات ، ان الصندوق الحديدي الذي في المجلس النيابي وجـد في دار الجنرال أوليفاروجه لكنه لم يفتح ولبث المال فيه .

ويدل الاثر على انهم حاولوا كثيرا فتح الصندوق الحديدي الكبير المحتوي على نقود بيت المال في سراي الحكومة فلم يفلحوا !

وعثر في دار احد الموظفين الفرنسيين على عدة صناديق مملوءة بالآثار القديمة فصودرت الخ . الخ .

ولئن تعجب لشيء فاعجب للسرعة التي اتخذت فيها الحكومة البريطانية قرارها بالتدخل . فمع ان الفرنسيين قطعوا خطوط البرق والهاتف عـن دمشق ، تمكن وزير بريطانية المفوض من ابلاغ حكومته حقائق ما يجري بالبرق اللاسلكي . وفي اقل من يومين اجتمع مجلس الوزراء البريطاني ، واتصل بالبرلمان ، واتخذ ، قراره المذكور ، مما يدل على ان الدم البارد الذي يعرفه الناس في البريطانيين ينقلب دما شديد الحرارة عندما يجد الجد ويحتاج الامر الى عجلة في ضمان مصالحهم .

ولقد حقن تدخل الجيش البريطاني الدماء ، وأوقف النهب ، وحـال دون حصول اضرار جديدة كانت ستحل بنا في المدن وكوارث كانت ستحل بالفرنسيين خارج المدن . ولو لم يتدخل الجيش البريطاني لتدخـل اخواننا في البلاد العربية المجاورة ، ولاثرناها ثورة شاملة عـلى المستعمرين ايا كانوا حتى ينقى استقلالنا من كل شائبة تشوبه .

وعلى الرغم من صدور الامر الى الجيش الفرنسي يوم الخميس بالكف عن اطلاق النار ، فقد سكتت المدفعية ، لكن الجنود لم يكفوا عـن اطلاق الرصاص حتى صباح الجمعة في الواحد من حزيران (يونيو) وعندما دخلت الدبابات والمصفحات البريطانية دمشق في عصر ذلك اليوم

لم يعد للفرنسيين حس ولا حسيس اسد علي وفي الحروب نعامة ..

اقول اسد علي والله يعلم انه لو كان عندنا نصف ما عندهم من انواع السلاح والعتاد لما احتجنا الى تدخل أحد . لكن البندقية وحدها لا تستطيع مقاومة المدفع والطيارة والمصفحة والرشاش في المدن المأهولة بالسكان . واستعمال الفرنسيين هذه الادوات في الاهالي العزل لا ينم على شجاعة ، ولا يدعو الى غير الخزي والعار .

واستقبل الدماشقة الجيش البريطاني استقبالا حسنا مشوبا بالحذر .

واخذ الفرنسيون يغادرون بيوتهم بحماية الجيش البريطاني الى المزة حيث معسكر الجيش الفرنسي . وكانت هذه النتيجة افظع درس تلقاه الفرنسيون لافظع جناية اقترفوها في هذه البلاد ، على وفرة ما لهم فيها من جنايات منذ ربع قرن الى اليوم . وانجلت هذه الفاجعة عن نحو اربعمائة قتيل والف وخمسمائة جريح من سكان دمشق ، عـدا القتلى والجرحى في المدن الاخرى .

وما عتم رسل الحكومة المصرية ، ان بلغوا دمشق يداوون الجرحى ، ويوزعون الادوية ، ويعالجون المرضى الذين ابتلوا بشتى الادواء العصبية لما عانوه من الاهوال . وتبعتهم بعثة طبية اخرى قامت بمهمتها خير قيام الى جانب جمعياتنا الخيرية .

وجاء من انبائنا بان الشاب الذي لبثت خطيبته في دارنا مساء الثلاثاء اصابته شظية من قذيفة مدفع فاردته قتيلا وهو يدافع الغزاة الآثمين عن محلته ، وان والد الفتاة قد نهب الجند حانوته الكبير . واغمي على الفتاة من فرط الالم ، لكنها تجلدت ولم تعول . فيا بنية عضي على نواجذك واحقدي وحدثي اولاد المستقبل بافاعيل المستعمر الاثيم ، وقولي لهم ان ابناء اليوم لم يجبنوا في مناجزة العدو ولم يأسفوا ، في سبيل استقلالهم ، على ضياع الارواح والاموال وعليهم ان يقولوا للمستعمر :

اسـاجلك العـداوة ما بقينـا وان متنا نورثها بنينـا

يا بنية خير لك ان تفقدي خطيبك من ان تفقدي استقلال بلادك . يا بنية تذكري شهداء السادس من ايار الذين قتلوا صبرا سنة ١٩١٦ ، وشهداء الثورة العربية من سنة ١٩١٦ حتى سنة ١٩١٨ ، وشهداء جبل العلويين وجبل الزاوية من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٢، وشهداء الثورة السورية من سنة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٢٧ ، وشهداء الدستور والانتخابات سنة ١٩٣٢ ، وشهداء الحوادث الكثيرة منذ ذلك التاريخ الى يومنا هذا .

يا بنية لقد دفع خطيبك وإخوانه العار عنك وعن قومك ، وساهموا في بناء مجد العروبة مذ علموا ان الاستقلال لا يبنى الا على الجماجم ، وها هم الفرنسيون قد اقروا سحب جيشهم من بلادنا لما تيقنوا ان لا مفر لهم من ذلك . فانهضي نحي شهداءنا الابرار بنشيدنا السوري العربي لشاعرنا واديبنا الكبير خليل مردم بك :

حماة الديار عليكم سلام ابت ان تذل النفوس الكرام
عرين العروبة بيت حرام وعرش الشموس حمى لا يرام

دمشق **مصطفى الشهابي**

في المقهى



في جواري اتخذت مقعدها
كوعاء الورد .. في اطمئنانها
وكتاب ضارع في يدها
يحصد الفضلة من ايمانها
يثب الفنجان من لهفته
في يدي شوقا الى فنجانها
آه ... من قبعة الشمس التي
يلهث الصيف على خيطانها
والتطاريز ، الرفيهات التي
سمرت روحي على فستانها
جولة الضوء على ركبتها
زلزلت روحي من اركانها
هي من فنجانها شاربة
وانا أشرب من أجفانها
قصة العينين تستعبدني
من رأى الانجم في طوفانها
كلما حدقت فيها ضحكت
وتعرى الثلج في أسنانها

...

شاركيني قهوة الصبح ولا
تدفني نفسك في أشجانها
انني جارك يا سيدتي
والربى تسأل عن جيرانها
من أنا ؟.. خلي السؤالات .. انا
لوحة تبحث عن الوانها
موعدا سيدتي ... واستضحكت
واشارت لي الى عنوانها :
وتطلعت فلم الح سوى
طبعة الحمرة في فنجانها ...(*)

نزار قباني

(*) قصيدة جديدة ستظهر في الطبعة الجديدة من ديوان « قالت لي السمراء »

أخي الشيخ ...

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

حين خرجت من المدرسة ، بعد ظهر ذلك اليوم ، كنت اوشك ان اعدو في الطريق عدوا. ولكني حين بلغت منعطف الشارع الرئيسي في حينا ، تمهلت في سيري ، خشية ان الفت الي الانظار ، واثير الهمسات . والواقع اني كنت اشعر بضيق شديد ، كلما بلغت ذلك الشارع . فقد كان اقل ما يتوجب علي هو ان احكم الحجاب على وجهي ، وان اترصن في مشيتي . وما كان لي ان انسى تعليمات ابي وتوصياته في ذلك . بل هو قد نصحني يوما ان اتجنب المرور في ذلك الشارع ، وان أسلك زقاقا جانبيا ضيقا يفضي بي الى المدرسة ، ولكني شكوت من ان ذلك الزقاق نتن موحش ، فأعفاني ابي من سلوكه ، غير انه عاد يتشدد في ان التزم كل حدود الحشمة والرصانة حين ابلغ شارع الحي ، حتى انتهى بي الامر الى الاحساس بعبء يثقلني كلما انعطفت في ذلك الشارع ، اذ كنت مضطرة الى التباطؤ ، فيما انا شديدة الرغبة في الاسراع والاختفاء .

وبعد ظهر ذلك اليوم بالذات ، كنت اشد رغبة في الاسراع ، لابلغ البيت . وقد وضعت يدي على الجرس ، ولم ارفعها عنه الا بعد ان فتحت امي الباب حانقة مزمجرة ، فبادرتها بلهفة :

ـ هل عاد سامي ؟

وسرعان ما نسيت غضبها ، فتهلل وجهها ، فصحت بها اسألها :

ـ هل نجح ؟

فأومأت برأسها ايجابا ، واضافت انه خرج في الثالثة بعد الظهر ولما يعد ، فاذا الفرحة تستخف بي فلا ادري ما افعل ، غير ان ارتمي على امي اشبعها تقبيلا ، وانا اردد « حبيبتي امي .. حبيبي سامي »!

انك لا تستطيع يا سامي ان تدرك مدى سعادتي بنجاحك .. انني اتمثلك الان يا اخي منكبا فوق طاولتك، تطالع وتدرس وتبذل نور عينيك للكتاب ، محاولا ان تستدرك بأي ثمن ما فاتك من الدراسة الرصينة وانت في المشيخة . وكم دخلت امنا الغرفة عليك فألفتك نائما فوق الكتاب تحتضنه ! وكم كانت تلاقي من المشقة لاقناعك بالنهوض الى سريرك ! كان ما صممت عليه يا اخي فوق ما يحتمله شاب مثلك ، وما كان احد ليصدق انك مستطيع ان تستكمل في عام جميع ما هو مطلوب في برنامج الدراسة الثانوية . ولكنك لم تلق بالا لاحد ، وانصرفت الى كتبك لا تكاد تغادر غرفتك .. اتذكر يا سامي يوم جئتك ،فقرأت في عينيك الاجهاد ، ورجوتك ان تشفق على نفسك ، ثم الححت عليك في ان نخرج الى النزهة على شاطىء البحر ، ولكنك رفضت وقلت لي في كآبة :

ـ اسمعي يا هدى ! انت تعرفين اني قضيت خمسة اعوام ، وانا سجين هذا البيت بفضل المشيخة .. ولكن اطلاق سراحي مرهون بأن ابقى سنة اخرى في هذا السجن .. ولا بد ان تكون سنة جد وتعب وتحصيل .

ثم ابتسمت يا سامي ، فشعرت ان وراء بسمتك اسى هو اكبر من ان يعرفه من كان في سنك . كان اسى اكبر منك يا عزيزي . ولقد تركتك لشأنك وانا ازداد تعلقا بك . وكم كنت بحاجة الى معونتك في دروسي ، ولكني كنت أوثر الا اضايقك ، فقد كان حسبك ما انت فيه . وها انت تنجح الان يا سامي ، والعقبى لي في العام القادم ! انني اعتز بك يا اخي ، ولا بد ان تعتز بي انت ايضا حين افوز بالشهادة، ونتابع معا دراستنا الجامعية .

وسمعت امي تناديني الى قاعة الاستقبال ، فعدوت اليها فاذا بي اجدها واقفة في وسط القاعة ، وعلى وجهها سيماء الشرود . حتى اذا رأتني ، ترددت قليلا قبل ان تشير بسبابتها الى المشجب ، فرأيت جبة سامي وعمته معلقتين عليه . وعدت اصيح فرحة :

ـ هل عاد ؟ اين هو ؟

ولكنها سارعت تجيب :

ـ بل لقد خرج اليوم .. بدونهما !

وندت شهقة صغيرة من صدري ، على غير ارادة مني ، ثم تمتمت :

ـ لكن لماذا فعل ذلك ؟

وادركت سريعا انه لم يكن لسؤالي معنى . كنت اعرف ان سامي سيفعل ذلك ، وانه انما كان ينتظر امتحانه . فهو مصمم على مواصلة دراسته العالية ، وهو يعتقد ان الجبة والعمة تحولان دون ذلك . غير اني اعرف ان هذه حجة غير مقنعة ، وان هناك اسبابا اخرى . ومع هذا ... فاني ادرك الان سبب سهوم امي واساها . انها تتنبأ بموقف ابي . انها ترقب العاصفة ، وهي تقترب هادرة .

وما كان أحد منا ليجرؤ على ان يخبر ابي ، حين ادركنا ، بغموض ، نية سامي بخلع الزي الديني الذي يرتديه منذ ست سنوات . لقد كان ابي شيخا معتما ورعا ، وكان يؤم المصلين في مسجدين كل يوم ، وكنا نعرف انه هو الذي دفع سامي الى المشيخة دفعا ، وانه كان يعتز به ايما اعتزاز ويجده خير خلف له . ولسنا ندري من اين فهم ذات يوم ان سامي ينوي التخلص من الجبة والعمة ، فاذا بسورة من

الغضب تجتاحه فتهتز منها اطرافه ، وينبعث الشرر من عينيه ، ويتهدد ويتوعد بانه يعرف كيف يرد سامي الى الطريق المستقيم . ولكن امي تبذل قصارى جهدها في تهدئته ، وفي انكار ما نمي اليه ، وهي تعلم انها تخفي عنه الحقيقة ، ثم تقنعه بالا يفاتح سامي بذلك ، فان هذا لم يخطر له على بال ...

ولكن اني لامي اليوم ان تنكر الواقع ، وكيف لها بتهدئة ابي هذا المساء ؟ انها لا شك توجس خيفة من لقائه بسامي، ولعلها تود لو ان اخي لا يعود ، بعد ان انفصل عن هاتين الجبة والعمة اللتين كان ابي يفخر بارتداء مثلهما ...

ولكن سامي عاد ، وكانت في عينيه نظرات جديدة لم نألفها فيهما . وكانت اول كلمة نطق بها انه سأل عما اذا كان ابي قد رجع، فلم نفهم اكان سؤاله يعبر عن خشية من عودته،ام استعجال لها . وسأله اخي الاكبر فوزي ، وكان قد عاد من عمله :

ــ اين كنت حتى هذه الساعة ؟

فنظر اليه سامي نظرة تنم عن زهد بالكلام ، ولكنه ما لبث ان اجاب بهدوء :

ــ كنت اتنزه قليلا هنا وهناك ..

ثم استطرد قائلا :

ــ ام انه لا يحق لي ذلك من غير ان استأذنك ؟

فاخذتنا الدهشة لهذه اللهجة التي تكشف عن رغبة في المجابهة كنا نعرف نقيضها عند سامي تجاه فوزي ، فقد كان يفضل ان يتحاشى الاصطدام به . ولعل فوزي حاول عبثا آنذاك ان يضبط اعصابه ، فقد انفجر في اخيه قائلا :

ــ انا اعرف انك تركب رأسك دائما .. ولكني مع ذلك اسألك كيف خرجت بلا جبة ولا عمة ؟

وزادت دهشتنا من هدوء سامي ورباطة جأشه ، فقد اكتفى بان قال ، بكل سكون :

ــ ان هذا امر لايعنيك!

ثم نهض فخرج الى الشرفة . اما فوزي فقد اخذ يكز على اسنانه ويحرق ألارم ثم يتمتم حانقا :

ــ سنرى ان كان هذا يعنيني ام لا

وما لبثنا طويلا حتى سمعنا اذان العشاء من مئذنة المسجد الذي كان ابي يؤدي فيه الصلاة ، وهو غير بعيد عن منزلنا، فادركنا ان عودة ابي اصبحت وشيكة .

ولكنه تأخر تلك الليلة ، على غير عادته . ولقد رأينا امي تنهض وتدعونا الى النوم فيكون اخي الاصغر وسيم اول من يلبي الدعوة ، ويقصد غرفتنا وهو يترنح من النعاس . ثم تتبعه اختي سامية ، فلا اجد الا ان الحق بهما ، ويقوم فوزي ، فيطوف بالبيت ليطفيء النور قبل ان يدخل غرفته. وقد تساءلت ، ولا شك في ان الجميع تساءلوا مثلي ، عما قد يحدث حين يدخل سامي تلك الغرفة نفسها لينام ؟ لقد خشيت ان يتبادل مع فوزي عبارات قاسية اخرى تفضي بهما الى ان يتماسكا بالايدي ، كما حدث مرة ، ويكون سامي هو الخاسر من دون ريب . على اني حمدت لسامي ان يبقى واقفا على الشرفة لا يريم ، كأنما كان مصمما على ان يساهر الليل .

ودق جرس الباب فجأة . وحين انبثق النور في المدخل التفت فرأيت امي وجميع اخوتي منتصبين على ابواب غرفهم كأنهم لم يغمض لهم جفن . الا فوزي ، فقد رأيناه يسرع الى الباب فيفتحه ، ويبادر ابي بلهجة تحد واستفزاز :

ــ تفضل فانظر ما فعل ابنك « الشيخ » اليوم !

ودخل ابي وعلى وجهه علامات التساؤل وهو يقول :

ــ خير ان شاء الله ...

وكان سامي قد دخل من الشرفة ، فاتجه الى الباب ، والقى السلام على ابي بكل هدوء ، ثم التفت الى فوزي وقال له :

ــ كان الافضل ان توفر ذلك على نفسك ، فانني ساخبر ابي ، انا نفسي ، بما قلت ...

وما كاد يفرغ من عبارته، حتى فوجئنا جميعا بصوت اخي الاصغر وسيم يرتفع ثاقبا :

ــ خرج اليوم بدون جبة ولفة !

وانفتل ابي يواجه سامي ، مسائلا ، مضطربا ، حائرا :

ــ ماذا يقول ؟ خرجت اليوم بلا ... لماذا ؟ صحيح اذن ما كنت قد سمعته .. لقد كنت اتوقع ذلك . الظاهر انك نجحت في الشهادة ! ولكن هل صحيح انك خرجت بلا ...

وكان رأس ابي يلتفت الى كل منا بدوره ، زائغ النظرات، كأنه لا يصدق ما سمع . واجاب سامي وقد بدأ الاضطراب يرتسم على قسماته :

ــ نعم يا ابي .. صحيح .. والواقع ..

غير ان ابي قطع عليه عبارته بان صاح فيه :

ــ تقول صحيح ايها الوقح؟ اغرب من وجهي.. انني لا اريد ان اراك .. ولا ان اسمع ما تقوله !

ولكن سامي قال برباطة جأش :

ــ بل يجب ان تسمعني يا ابي .. ان من واجبك ان تصغي الي

وادركنا ان ابي فقد اعصابه حين رأيناه يهجم على سامي فيصفعه على خديه صفعتين قويتين وهو يصرخ فيه :

ــ لعنة الله عليك ايها الزنديق ... انك لا تنكر ذلك ايها المنحط .. هذه الجبة والعمة ...

ثم انقطع فجأة ، وهرع الى المشجب ، فتناول العمة واقبل بها على سامي يقول :

ــ انك لن تخلعها ابدا .. لن تخلعها ايها الشقي ... ستبقى شيخا ايها الضال !

ثم امسك العمة بكلتا يديه ، وحاول ان يضعها على رأس سامي كرها وقسرا . وكأن وجه اخي قد احتقن بالدم من أثر الصفعتين ، ومن غضب وحشي كان قد استبد به ولم نعرف مثله عليه من قبل ، فاذا هو يزيح يدي ابي عن رأسه لحظة ، ولكن هاتين اليدين الكبيرتين تغلبانه على امره ، ثم ترتفعان بصفعتين اخريين اعنف واقسى .. واذ ذاك سمعنا صرخة توجع واستنكار تند من فم سامي ، ورأيناه يتراجع الى خلف، ثم يتناول العمة التي كانت قد استقرت على رأسه ويقذف بها ارضا بكل ما ملكت قواه ، ثم لا يكتفي بذلك ، بل ينحني فيأخذها عن الارض ، ويحل المنديل عن الطربوش بسرعة فائقة ، ويحاول ان يمزق المنديل بيديه ، فيعجزه ذلك ، فاذا هو يتناوله بين اسنانه ويعمل فيه تمزيقا وتقطيعا وقد احمرت عيناه وانبعث منهما شرر حيواني غريب ، كأنما هو جماع ما يراكمه في نفسه من غيظ وحنق مكبوتين طوال ست سنوات .. ثم اذا به ينفجر صارخا :

ــ كلا ... بل سأخلعهما بعد اليوم .. ولن ارتديهما ابدا .. لا استطيع ان ارتدي العمة والجبة .. انني اختنق بهما .. اختنق .. اختنق ..

وظل جاحظ العينين يحدق في ابي ، وبين يديه المنديل الابيض وقد تمزق بعض اطرافه . غير ان نظره ما لبث ان التوى ورق حين لحظ ابي وقد بدا عليه ذعر عجيب اذ كان ينقل عينيه بين الطربوش الملقى على الارض، والمنديل المزق بين يديه. وان هي الا لحظة ، حتى انقذف اخي ، فتناول الطربوش من الارض ، وضم عليه المنديل الابيض بحنو ، ثم ارتمى على يد ابي اليمنى يحاول ان يمسك بها ليقبلها ، ولكن ابي يحول بينه وبينها ، اذ يسحبها ويطويها وراء ظهره وهو يقول :

ــ لا .. لا .. لا اريد ... ابتعد عني !

وينفجر سامي بالبكاء فجأة ، ويقول بصوت لاهث متقطع:

ــ ابي .. اغفر لي يا ابي .. سامحني. انني لم ارد ان اهين عمتي .. لم ارد ان اهين عمتك .. ولكنك صفعتني يا ابي .. صفعتني مرتين .. ابي سامحني ..

واقترب منه مرة اخرى ، محاولا ان يأخذ يمناه ، ولكن ابي ظل على جفائه وتمنعه .

وكانت في عيوننا جميعا دموع . غير ان اخي الاكبر فوزي كان اشدنا تأثرا . فقد رأيناه يدنو متمهلا ، فيمسك بذراع سامي ، ويجذبه اليه بعطف وحنان ، ثم يطوق كتفيه ويدخل به غرفتهما (*)

سهيل ادريس

(*) فصل من رواية جديدة تصدر قريبا .

خمس أغانٍ للألم

الصديق المبدع الدكتورسهيل

تحية صافية

لقد كانت دراستك الاخيرة التي تناولت فيهـا قصيدتي بالنقـدالوافي والتحليل المفصل تنبض بالشعر . وقد احببت كثيرا من لفتاتها التحليلية ووقفت عند تعابيرها الموحية . انك تتذوق الكلمة التيتكتبها وهذا هو سر الجمال والحيوية في اسلوبك . وقد لاحظت ان نقدك لم يقف من الاغنيتين موقفا خارجيا وانما امتزج بابياتها والفاظهاامتزاجا عميقا وعاش جوها ، وكـان في اصالته من ذلك الصنـف العالي الذي نريده للشعر العربي ولا نكاد نجده الا في النادر . انهنقد ملهم يقود الشعر المنقود في دروب جديدة وهذا غاية ما يصل اليه الناقد الموهوب .

اما نبوءتك للاغاني الثلاث التي لم يسبق ان رأيتها فقد اعطتني الاطارالذي كنت احتاج اليه لكتابة الاغنية الخامسة ، وكنت قد انجـزت من القصيدة الاغاني الاربع الاولى وبقيت شهرين انتظر اطارا غنائيااضع فيه الفكرة المعدة للخامسة . لقد تنبأت ان العطف على الطفل سيتحول الى عشق فتدله ففناء ، واوحى الي هذا بفكرة التأليـهوالمعبد البابلي والنذور والتسبيحات وكل ما تجده في الاغنية الخامسة التي انجزت كتابتها منذ ايام وها انا ارسلها اليك تاركة لك الحكمعلى قيمتها الفنية .

لقد لفت نظري ، عبر نقدك ، الى ما لم اكن قد فطنت اليه من انهناك في الاغنية الرابعة « تراجعا عن تحطيم الالم وتبديده وقناعة بمحاولة ارجائه ونسيانه فترة من الزمن ... » . ان من المكــنان يعلل هذا بانني لم اقصد ان تكون هذه الاغاني مترابطة كقصيدة ولذلك سميتها « اغاني » ونوعت اوزانها غير ان الامر قد يرجع الىسبب اعمق . ان هذه الاغاني ، في الواقع ، تتناول الالم باعتبارين احدهما يعد الالم اشكالا يجب ان يحل والا امتص حيوتنا وكل ايامنا. وعلى هذا الصعيد جاءت الابيات « يا ليتنا لم نسقه قطـرة ــ ذاك الصباح الكئيب » « ولقد حسبنا اننا عدنا بمنجى من أذاه . » « اليس في امكاننا ان نغلب الالم ؟ » « وسيهبط وادينا النسيان ــ يا أسانا ... مسا ءالخير». فالالم بهذا الاعتبار يكاد يكون « عدوا ــ لدودا »نحاول نسيانه والهرب منه .

واما الاعتبار الاخر فهو الذي يرى قسوة الالم حنانا ، ونقمته رحمةسابغة ويتجه اليه بالحب العميق . وهذا الالم لا يتفجر بكل مجالاته ولا يكتمل حتى تجيء « الوردة الحمراء » التي ترمز الى المشاركةالعاطفية والانسجام الكامل ومن ثم فهي تعطي للالم معنـاه وتجعلـه حبيبا الى قلوبنا ــ اعز من اي فرح تأتي به الحياة . هنا يصبح الالم « صديقا ــ محبا » ويعود العذاب نشوة يستسلم لها القلب الانساني بلا تحفظ ، ويعود في امكاننا ان نغسل ارض المعبد بالزيت والخمروالدموع . وفي هذه الحالة يصبح « الايذاء »و « العتاب » و «الغفران» كلمات فارغة يجردها من المعنى هذا التناسق الشعوري العميق الذيهو اجمل ما تقدمه الحياة لانسان وبوجوده تضمحل الشكليات وتتلاشى الحدود . ان اعزازنا لهذا الطفل « المؤذي » يستوعب كل ما يأتي منه وهو سر موقفنا « المسامح » ازاءه . وسرعان ما يعـود الالم حبا : « انا نحبك يا الم » بعد ان تحرر من عزلته وصافح الدموع المختبئة في الوردة الحمراء .

وبعد فهذه الاغاني الخمس :

ن. م.

– ١ –

مُهدي ليالينـــا الاسى والحُرَق
ساقي مآقينـا كـؤوس الارق
نحن وجـدناه عـلى دربنـا
ذات صباح مطـير
ونحن أعطينـاه مـن حبّنـا
ربتـة اشفـاق وركنـا صغير
ينبض في قلبنا
فلم يعـد يتركنا او يغيـب
عـن دربنـا مره
يتبعنـا ملء الوجـود الرحيب
يـا ليتنـا لم نسقه قطره
ذاك الصباح الكئيب
مهدي ليالينا الاسى والحرق
ساقي مآقينا كؤوس الارق

– ٢ –

كيف ننسى الالم
كيف ننسـاه ؟
سـوف نشربُه سـوف نأكله
وسنقفو شرودَ خطاه
واذا غنـا كـان هيكلُه
الجهمُ آخر شيء نـراه
وملامحُه هي اول مـا
سـوف نبصره في الصباحْ
وسنحمله معنـا حيثما
حملتنا المنى والجراحْ
سنبيـح لـه ان يقيم السدود
بـين أشواقنا والقمر
بين حرقتنا وغديرٍ بَرود
بين أعيننا والنظـر

وسنسمح ان ينشر البلوى
والاسى في مآقينا
وسنؤويه في ثنية نشوى
من ضلوع أغانينا
واخيرا ستجرفه الوديان
ويوسده الصُبير
وسيهبط وادينا النسيان
يا أسانا ... مساء الخير
سوف ننسى الالم
سوف ننساه

— ٣ —

من أين يأتينا الالم ؟
من أين يأتينا ؟
آخى رؤانا من قدم
ورعى قوافينا
أمس اصطحبناه الى لجج المياه
وهناك كسرناه ، بددناه في موج البحيره
لم نبق منه آهة لم نبق عبره
ولقد حسبنا اننا عدنا بمنجى من آذاه
ما عاد يلقي الحزن في بسماتنا
او يخبيء الغصص المريرة خلف أغنياتنا
ثم استلمنا وردة حمراء دافئة العبير
أحبابنا بعثوا بها عبر البحار
ماذا توقعناه فيها ؟ غبطة ورضى قرير
لكنها انتفضت وسالت ادمعا عطشى حرا ر
وسقت اصابعنا الحزينات النغم
انا نحبك يا ألم
من اين يأتينا الالم ؟
من اين يأتينا
آخر رؤانا من قدم
ورعى قوافينا
انا له عطش وفم
يحيى ويسقينا

— ٤ —

اليس في امكاننا ان نغلب الالم ؟
نرجئه الى صباح قادم ؟ او امسيه ؟
نشغله ؟ نقنعه بلعبة ؟ او اغنيه ؟
بقصة قديمة منسية النغم ؟
ومن عساه ان يكون ذلك الالم ؟
طفل صغير ناعم مستفهم العيون
تسكته تهويدة وربتة حنون
وان تبسمنا وغنينا له ينم
يا اصبعا اهدى لنا الدموع والندم
من غيره اغلق في وجه أسانا قلبهُ
ثم أتانا باكيا يسأل ان نحبه ؟
ومن سواه وزع الجراح وابتسم ؟
هذا الصغير ... انه ابرأ من ظلم
عدونا احب او صديقنا اللدود
يا طعنة تريد ان نمنحها خدود
دون اختلال عاتب ودونما الم ..
يا طفلنا الصغير سامحنا يدا وفم
تحفر في عيوننا معابرا للادمع
وتستثير جرحنا في موضع وموضع
انا غفرنا الذنب والايذاء من قدم

— ٥ —

نحن توّجناك في تهويمة الفجر إلها
وعلى مذبحك الفضي مرّغنا الجباها
يا هوانا يا الم
ومن الكتّان والسمسم احرقنا بخورا
ثم قدمنا القرابين ورتلنا سطورا
بابليات النغم
نحن شيدنا لك المعبد جدرانا شذيّه
ورششنا ارضه بالزيت والخمر النقيه
والدموع المحرقه
نحن أشعلنا لك النيران من سعف النخيل
واسانا وهشيم القمح في ليل طويل
بشفاهٍ مطبقه
نحن رتلنا وناديناوقدمنا النذور :
بلح من بابل السكرى وخبز وخمور
وورود فرحه
ثم صلينا لعينيك وقربنا ضحيه
وجمعنا قطرات الادمع الحرى السخيه
وصنعنا مسبحه
انت يا من كفه أعطت لحوننا وأغاني
يا دموعا تمنح الحكمة ، يا نبع معان
يا ثراء وخصوبه
يا حنانا قاسيا يا نقمة تقطر رحمه
نحن خبأناك في احلامنا ، في كل نغمه
من أغانينا الكئيبه

بغداد

نازك الملائكة

في الطريق الى برك سليمان

قصة بقلم سميرة عزام

كان يحس انها معركة غير متكافئة، فرصاصته رغم حقدها تكاد لا تفعل اكثر من انها تستثير زخة جديدة من دمارهم، ولكن هذه الرصاصات القليلة كانت كافية لتبعث فيه الشجاعة وتنفي من وجدانه اي مبرر منطقي يغريه بان يتلبس حالة من الهروبية يبدو معها اي شيء تافهاً امام حياته وحياة زوجه وطفله.

كانت ليلة قمر، سخية الضوء تسمح لازهار شجر اللوز والمشمش في حديقته وفيما وراء حديقته من بساتين ان تبدو كنجيمات صغيرة بيضاء تجعل لياليه شعراً كلها، فكأن هذه النجيمات عيون بريئة مفتحة على مأساة تكاد لا تدرك منها شيئاً.

وعبأ ماسورة البندقية بالرصاصات الاخيرة ورفع صوته ليبلغ اذن الزوجة التي وقفت غير بعيد منه تقوي فيه دواعي الصمود وتحسسه بمسئولية حياتها وحياة ولدهما وحياة هذه القرية المشلوحة على حضن الوادي.

ـ سعاد اخشى اننا انتهينا، فالله والحظ ليسا معنا، هذه رصاصاتي الاخيرة، ولقد خمد رصاص القرية واحس اليهود باننا نكابر، سيبلغوننا في اقل من ساعة، وسأكون انا وانت والصغير ـ وبيتنا على طرف القرية ـ وليمة لنصر حقير.

وقطعت صوته قذائف توالت من مدفع مهذار.

والقى ببندقيته، فهي ـ بعد ان فرغ رصاصها ـ ليست اكثر من خشبة او لعبة يلهو بها طفل..

وكان يرفض ان يصدق ان دوره قد انتهى، فقد اتاه مع الغروب من يؤكد له ان ثمة صناديق في الطريق الى (بتير). اترى تعليماته الى الشباب لم تغن شيئاً؟ اما اتفق واياهم ان يحملوا له الرشاشات ان جاءت من القدس لينصبوها وراء المتاريس التي اقيمت على سطح بيته؟

ولكن لو جاءت، اما تكون ردود القرية على صخب اليهود ابلغ واقوى نفساً؟

واحس بعجزه حين اطلق الرصاصة الاخيرة، وراح يدور على السطح واظافره تكاد تنغرز في كفيه، وقد شعر ان ليس اسخف من منطق الحق امام الرصاص..

وتطلع الى زوجته، كانت تبكي. فكأن البندقية الفارغة حسستها بان بطولة حسن ليست الا تهريجاً صبيانياً، وان طوابير الشباب التي تعب على تدريبها هي دمى يحركها طفل عابث.

لم يكن يملك ان يقدم لزوجته شيئاً، لوناً من ضمانة تثبت في نفسها شيئاً من الطمأنينة.

واحس بان بندقيته الملقاة، خشبته الفارغة، هي المسئولة عن رجولته المهينة، وانه بدون رصاصها سيموت في بيته ميتة فأر..

وكانت زوجته تبكي، واحنقه بكاؤها. راعه ان تفقد ايمانها به هكذا بسرعة، ولما نظر اليها حانقاً لم تقل له اكثر من كلمتين: «وطفلنا يا حسن؟»

اجل! وطفله؟ هذا سؤال ميت الرجاء امام المتاريس التي تطلب الرشاشات والبندقية التافهة الفارغة.

وظل يدور وفي خياله صورة شرذمة تحتفل بنصر حقير.

وتطلع الى زوجته.

واحد من اثنين، اما ان يموتا وثالثهما «عمر»، او ينطلقا الى «برك سليمان» فيترك الطفل وامه هناك ويعود هو ليفعل شيئاً.

ـ تعالي.

وشدها من يدها وهبط السلم معاً، ومضى هو الى سرير عمر، فحمله وترك زوجته تلملم بعض حاجيات، ثم انطلقا يقطعان الحقول التي تفصل بين بيتهما واول بيت في القرية.

كانت في يد زوجته بقجة من ثياب عمر، اما هو فاكتفى بالصغير يشده الى صدره برفق، ويحاول ان يمشي به باتزان، فلا يفتح الصغير عينيه على ليلة رعب. كان ازيز الرصاص قد سكت. لعل اليهود ادركوا عبث الطلقات تضيع هباء مع القرية العزلاء، فجلسوا يستريحون او يرسمون الخطة لزحف يسهله لهم انهم ينحدرون من جبل، وان (بتير) القرية ترتمي ضعيفة في الوادي.

والتفت حسن الى بيته، كان ما يزال مشدوداً بكرامة، جدرانه البيضاء تشرب فضة القمر ويغسله عطر زهر اللوز بسخاء ربيعي.

ورأى زوجته تلتفت مثله، ثم التقت اعينهما، وفي لحظة واحدة استعرضا تاريخاً من عواطفهما، اجل هو ذا بيتهما، عشهما الابيض، كل حجر فيه يحكى حكاية من لون.

وبكت زوجته.

اما هو فحاول ان يتماسك وهو يستمد شجاعة من حرارة الجسم الطريء الذي يحمله.

وفي تلك اللحظة لعلع الرصاص من جديد.

وصاح بزوجته ان تنبطح، وانحنى هو ايضاً وظلا لحظات حتى سكت اليهود. وقاما والتفت حسن يحاول ان يتبين الناحية التي انصب منها الرصاص. كان يبدو قريباً، واذ بطلقة جديدة تنبعث.

وصاح بزوجته: «اركضي».

وركضا معاً. ظلا يركضان ربع ساعة حتى احس بان زوجته قد انهكت فاتئد، ورفع يده اليسرى التي احس بها تتصلب ليريحها فاذا بشيء حار يغسلها.

هل اصيبت؟

وقلبها فلم يبد فيها اثر رصاصة ، كما لم يحس فيها الما ، فكاد يصيح :

« اهو عمر »؟..

وخشي ان يبدر منه انفعال ما ، فركض وخلفها وراءه ليتبين مصدر الدم .

ولما توارى خلف شجرة حرك الصغير فاذا به بلا حياة .

وعض على شفتيه حتى ادماهما .

ماذا يفعل ؟. هل يدع الجسم الصغير ينام مستريحا تحت شجرة كريمة؟ هل يمضي يفتش عن عدو ينهشه باسنانه واظفاره ؟ هل .. هل .. وسمع زوجته تنادي .

كان صوتها حزينا ، صوت انين تسلب طمانينة قلبها .

ـ « انا هنا » ، وتماسك ، ظل يحمل الصغير ، فلو علمت الام لارتمت وجابهته بمأساة اخرى .

وانتظرها حتى اقتربت ، ثم اعطاها ظهره وسار . كان يريد ان يصل باسرع وقت ، فلم يبال حتى بصوت الزوجة تقول بصوت متقطع :

ـ اذا تعبت من حمل الصغير ، فدعني اريحك قليلا .

وكان يبكي فلم يجب .

ساعة ، ساعتان ، ثلاث ، اربع في الطريق الى « برك سليمان »

وكان يلتقي بشراذم النازحين فلا يحاكيهم بل يسلك طريقا بعيدا .

ـ حسن ! لقد برد هواء الفجر ، فخذ هذه البطانية ولف بها عمر .

ويأخذ البطانية يلف بها الجسم الذي برد فعلا .

ـ حسن ، دعني احمله.

ـ امشي . انني اقوى منك ..

اقوى ؟! ما اتفه هذه الكلمة التي لم تفلح في ان تحمى ابنه ، وهو بين يديه .. اقوى .. ان فارا مسلحا اقوى منه الف مرة .

وكان لا بد من ان يريح الطفل ، فقد انحدر القمر واحمرت الرانه فكأنه شمس تشرق من الغرب ، وتوشحت السماء باضواء فجرية مسحورة وبدت له اسطحة الدور في برك سليمان مسطحة مربعة .

وتطلع ثم اختار ان ينعطف صوب احد بساتين اللوز ، وظل طويلا يجيل عينيه ليختار شجرة سخية قصدها ، واراح الطفل،ثم عالج احد الغصون فكسره ، وراح ينبش به الارض بحركة دائرية ما لبثت ان اتسعت للجدث الصغير ، ولما غطاه بالتراب حفنة حفنة وقف وهز الشجرة ففرشت له الارض بنجيماتها البيضاء ..

ثم ركع .. ولم يقرأ صلاة غير دموعه .. واختلطت بالبكاء كلمات تقول

ـ « اغفر لي يا بني ، انني تركتك تموت بين ذراعي .. لانتهي بك الى حفرة ان اتسعت للكفلن تسع حقدي .. اتراك تغفر لي ؟ »

وظل جامدا ولم تتحرك قدماه الا حين بلغه صوت زوجته تنادي من بعيد.

بغداد **سميرة عزام**

حكاية لاجئ

تجربة اولى للشاعر في البرنامج الاذاعي

المذيع

يقولون ، كان فتى لاجئا الى خيمة في الربى مُشرعَه
تطلُ ، بعيدا وراء الحدود ، على الجنة الخصبة المرعه
وكانت له ذكريات هناك مجنحة ، حلوة ، ممتعه
وملهى صبا شاعريُ الدروب وكوخ يطل على مزرعه
وكم أرَّقت ناظريه الطيوف ، وطيف الرقاد ، جفا مخدعه
يعيش على حلمٍ امس الذي تولى ، ويقسم أن يُرجعه

فريق الفتيات

رفيق الطيوف ، نجي الذكر ليناليك دنيا ترف صور
وعيناك ، يا شاطئا لاغتسال النجوم ، ويا بحرة للقمر
ترى ، ايُ حلم على ناظريك يموج ، واي هوى أخضر
ا للسَّاقيات هواك الحنون ، ألِلدار ، للسفح ، للبيدر
أتيناك ، نحمل في شدونا رسالة شوق ، ونجوى عتاب
ونهديك من قلب يافا السلام ومن ارضها ، حفنة من تراب

المطربة

أرضي التي فاءت عطاء وجمالا
واختال في ساحاتها المجد اختيالا
يا طالما نادت الى الثأر الرجالا
يا شاطئي المحزون ، يا أرضي الكئيبه
يا كل شبرٍ من مغانيَّ الخضيبه
حالت ترى أثوابك الخضر القشيبه .
غير الذي اعهد من وجه العروبه !
لكنه ، ما زال في الرمل خطى عاشقين
ما زال في انشودة الطير هوى خافقين
وجرة ، ظلت على غفوتها قرب عين
تذكار ماض دافيء الحلم سعيد
ولم أزل ، في كل اصباح جديد
أرقبه .. لا بد يوما ان يعود

المطرب

عرائس الشوق . هذا البين أرَّقني
أسعدنني بالطيوف الخضر من وطني

فريق الفتيات

رفيق الطيوف ، نجي الذكر تحدَّ العذاب ، تحدَّ القدر
وغنٍّ اناشيدك الثائرات ولو خرس العود ، الا وتر
أتيناك ، نحمل في شدونا رسالة شوق ، ونجوى عتاب
ونهديك من قلب حيفا السلام ومن أرضها ، حفنة من تراب

المطربة

أرضي التي ما انبتت غير البطوله
اغداقها ، أيدي مواسمها النبيله
من قال تغدو في يد الاثم ذليله !
ما بال راعي التل لا ينفخ نايه
والموج لا يحكي الى الرمل حكايه
عن عاشقين التقيا ذات غروب
عن زورق مجدافه لحنٌ

أهكذا أطبق صمت القـلوب
وفي ربـوعي خيَّم الحـزن
أبـوح للنسمـة أوصابـي
لعلهـا تنقلهـا عنـي
بالهمس ، مـن اذن الى اذن
يوما ، اذا مـرت بأحبابي ..

المطرب
عرائس الشوق ، هذا البين أرقني
أسعدنني بالطيوف الخضر من وطني

فريق الفتيات
أتينـاك ، نحمـل فـي شـدونا رسالة شوق ، ونجوى عتاب
ونهديك من قلـب عكا السلام ومن ارضهـا ، حفنة من تراب

المطربة
مـن ها هنا ، كم جحفل مر بأسواري
كم رُد جبار على أعقـاب جبـار
من قال يوما أرتمي في قبضة العار ..
يا ليت للحسون ، لو يلوي جناحين
عن دوحة الليمون ، عن شلالة العين
يصـوغ في أنغـامه أنشودة البين
لعله ، ان مـر باللاجئـين
يزورهم فـي غربة الظلمه
في البيدر المهجور ، في الخيمه
يروى لهم عني الهوى والحنين ..

فريق الفتيات
نجـي الطيوف ، وداعا ، آلى الملتقى

المطرب
وداعا !.. أتبخل باللمح حتى الرؤى
خذيني الى الامس فوق جناح الهوى

فريق الفتيات
مضى أمس ، فاصنع بكلتا يديك الغدا

المطرب
ترى؟. اي صوت على الريح ، اي صدى

فريق الفتيات
رجال ، يحثون صوب الحدود الخطى

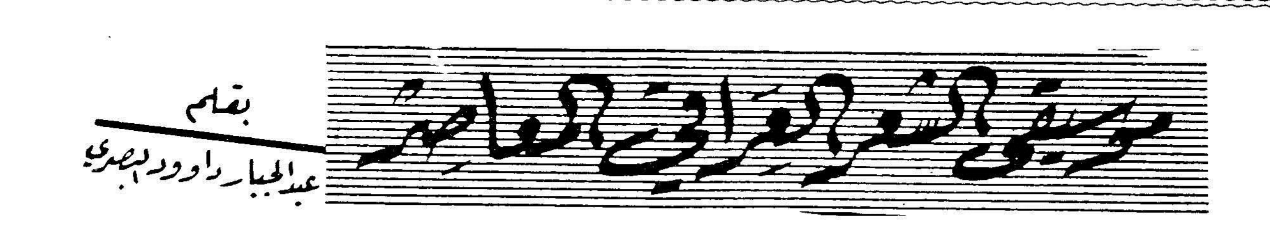
فريق الشباب
نسير للقاء ، لانهـاب ، لانهـاب
نشـق للرصاص عن قلوبنا الثياب
نخط سطرا واحدا في قصة الاياب
دقـوا النفير ، آن ان نخضب التراب

المطرب
هو التراب !.. بالعزيز افتدي التراب
دقوا النفير ، آن ان نحرر التـراب

المذيع
وكان نداء . وكـان نفير
تقحَّم هول الـردى راسخـا
اذا ضيغم مر مـن قربـه
ويروون : لا الـم هاجـه
سوى ان عينيـه قد غامتـا
أيبكي علـى وطـن ضائـع
أيبكي حبيبا له فـي الخيـام
يقولون : لمـا هـوى مثخنـا
واوشك يخبـو السراج ، سوى
تلفت ملء الربـى والوهـاد
واغرز كفيه فـي حفنتـي

وأسلم للـه مـا اودعـه
كما يرتمـي النسر في الزوبعه
تمنـى لو آن لـه مصرعـه
ولا الجـرح في قلبه اوجعه
واسبلتـا في الثرى ادمعـه
قضى قبـل ان يجتلي أربعـه
قبيـل الرحيل ، وما ودعه ...
وشد علـى جرحـه أضلعـه
ثوان ضبـابية مسرعـه
يحدق فـي وطـن ضيعـه
تراب . تكونان ذكرى معـه

يوسف الخطيب
رام الله ـ الاردن



١ ـ مفاهيم ونبذة تاريخية

الموسيقى مجموعة الايقاعات والنغمات والانسجام والتناظر التي نلمحها في ما يصدر عن الوتر حين تنقره الريشة او ما يئن به الناي حين تنفخه الشفاه ، او ما تردده البيانو حين تداعبه الانامل ، او ما يسيل تحت اسلة القلم وغيرها .

وموسيقى القلم هي التي تعنينا في بحثنا وربما اعترض علينا بان الادب ينتقل عن طريقين : الورق والهواء ، فلماذا نقتصر على الوسيلة الاولى ؟؟ ونحن نؤيد ذلك ولكن ما دام الادب السماعي من الممكن ان يتجمد على شكل حروف ، فلا بأس من تسميتنا لانها تجمع ما هو كائن وما يمكن ان يــكون .

وموسيقى القلم لا تختص بالشعر دون النثر سواء كانت موسيقى تركيبيه لانها الاصل في تركيب الجمل ، او تعبيرية وهي الناتجة من كيفية التعبير .

ويعتبر العروض وهو الموسيقى التركيبية من قيم الشعر الهامة ومن العيب ان يتجرد الشعر من ميزانه ، والنثر الفني له عروضه ايضا ولكنه لا يمتاز بالوحدة في الوزن بل لكل عبارة وزنها وقافيتها ويبدو هذا النهج في ارقى النماذج الفنية في نثر القرآن الكريم .

اما الموسيقى التعبيرية فمن قيم الشعر والنثر على حد سواء .

والموسيقى التركيبية ذات قيمة اصولية فقط ولا شيء اكثر من ذلك ، فالاصل في الشعر ان يوزن سواء على اساس التفاعيل في شعرنا العربي او على اساس المقاطع في الشعر الاجنبي ، والاصل في الشعر ان يقفى سواء كانت القافية موحدة او مزدوجة او متشابكة او مضاعفة .

والوزن ذو صفات تتعدد بتعدد الاحاسيس والمشاعر فمنه الراقص والحزين والشجي والمتحمس والصارخ والهامس والبارد والجاف وغيرها ، والقافية منها الفنية المتوسطة والفقيرة والنادرة وسواها ولكل من هذه الانواع قيمته الرائعة في مجاله وعيبه الفاحش في غير مجاله .

واذا اجيد استعمال الموسيقى التركيبية في مختلف المواقف الشعورية استطاعت ان تحقق اغراض الشاعر واهدافه ، والموسيقى التعبيرية ذات قيمة فنية وهي كاللون في الرسم والبسمة في الوجه الجميل ومن مظاهرها حكاية الاصوات كازدحام الميمات التي فطن اليها الدكتور مندور في قصيدة ((اخي)) لميخائيل نعيمة .

وتعتمد الموسيقى التعبيرية اعتمادا كليا على ايحاءات اللفظة وما حملتها الايام والليالي من مشاعر وصور انتجتها التجربة الانسانية حتى قال تشارلتن ان الرجل الفني بالفاظه اوسع حياة من سواه والرجل القدير على استخراج المعاني من الالفاظ اعمق حياة من سواه .

بينما تعتمد الموسيقى التركيبية على الحركات اعتمادا كبيرا فتصنف المقاطع تبعا للحركة والسكون كالخبن والاضمار والوقص والطي والقبض والعقل والكف وغير هذه الاصطلاحات التي تعارف عليها علماء العروض .

والحديث عن انواع الموسيقى هنا لا يتناول الا التركيبية ، لان التعبيرية يحكم عليها بالجودة والجمال والرداءة والقبح ، ولم تقنن عند ناقد من نقاد الشعر من قالة الشعر . وقانونها الوحيد هو الذوق ويمكن ان يفيد في ايضاح الذوق وانجاح وسائله الاتجاه الودي الذي يكنه الناقد ويمكن ان يطمس معالم الحق الاتجاه العدائي الذي يكنه الناقد ، للاثر الادبي وصاحبه .

والموسيقى في الشعر كما تبدو في آخر المؤلفات الشعرية تنقسم الى اربعة اقسام هي موسيقى البحور وموسيقى الموشح وموسيقى الشعر الحر وموسيقى الشعر المنثور .

ويشكل تاريخ الشعر العربي حركات ثورية متعاقبة تناولت النواحي الموسيقية بالتغيير والتطور والتبلور ولم تتناول معاني الشعر ومحتوياته الا برجات خفيفه انفرادية تقريبا .

ففي العصر الجاهلي ـ الاصل الكلاسيكي الخالد ـ كان الشعر يعتمد على البحور اعتمادا تاما وتقدر القافيه تقديرا ضخما ونحن لا يمكن ان نتذوق موسيقاه التعبيرية الخشنة الشوكية في نظرنا اليوم .

ثم كانت الثورة الاسلامية التي تناولت كل مظاهر الحياة بالتغيير والتعديل ولم ينج الشعر من هذه الثورة .. بل هاجم الاسلام المفاهيم الفنية السائدة وجعل للنثر المقام الاول وبدل الذوق العربي والاتجاه الذي عرف به الشاعر ، فلانت الاساليب واصبحت الفوارق بين الاسلوب النثري والاسلوب الشعري عروضية تقريبا .

ثم كانت الحركة التجديدية في العصر العباسي التي تزعمها بشار بن برد وابو نؤاس وما احدثته من آثار عميقة في تغيير اتجاهات الشعر ، وقضى ابو العتاهية قضاء مبرما على الارستقراطية في موسيقى شعره حينما تقرب من الشعب واستغل الاساليب الشعبية وفاخر في بساطة شعره وسهولة الفاظه .

ثم حدثت المعركة الادبية التي اثارها ابو تمام الذي بلغ في النواحي البديعية القمة والبديع لا يعدو كونه حركة لتغيير الموسيقى التعبيرية المألوفة ذات النغم الواحد .

والثورة الاندلسية في الشعر من اعظم الحركات التي اضافت الى موسيقى شعرنا خصبا وثروة ووسعت استعمالات العروض فبدلا من كونه ستة عشر بحرا وملحقاتها المجزوءة اصبحت الموازين عديدة جدا حتى ليمكن للشخص الذي يفرغ لهذه الناحية ان يوجد مئات البحور .

وتحجرت القريحة العربية حينما تدهورت مجتمعاتهم بفعل الانتكاسات المتكررة . وفي بداية العصر الحديث ـ وانا ارى الحداثة تبدأ ببداية القرن التاسع عشر تقريبا ـ حدثت حركة عنيفة في احياء الموسيقى المحافظة ، اعني

موسيقى البحور على ايدي البارودي ورهطه

ثم تطورت بسرعة حتى وصلت غاية العذوبة والقوة عند شوقي الـذي بويع بالامارة لروعة موسيقاه كما يقول شوقي ضيف .

ثم اتسعت حركة احياء الموسيقى الاندلسية وحازت انتشارا وسمعة طيبة في الشعر المهجري عند ميخائيل نعيمه وابي ماضي ، ونسيب عريضه، والياس فرحات وغيرهم .

واخيرا .. انبثق من العراق الشعر الحر وفي مدة وجيزة رغم جدته وغرابته وكثرة خصومه وافتقاره الى الاستعداد الذوقي عند الجماهير انتشر بصورة واسعة وبلغ النجاح الباهر على ايدي نزار قباني الذي نجح في كل موسيقى .

وما زالت موسيقى الشعر المنثور شقية مضطهدة .

٢ . موسيقى البحور

لو القينا نظرة على موسيقى البحور في المدرسة الشعرية التـي عاشت في العراق قبل الحرب العالمية الاولى لرأيناها تابعة لما تقدمها تكثر مـن الاقتباس والتضمين من السابقين والحديث النبوي والقرآن فهي اذن كثيرة التعابير الجاهزة .

ويلاحظ عليها كثرة المحسنات البلاغية التي افسدت الشعر زمنا كبيرا كالسجع والطباق والكناية والتورية والاستعارة ولعلـهم احسـوا بفقرهم الشعوري فاعتاضوا عنه بالكلس والطابوق .

ومن السهولة ان نلاحظ التقطيع في البيت حيث يكسب القصيـدة نبرات قوية، ذات ترجيع صاخب.وفيما نذكره للحبوبي يلمح القاريءذلك، كما يلمح المبالغة الكريهة ، والبلاغة ذات الوجه المكفهر تقهقه وراء كلمـات جيد وجَيد ، وقامة وتقويم ، وجنة ، ووجنة ، وغيرها :

لح كوكبا، وامش غصنا،والتفت ريما ... فان عداك اسمها لم تعدك السيما
وجـه اغـر ، وجيـد زانه جيـد ، ... وقـــامة تخجل الخطـي تقويما
لو لم تكن جنـة الفردوس وجنتـه ... لم يسقني الريق سلسالا وتسنيما
الردف والساق ، ردا مشيه بهرا ... الدرع منقدة ، والحجل معصومـا

وكان التكلف ميزة ظاهرة واخص بالذكر العمري الذي لا تستطيع وانت تقرأ شعره الا ان تعجب من كثرة اللعب بالشعر والعبث بمقدرات الفن وقيمه ، واذكر فيما يلي قطعة مسكينة القافية واظن القاريء في حاجـة الى معاني كلمة الخال وهي على الترتيب البرق والسحاب والشامة والجبل والجمل والخلافة والكريم :

الى الروم اصبو كلما اومض الخال ... فاسكب دمعا دون تسكابه الخال
وعـن مـدح داود وطيـب ثنائه ... فلا القد يثنيني ولا الخد والخال
مشير الى العليا أشـار فطأطات ... واصبح مندكا لهيبته ... الخال
مناصبها انقـادت لاعتاب بابـه ... كما انقاد مرتاحا الى العطن الخال
مليـك ، ملاك الامر والنهـي كلـه ... اليهانتهىوالحكمفي الارضوالخال
حكى نهـر طـالوت ببسطـة علمه ... وفي فضله ذاك الفتى الماجد الخال

والقصيدة طويلة ، وهنالك نماذج اخرى من العبث من اراد الزيادةفعليه بالترياق الفاروقي .. ويلاحظ على اشعارهم معارضة المتقدمين وقد تجد مادحا يمدح هذا الاتجاه مدفوعا بدوافع غير فنية كقصيدة السيد حيـدر الحلي الاتية التي اخذت من المتنبي نفسيته الطموحة ووزنه البسيـط والقافية الميمية المرفوعة :

ان لم اقفحيث جيش الموت يزدحم ... فلا مشت بي في طرق العلى قدم
لا بـد ان اتداوى بالقنـا فلقـد ... صبرت حتـى فؤادي كله ... الم
عندي من العزم سـر لا ابوح بـه ... حتى تبـوح به الهندية الخـذم
لاحلبـن ثـدي الحرب وهي قنا ... لبانها من صدور الشوس وهو دم

وهنالك نماذج تنبو عن الذوق تماما فانظر الى الجناس الذي قاد السيد حيدر الحلي في الابيات التالية الى موضع السخرية ونبو الذوق وسخف التعبير

بـين سمطي ثغـره للمستلذ ... خمرة لـم ينتبذهـا منتبـذ
ان تغنـى هزجا قلـت اتخـذ ... مخبـدا عبـدا وبعـه ان ابى
وعلى اسـحاق بالنعـل اسحق ... .

والقيم التي استطاعت ان تؤديها تلك الموسيقى تقتصر على ارضاء المدوحين ، الذين احبوا المحسنات البلاغية والجلجلة التيتذكرهم بالاوائل تذكيرا عنيفا واضحا نعده معيبا في ايامنا الحاضرة .

ومنها اظهار المقدرة والبراعة والقوة اللغوية التي تضفي عليهم اطارات اثرية تناسب حياتهم الهادئة في الصوامع والمساجد ولم يعرفوا الملاءمـة بين الموضوع والموسيقى فكثيرا ما رأيت موسيقى راقصة حملها الشاعـر احزانه والامه واستعملها في مواقف الرثاء .

ثم برز الرصافي وامثاله الى الميدان وتطورت موسيقى البحور عـلى أيديهم تطورا يناسب طابع هذه المدرسة المكافحة التي خلقت لتناضـل وتجاهد وتخوض الغمرات .

وقد تحللت المدرسة المكافحة من طابع الجمود الذي استعبد اسلافهم ، ولعل هذا الاتجاه من كفاحهم في ميدان الفن يناسب ما اثر عنهم في ميدان الاجتماع والسياسة .

ولكن الصفة التي لازمت موسيقى الرصافي واضرابه الخطابة والحماسة والحكمة والروح التعليمية والاثار الصحفية الظاهرة وكانت تتوجه بالدرجة الاولى الى الجماعات والشعوب قبل ان تتوجه الى شخصيات المدوحين والامراء .

ففي المقطوعة المختارة من الشبيبي يلمح القاريء الكريم القوة في الالفاظ التي ترتفع عن القوالب البلاغيه والتي تناسب موضوعها .. فالالف والدال في القافية اراها كوقع الفؤوس او صوت المدافع المتكررة .. دو .. دو .. دو .

وهذه الشدات العديدة في نزع وجلق ولهن وغص والوراد وتعذر توحي بصرير الاسنان الناجم عن الغضب .

مـاذا بنـا وبذي الـديار يراد ... فقدت دمشـق وقبلها بغـداد
مـن موطـن الميـلاد قامت نزعـا ... خيل لهن بجلـق ... ميعـاد
بردى واودية الفـرات ودجـلة ... والنيل غـص بمائك الـوراد
حال العلـوج من الاحامـر بيننـا ... وتعذر الاصـدار والايـراد
لا ساغ يا بردى الشراب ولا هنـا ... عذب من الماء القـراح يـراد

وللجواهري قصيدة « عتاب مع النفس » المفروض فيها انها وجدانية عليها بالنعومة في اللفظ ، والرقة في النغم والرخاوة في عزف الوتر .

ولكننا نجدها مليئة بالفاظ الكفاح والسياسة ويندر ان تجد قصيـدة في الوجدانيات لدى هذه المدرسة سالمة من هذه الالفاظ والمصطلحات على فرض انها خلت من الاستطرادات السياسية والوطنية .

فانظر الى قوله : « أخو حيـدة » و « يسجل معركة الكائنات » و « قبضت على حمة العقرب » و « لم احترس ولم احدب » و « اقيم بجهد الجهود » و « ان الشروق اخ المغرب » و « ثارت مخيلتي تدعي » و « ان التنازل مرعى وبي » و « ان الخيانة ما لا يجوز » وغيرها .

وهذه مما اعتاد الوطنيون والحزبيون ترديده في المحافل والمنتديات السياسية كما ان بحر القصيدة المتقارب اصلح ما يكون للمواقف الحربية وسير الجيوش كمايقول الاستاذ احمد الشايب . اما الدكتور عبدالله الطيب المجذوب فقد وضعه ضمن البحور الشهوانية

وما الدهر الا اخو حيـدة ... مطل على شرف ... يرتبي
يسجل معركة الكائنات ... مثل المسجل في ... المكتب
فما للزمان وكفي اذا ... قبضت على حمة العقرب
وما لليالي ومفرورة ... تجشمني خطر المركب
نيابي من قبل ناب الزمان ... ومن قبل مخلبه مخلبي
تفرى اديمي لم احترس ... عليه احتفاظا ولم احدب
بناء اقيم بجهد الجهود ... وسهرة ام ورعيا اب
اجد واعلم علم اليقين ... بأني من الدهر في ملعب
وان الحياة حصيد الممات ... وان الشروق اخ المغرب
وثارت مخيلتي .. تدعي ... بان التنزل مرعى وبي
وان الخيانة ما لا يجوز ... وان التقلب للثعلب

واذا مثلنا بشعر الجواهري لبيان تسلل السياسة والوطنية الى الناحية الوجدانية ففيما يلي نمثل بالرصافي لنرى كيف استعبدت الاتجاه الوصفي فنجده يذكر في وصف الصيف التعابير الكفاحية التالية :

« غضبي تجيش بصدرها الشحناء » و « حكت اشعتها حرابا » و «حتى استجار الليل » و « غارة هيفه شعواء » واما البيتان الاخيران فلا يفتقران الى الاشارة :

جاء المصيف فجفت الانداء ... وشكت يبوستها به الاشياء
وتوقدت عند الهجيرة شمسه ... فتلمظت بلعابها الصحراء
وعلى الديار تراكمت من شمسه ... ملء الفضاء حرارة وضياء
فعلى من الشمس المنيرة اصبحت ... غضبي تجيش بصدرها الشحناء؟
مدت الينا في الهجير أشعة ... كالكهرباء نارها بيضاء
فحكت اشعتها حرابا أشرعت ... بيضا فما بحديدها اصداء
حتى استجار الليل من لفحاتها ... ركب سروا فهدتهم ... الجوزاء
اني لاغفر للمصيف .. ذنوبه ... ولو ان غارة هيفه شعواء
فالصيف ارأف بالفقير من الشتا ... ولذا تحب قدومه الفقراء
قلت به الحاجات فالفقراء في ... ايامه والاغنياء سواء

وتدهورت موسيقى البحور وفقدت هيبتها وجلالها على يد الزهاوي حين اراد ان يطوع البحور لاستيعاب النظريات العلمية والافكار المنطقية المجردة ، وتدهورت على يد الصافي النجفي حينما اراد البحور ان تستوعب كل ما في الحياة من وقائع يوميه ومناظر اجتماعية .

والقيم التي ادتها هذه الموسيقى في هذه الفترة اذكاء الحماس وتهييج العواطف واستنهاض الهمم وقد نجحت في هذا المجال .. فاستطاع الرصافي واضرابه ان يحاربوا ويكافحوا الدخيل والاجنبي بشعر ذي موسيقى تتفق مع آفاق المدفع والرصاص .

والقيمة الفنية لهذه الموسيقى انها كانت ضد المصطلح البلاغي والروح الاثرية التي سادت الفترة السابقة وبذلك نهضوا بالذوق درجة رفيعة وسنوا للشعراء من بعدهم سنة التطور والتجديد وفتحوا طريق الانطلاق.
وجاءت المدرسة الجديدة بعد الحرب العالمية فبلغت بموسيقى البحور درجة رائعة من الفنية فتخلصت من الروح الخطابية والالفاظ السياسية وعقابيل البلاغة الى حد ما وحملت البحور الانطلاقات الوجدانية المتفرعة التي عرفت بها هذه المدرسة .

وننقل فيما يلي قصيدة ـ كلمات ـ للشاعر اكرم الوتري على الوزن الذي لم ينجح الزهاوي فيه كثيرا من المرات استطاع ان يكسبه رنينا وهمسا ونعومة وان يلمس القاريء فيه الانطلاق الى عنان السماء .

كلمات همت على ثغرها سكرى وحارت فلم تمس الشفاها
وسرت رعشة على صدرها الواهي فرفت على يدي يداها
وتلاشت وراء ستر من الليل فباحت بسرها ... عيناها
اي دنيا من انجم واجمات ، شاردات ، تهيم في دنياها
صفتها في دمي قصيدة شعر ، افتدري قصيدة معناها
كلمات.. همت.. واغفت على ثغرك.. ظلت روحي تحس صداها
ايه .. لا توقظي الذي نام منها.. انا ادري بها.. فقولي سواها

وهذا بدر شاكر السياب يخالف المكافحين في استعمال بحر الكامل ويحول الموضوع السياسي الكفاحي الى ناحية عاطفية منطلقة ويكسوه الفاظا ناعمة ، وخيالا خصبا ، ولا يأنف ان يقول انه يبكي وتسيل دموعه لانه يعبر عن وجدانية عنيفة وينسى انه في ميدان كفاح يتطلب الصبر والجلد وينسى انه في ميدان عقائدي فيصف الموكب الطاهر الثائر بالقطيع ذي الاعين البلهاء

واملأ سراجك ان تقضي زيته ... مما تدر نواضب الاثداء
واخلع عليه كما تشاء ذبالة ... هدب الرضيع وحلمة العذراء
واسدر بغيك يا يزيد فقد ثوى ... عنك الحسين ممزق الاحشاء
والليل اظلم والقطيع كما ترى ... يرنو اليك بأعين ... بلهاء
احنى لسوطك شاحبات ظهوره ... شأن الذليل ودب في استرخاء
واذا اشتكى فمن المغيث وان غفا ... اين المهيب به الى العلياء
مثلت غدرك فاقشعر .. لهوله ... قلبي وثار وزلزلت اعضائي
واستقرطت عيني الدموع ورنقت ... فيها بقايا دمعة خرساء
يطفو ويرسب في خيالي دونها ... ظل ادق من الجناح النائي

وتطرقت نازك الملائكة الى موضوع فلسفي كثر الحديث عنه في شفاه الفلاسفة من عهد افلاطون وجمهوريته الى سارتر وشخصياته القذرة هو «يوتوبيا» حيث يرتفع الانسان عن كل ما يعكر صفوه ويسود الخير والحق والجمال .. فعالجت الموضوع بروح عاطفية منطلقة تغلبت على الفكر المجرد وروح البناء والتقنين .

صدى ضائع كسراب بعيد ... يجاذب روحي صباح مساء
انام على رجعه الابدي ... ويوقظني برقيق الغناء
صدى لم يشابهه قط صدى ... تغنيه قيثارة في الخفاء
اذا سمعته حياتي ارتمت ... حنينا ، ونادته الف نداء
يموت على رجعه كل رجع ... بقلبي ويشرق كل رجاء
ويمضي شعوري في نشوة ... يخدره حلم يوتوبيا ...

والى هنا ... نكتفي بالحديث عن موسيقى البحور في طورها الاخير وقد اصبحت ذات قيمة فنية رائعة وحملتها المدرسة المنطلقة امكانيات ضخمة جدا ، واستطاعت ان تستوعب الاعاصير النفسية وان تمتليء بالاستيرادات الاجنبية وتستغل التراث العربي القديم استغلالا ناجحا .

وموسيقى البحور في طورها النهائي افضل مما سبقها واعذب واجمل . وبودي ان تنتصر وتتقدم وتثبت اقدامها وان لا تنجرف امام الشعر الحر فهي تختلف كل الاختلاف عما كانت عليه عند العمري والحلي والرصافي

والزهاوي كما نامل ان تتدارك بعض اخطائها العروضية .

٠٣ موسيقى الموشح

الموشح ضرب من موسيقى الشعر العربي يتناول البحور بالتطور الجوهري وليس الحديث عنه ملاحظة اولية حول القافية وتنوعها بصورة انفرادية او مجاميع صغيرة في القصيدة الواحدة .

ان القصائد ذات البحر الواحد والقافية القلب تدخل تحت باب موسيقى البحور اما تلك الظاهرة التي تنظم القصائد على شكل مقاطع لها وحدة عروضية غير وحدة الوزن الفراهيدي المأثور فهو ما اريده بلفظ الموشح .

والمقطع في الموشح قد يقوم على شطر بحر واحد يتكرر على شكل مجموعات منتظمة او يكون خليطا من بحرين او اكثر وهنا نجد ان النجاح الذي احرزه مقطع البحر الواحد حقيقه مبرهنة اما نجاح المقطع المختلط فما زال قليلا وضعيف الاثر يحتاج الى البرهنة . ويعزى ذلك الى الانتاج لا وسيلته ولعلنا في الايام الجائيه نجد انتفاضات ناجحة في هذا المجال .

والموشح حركة تناولت الشكل والمحتوى عند روادها الاندلسيين فكانت موسيقاهم راقصة ، عجلة الحركة ، رقيقة اللفظة اوجدت لتستوعب صور الشرب واللهو ووجه الطبيعة الاندلسية الضاحكة ومظاهر الحضارة العربية الجديدة على سواحل الاطلنطي .

والموشح في شعر الفترة الاولى من ادب العراق المعاصر حافظ على موسيقية الشكل الراقصة وحقق انتصارات رائعة ولكن محتوياته كانت ذات صبغة خاصة اثرية وليس المحتوى من عدة بحثنا .

اماالاخرس والحلي فموشحاتهما قليلة نشتغل عنهما بغيرهما ، والموشح عند عبد الباقي العمري يكاد ان يكون لا رونق له رغم الكثرة الكاثرة وابدع السيد محمد سعيد الحبوبي ابداعا منقطع النظير الى يومنا الذي نعيشه في نغمات موشحاته .

وفيما يلي مثل الموشح الحبوبي يستلهم روح عمر بن ابي ربيعة واتجاهاته وتجاربه النفسية :

قلن لي : علك يا بادي الشجن
ذلك الصب العراقي الوطن
مولع القلب بتسآل الدمن

لست تنفك تحيي الاربعا ولكم عجت ضحى في سفح جناح
قلت : هل تنكرن صبا مولعا بذوات الاعين المرضى الصحاح

قلن : يا اسم امنحيه الغزلا
وصليه فهو من خير الملا
فاشتكت كبرا وقالت : لا ولا

كان لي سر لديه مودعا ضمن الكتمان فيه ، وأباح
ولقد شبب بي حتى سعى بي في سر التصابي لافتضاح

وهذا موشح لعبد الباقي العمري ذو موضوع شعري يعالج بروح غير شعرية حيث يكثر من الاشياء البلاغية والاشارات التاريخية وينمو الموضوع نموا منطقيا حتى يشعر القاريء انه لا يتابع احساسا وعاطفة ولكنه يحل مسألة حسابية ، يجمع ويضرب ويقسم ليصل الى النتيجة .

عروس روح المعاني مع عقائلها وعت مباني بياني من معاقلها
فهل تلام النشاوى من شمائلها واحرفي والمعاني في هياكلها

كؤوس راحة ارواح لاجسام

والحبر من قلمي مسك بذائبه قد ضمخ المجد فرعا من ذوائبه
والسحر سل نفثاتي عن غرائبه والسطر من قلمي في رق كاتبه

سمط به درر في كف نظام

في مدين الفضل كم ادركت من امل وكم سرحت بسرب المدح والغزل
فخذ تفاصيل ما يغنيك من جمل انا كليم المعاني واليراعة لي

هي العصا والمعاني الغر اغنامي

ومن القيم التي استطاعت الموشحات ان تؤديها في هذه الفترة هي انها افادت الحبوبي اذ غطت بموسيقاها الناجحة الجانب الجامد من قريحته واكسبته سمعة فنية طيبة .

وهي عند الباقي العمري استطاعت ان تعينه على نفخ قصائد الاخرين واعني بالقصائد المنفوخة التشطير والتخميس وغيرهما .

ولا يسعنا الا الاعتراف بانها افادت الحلي في تصوير الطبيعة

وجاءت المدرسة المكافحة بين الحربين فوجدت ان الموشح بضاعة المترفين فاستغنوا عنها واكثروا من موسيقى البحور لانها الاسلوب الحماسي الناجح في استنهاض الهمم وبث الوعي في الشعوب . ولم يستغنوا عن الموشح استغناء تاما بل نجد في دواوينهم نماذج قليلة . ويعتبر الزهاوي اكثرهم بضاعة لانه اقلهم كفاحا واكثرهم هدوءا ، اما الشبيبي فلا نجد له مثلا واحدا في ديوانه .

واهم موشحات الرصافي قصيدتان ـ الفقر والسقام ـ وايقاظ الرقود لم ينجح شاعرنا الكبير في نغماتهما لانه اراد ان يستغلهما لخدمة اتجاهاته الوطنية والاجتماعية .. نذكر فيما يلي مقدمة الموشح الاول :

اي مضنى يمدها باكتئاب انة تترك الحشا في التهاب
يتشكى والليل وحف الاهاب ضمن بيت جثا على الاعقاب

صفعته فمال كف الخراب

تسمع الاذن منه صوتا حزينا راجعا في حشا الظلام كمينا
يملأ الليل بالدعاء ... أنينا رب كن لي على الحياة معينا

رب ان الحياة اصل عذابي

واذا كان الشاعر استغل الموشح هنا في وصف البؤس وتصوير المناظر الاجتماعية المؤلمة ففي القطعة التالية استغله في المجال السياسي وصبغه بلون الكفاح فلم يقو على حمله لان اذرعه ناعمة خلقت باديء الامر للزهر والربيع والرقص .

الى كم انت تهتف بالنشيد وقد اعياك ايقاظ الرقود
فلست وان شددت عرى القصيد بمجد في نشيدك او مفيد

لان القوم في غي بعيد

اذا ايقظتهم زادوا رقادا وان انهضتهم قعدوا ونادا
فسبحان الذي خلق العبادا كأن القوم قد خلقوا اجمادا

وهل يخلو الجماد عن الجمود

ونجح الجواهري في شيء من الموشح وفشل في شيء اخر ونذكر فيما يلي مقطعا من قصيدة « انيتا » يدل على نجاح جزئي

ان وجه الدجى انيتا تجلى
عن صباح من مقلتيك اطلا

ـ التتمة على الصفحة ٩٣ ـ

مغامرات بورجوازي

ابوابٌ مُغلقة

هذه واحدة من عشرين مقطوعة ، تدور كلها حول الطبقة البرجوازيةوتجسيد مفاهيمها في عدة صور تتضمنها هذه المقطوعات ، وكـــل مقطوعة تعتمد على مســـافة زمنية معينة . ونعني بالمسافة الزمنيةرصد الذبذبات النفسية رصدا امينا بواسطة « عنصر الهارمون » فاذا حصل ادنى خلل او تقطع في المسافة الزمنية انقطعت الوحـــدةالنفسية واعترى خط التجربة بطء قاتل ، وقد يصبح مثل هـــذا النوع من الشعر عدة ابيات ومع ذلك يصبح الجهد المبذول فيهـــاتماما كالجهد المبذول في الرواية القصيرة ، وبمعنى آخر اعطاء كل ما هو شعر ونفي ما عداه . واذن فلا بد من الدقة «البصرية» . حقا انكثيرا من الصور الفظيعة سوف تمر في شريط متلاحق ، ولكن حسبنا اننا نعكس الابعاد الخلفية لحيوات تلك الطبقة البرجوازية المتعفنةبشيء من الجرأة . وبعض هذه المقطوعات على الاوزان العربيـــة المتطورة ، وبعضها على اوزان المولدين في العصر العباسي كأبـــــيالعتاهية وغيرهم ، والبعض الاخر على اوزان جديدة لم تسمع بهـــا العربية من قبل ، ولست اومن بقول الفلاسفة ان العالم « وحداتنغمية مشاعة » في الجو البراح ، ولكن مع ذلك اسمع في بعـــض الاحايين اصواتا نغمية مختلطة ، وامسك بايقاعاتها .. ثم تفلت منيثم استدعيها بشتى الحيل . ولكن دون جدوى .. واخيرا نجحنا .. وسنعرض لذلك في الوقت المناسب بشيءمن التفصيل والدراسة العلمية الحديثة .

« فارس »

عُودي لأمّك . غادري أرضي   واسقي التراب بدمعك الفضّي
قد كنتِ لي .. بالامس طائعة   عريانةً .. بقوامك البض
قد كنت مروحة أذود بها ..   وهج العروق ، ويقظة الارض
وجنيت فيك مواسماً عبرت   ملآنةً .. بالنرجس الغض
ووقفتِ في المرآة عاريةً   بعضي .. يغارُ عليك من بعضي !
تتأوّدين .. وأنت راقدة   سوسانةً .. يقظانة الغمض
نهداك منقاران قد شمخا   أنا .. عبد ذاك الشامخ الغض
وولغتُ فيك .. تركتُ آنيةً   تشكو الفراغ .. طريحة الارض !!
وركضتُ في بستان فاتنة   غجرية .. ومللتُ من ركضي
حتى غدوت رماد مدفأة   ذكرى مساءٍ باهت الومض
قومي اخرجي .. فهنالك آنسةٌ   أخرى .. تبيع براعم الروض
بهوى .. وكل ستائري احتشدا   يتطلعان إليك في بغض
فستصبحين لآخرٍ قدحاً   تتلفتين .. لجوعه الارضي !!

محي الدين فارس

عضو رابطة الفنانين السودانيين بالقاهرة



قرف .. قرف من كل شيء .. ينبعج في نفسه ، منذ ان استيقظ صباح اليوم .. وخور .. خور كاسح اشبه بمن تأكله الحمى.. فهي تعصف بمثل لقنها ايام دراسته ، وطحنتها حياته التي تشهد اندحار قيمه الكبيرة ببطء .. فيموت فيه حس بدأ يتفقده زمنا .

وكما يشتهي تفريجا عما يكبت ، في وخزات الالم الذي ينهش من نهاره الطويل كأنه الابد في القرية .. فقد كان يود لو يلقى اناسا كالذين يعرفهم في المدينة .. اناسا آخرين غير (عباس) فراش المدرسة ، وغير (شيخ حميد) مختار القرية ، أو (فاطمة) مؤجرة سكنه ، أو صبية المدرسة ذوي اللون الترابي .. اناسا .. غير هؤلاء كلهم ، ينتشرون في البلد بعد المساء ، يلبسون الاناقة ، ويخطرون في شوارعها ، يلبثون بعيدين عن دورهم حتى هزيع الليل الاخير .. واضجره التحديق في سقف الغرفة يعد أخشابه . عشرون خشبة لونها سخام الدخان المغبر . عشرون خشبة احداها معوجة في وسطها يبرز منها نتوء علق فيه كيس الطحين بعيدا عن الجرذان .. وحين تململ في مقعده تناول دخينة اشعلها من عقب المتلاشية بيده مبددا مع دخانها شعوره المتزايد بالقرف والذي كان ينساب متمكنا في امعائه .. فيردد بصره في الغرفة باحثا عن الهية اخرى تبعده عن اخشاب السقف ، وترسم خطا جديدا لنهاية يومه الافل او يفر به من رتابته المضنية .. تعلم من الصباح حتى الظهيرة ثم طعام يطهوه بنفسه .. جلسة مملة بعد المساء في ندوة القرية ، بحث عن فطور الغد ، نوم من العاشرة ، فصباح آخر ..تعلم، غداء !! واليوم.. نفد الماء العذب وعباس ما يزال يبحث عن القليل منه للعشاء ، ولا يدري ايجد شيئا أم يخيب في بحثه ؟!

انه يستطيع ، يستطيع ان يصرخ بوجهه ، غير ان التزمت لا يربط علاقته بعباس ، واصطناع الوقار ليس في اصيل طبعه .. ولكن نفاد الماء ، الماء العذب كان يثير فيه صخبا يضج مع اعصابه ، يطفو على وجهه ، يكنسح انطلاقه وبشاشة خلقه .

وتساءل : أيستطيع ان يصرخ في وجه المختار الذي يكنيه بدجال القرية ؟! كما حاول مرة ان يفعل ؟! لن يستطيع لان لباقة الشيخ المصنوعة تمنعه ، ومراوغته التي ترسمها ابتسامة ماكرة ، ما كره شيئا اكثر منها الا صاحبها ، حين يردد بضع كلمات تعلمها من اسواق المدينة ، ومكاتب موظفي الناحية ، وكأنه يصفع بها وجهه :

ـ افندي ! انا برسم الخدمة ! اطلب ونحن ننفذ .. خادمك ابني سيجلب لك الماء غدا من النهر !

والى غروب امس لم يزود بالماء ، واكتفى بماء البئر . ماذا لو صرخ فيه :

ـ انت محتال ! انت مخادع ! تسرف في المواعيد ولا تنفذها . عيب عليك . انا معلم اولادك . انا موظف كالباقين . انا .. انا ..

ستحملق بوجهه عشرات العيون ، ويهم بعضهم بالرد عليه ، ويهمس اخرون وهم يلوون وجوههم عنه :

ـ أهه ! صقيع ! أهو مفوض شرطة !؟ أهو مدير ناحية !؟ حتى ننفذ رغباته بالاكراه .. يريد ماء حلوا ..! لماذا لا يشرب مثلنا من ماء البئر ؟!

وقد يشكوه المختار ، اذا صرخ هكذا .. الى مدير الناحية .. فيطلب هذا نقله اداريا الى قرية نائية في الجبال .. يسلك طريقها على ظهور البغال ... وقد لا يفعل .. بل يوفر له الماء كل اسبوع من النهر .. انه يخاف .. يخاف .. وسيختنق صراخه في حنجرته .. فيتمتم بحروف لا معنى لها .. او يهرف مبحوح الصوت بكلام مضطرب .. ثم يغذي خياله في الليل حلم مرعب .. كالذي رآه ليلة امس .. شخص ما ينحره .. شخص يرتدي الملابس البدوية .. يفصل رأسه عن جسده ، ثم يعلبه في صندوق من حديد .. ويمتص دمه المسفوك من رقبته .. وهذا المرتدي ثياب البدو .. كان يشبه رجل القرية الكبير ذا الوجه الثعلبي .. الذي يخفي وراء بسمته ظلا آثما .. فيغطي بها طابع المراوغة حين يردد :

ـ افندي ! انت اطلب .. ونحن ننفذ .. اني برسم الخدمة !

وهذه الخدمة .. ليست الا الفاظا يتقن مطها دجال القرية الكبير .. ولكم تمنت احلامه .. نتيجة لنزوعه الملح الى السطوة كما يفهمها الريفيون ، ان يغدو مفوضا للشرطة او مديرا للناحية ..! ولو بعد سنين .. سنين اخرى وفي هذه القرية بالذات .. ليري هذا الدجال كيف يستطيع هو الذي كان معلما في قريته ان يقض مضجعه .. تحوطه ثلة من الشرطة الراكبين ..

وصرع خيالاته المحلقة ـ وقد قتلت في نفسه كثيرا من تفسيراته لسلوك الناس ـ يقينا ابهظه بما يشبه الندم ، فالذي ينعته في خاطره بالدجال الكبير ليس الا قنا تحدر من اجيال اذلها كر الاحقاب ، تحت أثقال قصمت ظهورها من اسياد تقاذفتهم من شرق وغرب .. فكبير القرية ، يرى فيه ـ هو الموظف الصغير ـ امتدادا لنقمة أزلية ، ولكنها في شخصه سليبة السلطان .. فما هو الا معلم للصبيان بيده سيف ، ولكنه من خشب ! ففي اهابه ضغينة دفينة ينفث بعضا من سمها فوق رأسه .. ولا يملك ان يذيق طعمها لمفوض الشرطة ، أو مدير الناحية .. فهو يقعى امامهما مستطار اللب .. وهو كما تفرضه طبيعة الاشياء هنا.. يترفع عن زيارته الا فيما يخص اولاده من شؤون الدراسة ..

واذا ما غادر (مجلس القرية) عشية العيد .. وانفرد بنفسه .. سيجد في ذاته صديقا كان يمقته في اعماقه .. سيجده في انطوائه ، عالمه الذي ما زال يتفقده .. فيغمض عينيه على صورة الشارع الجديد بالمدينة او المدرسة القريبة من دارهم .. هناك في الحي القديم .. مدرسته الاولى التي احتضنته صفيرا .. ليدرس هو فيها جيلا آخر .. وسيفخر كثيرا بهذا ويقول لطلابه انه كان مثلهم ... وقد تلقى دروسه

الاولى هنـا !..

او يجده مجالسا رفاقه الذين قضى معهم عطلة الصيف الفائت .. كانوا ايضا مثله .. حائرين .. قلقين .. يلون وجوههم البؤس .. قال له احدهم في رسالة بعثها قبل ايام ، وكأنه يعزيه عن بقائه في الريف « ان الضجر يقتلنا احيانا .. فلا يملأ فراغنا ، الا المقهى او الحانة .. وحتى السينما » حتى السينما هذه الدنيا الضخمة الى عالمه الصغير هنا، والتي تملأ فجوات كبيرة من تفاهة ايامهم يملونها في اكثر الاحيان .. كما قال في رسالته !

وبعيد عن خياله .. يعيد انه سيمل شيئا في المدينة ، حتى ميـاه الازقة الآسنة .. واذ يتطلع عبر الكوة نحو الطريق المؤدية الى الحقول.. يلمح كآبة الخريف تولي في هبات من النسائم الباردة ، تعلن قدوم الشتاء .. فموسم البذار انتهى ، والارض الجافة التي حرقتها الشمس يزداد عطشـا يوما بعد يوم .. والسماء تتبرقع بغيوم تشرين الخفيفة يدفعهـا اعصار من الغرب ، يحمل بقايا هشيم الموسم المبعثر ، ما تلبث ان تلفه دوامات تطارد خرقا ونفايات بالية تتكور فوق الروث المنشور وقـودا للشـتـاء ..

ان اضطرامه المتكاثف بالقرف يخفف وطأة مرأى نساء القرية ... منحنيات يقلبن الزبل .. او يصفن اليه ما يحملن من روث ندي .. الا ان ظمأه اليهن يشد على اعصابه ، ويبعث فيه لهاثا من الرغبة .. حـين تغرق عيناه في سيقانهن .. سيقان لم تصوحها شمس الريف القوية .. فتندفع اذ ذاك اعمق انتفاضات الحيوان فيه لتغذي مخيلته الكامنة في ليله المقبل ..

وتحتدم طاقته بهذا القرف .. يعاوده منحرفا الى ما يشبه المرض .. مرض يحوطه بزخم قاتل من ضجر .. من خور .. يلغ في دمائه المتدفقة على يوم يحسبه مربدا كسالف ايامه الاخر .. وما فيها من لون باهت ، وتربص دائم لغد مقفر تحتضر فيه آماله ، ويزيد من وقعه ما يأسره فيه العمل الرتيب من قيد وكونه منقادا الى احلامه هذه، فلا تعوز تصوراته ما يمكنها ان تهرب به من حاضره، لتنغمر في سويعات هانئة كان قضاها في حانة رخيصة بالمدينة ، انتهب بعدها ما غذى من لذات حسه الجسدي ، نهمه المترع بالحرمان .. فوق كتلة من لحم بليدة ، يغسل في اصباغ وجهها خبرات يده المنقادة ابدا الى جوع شهوته ، في شبق عارم ، ينحط فيه نبـل خبره عنه الناس .. يعذب فيه نوازع تخلق منه انسانا اخر ينسلخ عنه ليلا ويندمج فيه نهارا .. وتغذي تصوره هناءة اليوم الاول من كل شهر ينصرم ، طوال ايامه المقبلة .. لانها اهون سبيل الى ادراكه اليقظ بان يشتبك في صراع يغلظ له يمينا في باطنه ان يزيح عنه ارهاق شذوذه.. كما يبعده احيانا عن مألوف تطبعه هذا وجه (ترفة) ساقية الماء .. يبصره حدسه الى تطلع منها لا شك انه ميل عنيف يعرفه عن القرويات نحـو (الافـنـدي) ..

واندلعت تنخر خبايا حذره وخوفه كغريب في مجتمع قبيلي ، رغبـة المتلهف الى معين في جسمها يندلق فيه نهدان على حافة حب الماء ، وهي تصب قربتها .. فيمنعه عن مطارحتها والتلبث بمكمنه من الغرفة ، اشفاقه من صدها واكتفاؤه بما يغذي مستتـر رغبات الجنس فيـه ، تحديقه في منحنيات بدنها الملتف بجلبابها المصبوغ بالنيل .. ووسوسـة خلخالها ، وهي تدق الارض بقدميها الحافيتين .. يدغدغ ما فـي عروقه من خيبة محرقة يلهبها حرمانه الاسود ..

وحاول ان يقتل استغراقه المعذب .. فاكتسحه طوفان اخر لمجرى حياته التي لا ينضب فقرها من خلو الحس والمعنى اللذين يربطان وجوده في القرية طوال الشهور التي يقضيها من كل عام .. فاستدرج الـى ذاكرته ما اصاب من حواشي الحضارة التي يعيش قومه في بـؤرة زيفها ، فسد جوع غرائزه الصائمة .. وكم تمزق ألما لتفاهة ايامه تنسل من حياته كخيوط متهرئة بثوب بال ، وينصع الـه شديدا في تربصه الدائم ليوم يحسبه كيوم خلاص من طوق يأسره الى كوخه المعتم ، وأكوام الروث الطرية ببول الماشية ، تفغم خياشيمه ، وتخزها بحرقة ..

واذ ازدادت عتمة الغرفة مما تعكسه ظلال الغيوم على الارض .. أيقن بأن احدا من اهل القرية ، لن يذهب غدا الى النهر .. فالجو ينذر بالمطر .. واذا امطرت فبشير بوفرة الماء العذب في (خبرة) القرية .. وقـد راحت كسف السحاب المبعثرة في السماء تتجمع وتندفع مع ريـح غربية يبشر نفحها بفيض غزير .. وهو حين يكتنز لنفسه املا ، بان الجرة ستمتلىء بالماء العذب .. فعذابات رغباته الدفينة ستبقى كما هي تتلهب في امنياته .. غريقة.. في عدم لا يقضي أساه المذبوح ، سوى فراره الى مدينته .. مدينته الرابضة عبر التلال البعيدة وراء الافق الشرقي للقرية .. لتنقذه من ايامه التي يمسك بعضها ببعض في تثاؤب بطيء . ثم تدفع به مع نهاية كل شهر الى المدينة ينتهب من وريقات راتبه الزرق، وريقة يحشو بها سغب جسده الذي ما ان يسده حتى ينفتح على خلايا اشد من لياليه الخاوية هنا ، ومارد شبقه يصرخ في عروقه بعواء مخنوق.

بعـد حين .. سيهبط المساء على اكواخ القرية .. وقد اوشـك الان ان يلفها بسكون اخرس يقطعه نباح الكلاب وثغاء الاغنام الراجعة .. وقد عاد عباس من بحثه الطويل عن الماء .. ينبئه بأن اهل (ترفـة) سيبعثون اليه بقربة ماء عذب ، تنقله هي الى سكنه .. واذ انفتل عباس راجعا ، قرفص هو في باحة الدار الضيقة ، امام برميل صدىء ، زرعه بشتلات من زهور الشتاء الفاقعة ، يثير التربة ويسقيها .. وبينما يداه تعملان بهدوء .. كانت اعماقه تنفعل بخاطرة جديدة .. ماذا لو ..! لو.. وخنقه ارتعاش مذهل .. هل يستطيع هو .. هو الذي يخاف وفي تراث ذهنه يتطاول عرف الاجيال عن القرية ، واساطير الشرف فيها .. وكيف تسد ثلمته بالدم المراق !

ورغم رعبه حين فكر بالاقدام .. فهمسات عباس في اذنه خلال ليـال طويلة عن عش الدعارة في القرية .. العش الذي لا يشرك فيه الغرباء .. واشاراته الخفية الى (ترفة) بانها من اللاتي لا يتمنعن عن راغب

اذا بذل ..! كل ذلك اصغى الى سعاره المحتدم .. رصيدا يستحث لجاجته نحو غاية ظلت مقبورة في ظلال غامقة من شعوره ..

ومع انسدال عتمة المساء .. دفعت (ترفة) باب الدار الموارب قليلا .. واقبلت تتأود في حملها متسائلة :

- اين اصب الماء !؟ ماء حلو من عندنا !!

وقهر خاطره الجديد .. خاطره الذي بدا الان واعيا .. خدر سرى في رجليه حين هم بالقيام .. فقد كان ما تمثل له ، وهي تقف قبالته ، هو اشد مما يعتريه كل يوم ، حين تأتيه بماء البئر .. ولكنه مع ذلك لم يتمالك امساكه .. ففي لحظته هذه بدا يعتمل فيه اهاب المسلم جسمه لمبضع الجراح يشرحه .. غير ان ما سنح له .. ظل ابعد بكثير عن الالم .. كان الى الروع اللذيذ اقرب ..

- هنـاك !

واشار الى غرفته التي داهمتها ظلمة الاصيل .. ومن مكانه رآها .. رآها تنطرح بثقلها الى الوراء .. على ارضية الغرفة ، وهي تعالج فـك الحبال المربوطة الى ظهرها بالقربة .. بينما انهمكت يدها الاخرى تلملم اطراف ثوبها حول ساقيها وتطوي اسفله تحت قدميها . . وانتظر .. انتظر حتى حلت الرباط الذي يشد فم القربة وادنته الى الجرة المستندة الى زاوية الغرفة ..

لم ترع حين سد بظله الباب .. ولم يخاطبها هو بشيء .. لان الاشفاق كان ما يزال يكتنفه .. وتذكر.. تذكر يوما بعيدا.. يوما من ايام مراهقته .. كانت اول تجربة له .. وهذه الرعشة السارية من اخمص قدميه .. تواكب خطاه المتقدمة بانخذال نحو (ترفة) .. هي اول ما استعر فيه حين ولج غرفة البغي حينذاك ..

واستمرت تصب .. وعيناها تختلسان النظر في حذر .. وتنقلهمـا بينه وبين الماء المنسرب من القربة ..

- در دق .. در دق .. در دق .. والروع اللذيذ يهدر في باطنه كفيض غزير ، يمتد حتى نخاع عظامه المتصلبة .. المـه العـارم يزيد من خوفه الشـاوي مع خوالجـه الاخرى .. وكل عضلة فيه تنتفض ، وتنشر حول عينيه غشاوة دكنـاء ..

واذ سكنت بين ذراعيه ، هشة ، صغيرة ، تنز من اطرافها حبـات العرق بغزارة ، ولانت لاختلاج قبضتيه يعتصرانها ، ويتشبثان بمخابئها الحـارة ، احس فجأة بأن القرية موطن جميل للحياة ، قد يستطيبه بعد اليوم ، وبأن قلبه سيألف دجالها الكبير .. وسيلين هو من جانبه له .. ولم يعد في نيته الصراخ بوجهه .. او بوجه عباس !!.

وازدادت حواسه تفتحا وانبعاجا .. حين نفذت الى انفه ذرات الغبار الذي تثيره الاغنام في طريق عودتها ، واختلطت مع عبق الروث يفوح من ثيابها .. كما انداحت في ظلمة بعيدة .. لذاذات المدينة الزائفة ، ورغبات المستقبل ثم غامت . وغامت في اخدود عميق انطوى مع انفاسه المبهورة .. واصبح جسم (ترفة) هو عالمه الكبير .. ووجوده الذي كان يرتعش في خيالــه ..

وحين هوت من يدها القربة .. لاطمت الجرة التي تدحرجت والمـاء يتبدد من فوهتها مقرقرا .. تمتمت ، وفمها يختلج بين شفتيه :

- اسمع ! المـاء الحـلو !.. راح ..

لم يجبها .. لانه ادرك حينئذ فقط .. انه كان يغرق في الماء العذب .

الموصـل — غانم الدبـاغ

غريب في القرية

« لا تزحم الطريق بالخطا
خطاك ظل طارق كئيب ! »
وكلما مضيت هاربا من الصدى
لم انج من عيونهم تطوق الطريق
والف وجه .. ألف عين
تطل في سهوم
تشير في وجوم
تقول : يا غريب
لا تزحم الطريق بالخطا
يا أيها الغريب ..!

*

كأنما تقلب السماء جبهتي
بالقحط - بعد نضرة المنى - وقلة
(الجني
وفي ظلال كل حائط ومئذنه
يواعد الرجال بعضهم ويلتقون
على حنين حائر حزين
ويلعب الصبيان والبنات
وينقضي المساء
والزيت في السراج لا يزال
على مسارب الدروب يسكب الظلال
ويصحب الظلام تابع مريب
ويسكن السهران والخفير
وفي سجو قريتي تروعني مطالع
(الصباح
اخاف ان يجيء
والف وجه .. الف عين
تقول : يا غريب
لا تزحم الطريق بالخطا
يا ايها الغريب ..!

*

لكنهم عند الحصاد يرسلون لي
سنابل الوداد مثل حبة الفؤاد
نقية كقطرة من المطر
وفي ليالي الصيف يزهر القمر
ويومض الثمر
وكالندى يرقرق الحديث حلقة السمر
كم شاقني الهوى لصحبة الرفاق
هنيهة في السامر الطروب
وكم رجعت في اهابيَ الكئيب
والف وجه .. الف عين
تقول : يا غريب
لا تزحم الطريق بالخطا
يا ايها الغريب ..!

*

الاوجه السمراء لوحت بريقها الليال
وطول صحبة الظلال
وكل عام تقبل الحياه
ويولد النهر الخصيب في الجنوب
لكنما ريح الشمال تنكأ الجروح
فينشد الرواة في الارغول
حكاية الامير والفلاح
والجند تغصب الديار بالسلاح
وتحجب الآباء عن عيون كل أم
ويسرق الحراس طيّب الثمار للامير
ويعول الارغول في الوجوه
بلوعة النساء والاطفال
وكلما طلعت من حنية الطريق
تشير لي الاصابع النحيله
ويرتمي في مسمعي النشيج كاللهيب
بلعنة الحراس سارقي الثمار
والف وجه .. الف عين
تقول : يا غريب
لا تزحم الطريق بالخطا
يا ايها الغريب ..!

*

غرست من محبتي شجيرة خضراء
ضياؤها نوارة الحقول
وقلت للرفاق : يا احباب
ابوابكم ممدودة الرحاب
لا توصدوها في الوجوه
فقد سقيت مثلكم شجيرتي
بدمعة الصفاء والحنان
ولست بالغريب
ابي الذي مضى
ولم تشيع نعشه حشود
خطاه ما تزال بينكم على الطريق
وعينه تقلب السماء
لتضمن النماء للبذور
والزاد للصغار
وكان يؤنس الغريب
ويوقد المصباح في الدرب الطويل
صباحه وداد
وليله سلام
وقد عشقت مثله الصحاب
وحنة الارغول في المساء
وجئت بينكم يضمنا طريق
سماؤه نجوم
وارضه اطفال
ولست بالغريب يا رفاق ، لست
(بالغريب ..!

*

لكنما رفاقيَ العناة واجمون
عيونهم على اهابيَ الغريب
ومشية الجواد بي تهيج
لواعج الشجون
وتحمل الانين عبر كاهل السنين
من مصرع الجدود من سنابك الجياد
وعولة النساء بين الطين والرياح
وموكب الحراس والامير
وقد اغنّي الفجر للسارين في الظلام
واحرس الثمار للفقير
وفي يدي قصيدة السلام
وكلما شاقني الحنين للجموع
لم انج من عيونهم تطوق الطريق
وألف وجه .. ألف عين
تطل في سهوم
تشير في وجوم
تقول : يا غريب
لا تزحم الطريق بالخطا
يا ايها الغريب ..!

القاهرة : يوزباشي **حسن فتح الباب**
ضابط بوليس



لا شك ان كل ثورة هي عملية تمزق تنفصل فيها الخلايا الحية عن الميتة .. انفصالا صراعيا ناتجا عن عجز في القدرة على التفاعل والتطور تبديه الاجزاء المتخثرة عند اصطدامها بعنفوان الحياة والخلق ..

وهذا الاصطدام .. هذا الصراع الثوري الذي يحمل استمرار الحياة في اللحظات ليس الا ممارسة الوجود لامكاناته في الخلق ممارسة فعالة وخلاقة ..

فاذا نوقف تيار اللحظات الخالقة هذه بسبب اضطراب اجتماعي .. كان لا بد من وجود مفازة .. هوة بين ما كان واستمراره اي ما يجب ان يكون .

وفي مثل هذه المفازة يعيش الذين لم تتحدد هويتهم عند ابتداء الصراع ..

وفي مثل هذه المفازة يعيش الذين لم يعوا حقيقة وجودهم .. ولم يعوا حقيقة علاقاتهم مع الآخرين .. هؤلاء الذين يحبون ولا يعرفون ما الحب .. ويكرهون .. ولا يعرفون ما الكراهية ..

هؤلاء الذين يعيشون مأساة الضياع .

✶

والضياع ظاهرة اجتماعية تعايش الثورة منذ ان تكون نقهة وانفعالا .. ظاهرة تستمد الثورة من حيرتها الصمود .. ومن انقباضها التفتح .. ولكنها نقيضها القتال .. اذ انها ليست الا فضحا للضياع ومقوماته وعناصره .. واثراء للحظات الحياة التي كانت بلا معنى ..

ومن هنا كان الفضح والاثراء عملية خلق اجتماعية .. تتطلب الايجابية كما تستلزم الوعي .

ومن هنا كان معنى ان نعيش لا بأن نقوقع اللحظات الحاضرة في حدود التخثر بل بأن نشحن اللحظة بطاقة انسانية مشعة ... حتى تكون لحظة تأجج بدل ان تكون لحظة نزع .

✶

وعلى هذا كان لا بد من اعادة النظر في معنى « الالتزام » ... الذي لا يعني بالنسبة للوجودي الا محاولة شحن اللحظة بالمأساة .. وكان لا بد ايضا من اعادة النظر « بالواقعية الماركسية » التي لا تعني الا محاولة وضع حدود تعسفية .. للحظة .. والتاريخ .

اقول كان لا بد من اعادة النظر لان هذه المقاييس الجاهزة اهزل من ان تتسع للحياة بعنفها وعنفوانها .. ولان هذه المقاييس مأساوية بنشأتها .. بتركيبها .. بغاياتها .. فهي لا يمكن ان تنتج الا المرض والتمزق غير المنتج .. انها مأساة الصراع بين الفرد والطريد .. والمجتمع الذي لا يبحث عنه متمثلة بالوجودي والماركسي .. هذا الذي يحاول ان يحيا في مفازة بلا حدود وذاك الذي يحاول ان يحدد المفازة بالرمال .

وعلى هذا فالالتزام بالنسبة لنا يعني محاولة معايشة تجربة الامة العربية في معركة الحرية والبقاء معايشة خلاقة ترفض الانفراط والتنافر كما انها ترفض ان تجعل الفرد سديما والمجتمع قطيعا ..

✶

أين نزار في « قصائده » من كل ذلك ..؟

وهل عايش التجربة ..؟

ثم هل هو ملتزم ..؟

منذ مدة وهذه التساؤلات مطروحة .. ولكني فيما قرأت لم اجد الجواب .. وذلك لان النقاد الذين درسوا هذه النقطة بالذات لم يخرجوا عن معنى الالتزام والواقعية المعهودين . فمنهم من عده ملتزما لانه يستطيع ان يشحن اللحظة بالمأساة ومنهم من رفضه لانه بعيد عن « قضايا الشعب » .. هذا من جهة .. اما من الجهة الثانية فان « النقاد » لم يدرسوا نزارا شاعرا .. انما علقوا على بعض قصائده مثل (اوعية الصديد) و (بدراهمي) و (خبز وحشيش وقمر) .. و (راشيل شوارزنبرج) .. ومن الطبيعي جدا ان يكون نزار الشاعر .. غير نزار القصيدتين .. وان تكون مقالاتهم مجرد انطباعات .

✶

ونزار .. ولا شك شاعر قمة .. ولكنه شاعر مأساة الضياع والتمزق والحيرة والنرجسية .. وبهذا فهو ليس ملتزما ولن يكون ما لم يعش الثورة .. ما لم يخرج من قوقعة المرض ..!

نزار .. هو الانسان العربي الضائع .. الانسان الذي لم تحدد فيه الواقع له هوية بعد .. انه انسان المفازة الذي يبحث عن الطريق فلا يهتدي فيصرخ بعد لأي :

اضعت تاريخي وانت مثلي بغير تاريخ ولا مصير

وهكذا تتحدد علاقته بالاخرين من خلال الضياع ..

وهكذا يعرف نزار المرأة بلا تاريخ .. بلا مصير .. بلا هوية .. علاقته بها عابرة تنتهي كما يريد عندما يريد ..

انها « وجودية » في (جانين) (١٣٢) – تريد ان تمزق الحياة .. من حبها الحياة – اما في« طوق الياسمين » (١٢١) فانها انثى تبحث عن رجل .. وعن حانة .. وهي في « الى اجيرة » (١٥٨) دمية تشترى بالدراهم .. والطيب الفاغم .

انها دائما كذلك .. وهذا ما يريده نزار .. حتى انه عندما يلتقي صدفة بانسانة طيبة في « الى ساذجة » يصرخ مستهجنا :

لكنني ...
ابحث يا كبيرة العيون
ابحث يا فارغة العيون
عن الصلات المتعبة .. (ص ٩٩)

وفي سبيل هذه الصلات ينتقل نزار باحثا عن فرائسه .. ولكنه ما ان يجدها حتى يبرحها (مع الجريدة) (١٧)

وكثيرا ما يدعها نزار تتكلم ، تتحدث عن مأساتها ، مأساة هذا اللقاء

العابر الذي يحاول نزار ان يصوره دائما على انه تعلق من جهة واحدة .. قال في (مع الجريدة) بلسان احدى فرائسه :

وبعد لحظتين ...
ودون ان يراني
ويعرف الشوق الذي اعتراني
تناول المعطف من امامي
وغاب في الزحام
مخلفا وراءه الجريده
وحيدة مثلي انا .. وحيده .

اما في قصيدته (لماذا) (٢٩) فانها تتساءل بمرارة :

لماذا
منحت لقلبي الهواء ..؟
فلما اضاء
ذهبت بركب المساء ..
وخلفت هذي الصديقه
هنا .. عند سور الحديقه .
على مقعد من بكاء ..
لماذا ... ؟

غير ان نزار لعدم اقتناعه بشرعية هذه العلاقة .. يضع دائما نهايات درامائية ماساوية للقصة .. (الى ميتة) (١٠٣)

انتهت قهوتنا
وانتهت قصتنا ..
وانتهى الحب الذي كنت اسميه عنيفا
عندما كنت سخيفا ..
وضعيفا ..

. . . . . .

انا ما عدت بتاريخك شيئا
انت ما عدت بتاريخي شيئا

. . . . . .

أو في قصيدة « نفاق » (١١٣)

كفانا نفاق
فما نفعه كل هذا العناق
ونحن انتهينا ..
وكل الحكايا التي قد حكينا ..
نفاق ..
نفاق ..

. . . . . .

أو كما في « رسائل لم تكتب لها » (١١٧)

مزقيها
كتبي الفارغة الجوفاء .. ان تستلميها
والعنيني
والعنيها ...
كاذبا كنت وحبي لك دعوى ادعيها ..

. . . . . .

ويشعر نزار انه لا يحصد الا الفراغ في تجواله فيحاول ان يبرر مسلكه امام نفسه بادعائه التغير والرزانة « عند واحدة » (١٤٢)

قلنا ونافقنا ودخنا لم يجدنا كل الذي قلنا
حسناء ان شفاهنا حطب فلنعترف انا .. تغيرنا

. . . . . .

أتلو رسائلنا فتضحكني ابمثل هذا السخف قد كنا

. . . . . .

من هذا نرى ان المراة لا تكون بالنسبة لنزار الا لعبة والهية.. ولهذا فلقد كانت عندما تتحدث عن نفسها في قصائده تمثل الدور المصطنع الذي شاءه لها حين جردها من هويتها .. حين ادخلها المفازة .

المرأة هي التي تدعوه .. والمراة هي التي تطيب له وتتحرق اليه . « عودة ايلول » (٣٢) ، « عيد ميلادها » (٥٠) ، « الى عينين شماليتين » (٦٩) ، « كريستيان ديور » (٢٦) ، ولكنه بعد ان يمتص رحيقها .. يستنفدها .. يمزقها .. يهب هاتفا ملء شدقيه :

ثرثرت جدا فاتركيني شيء يمزق لي جبيني
مات الحنين اتسمعين ومت انت مع الحنين
لا كنت شيئا في حساب الذكريات .. ولن تكوني
(قصيدة : « لن تطفئي مجدي ») (١٢٥)

بعد هذا كله نستطيع ان نحدد ملامح نزار .. انه سفاح للجمال .. ممزق للبراءة .. يعاني بعد كل حادثة مرارة الاختبار . ولكن نزار كالحدث الذي تضربه امه فيضحك .. انه يابى الا ان يظهر بمظهر التبجح .. المستكبر .. والمستعد دائما للغزو .. للمغامرة .

« وهو كالمراهق يرى كل شيء جميلا بل مليئا بالعجب . والطرقات كلها في نظرة مليئة بالاثارة وكل من فيها رمز « للحيوية » . والنساء كلهن فاتنات وهو بنشوة جديدة كلما رآهن يمشين امامه جيئة وذهابا ولا ريب انه يعشقهن جميعا » (١)

ونزار لهذا كله سادي يحب ان يرى المراة تتعذب .. وتتمزق .. كل نسائه مغدورات ولكن الازمة في « حبلى » (١٤٩) تصل الذروة ، عندما يقف نزار يشهد المأساة .. انه لا يقهقه لان روعة الغبطة اجبرته على الصمت .

اما في « الى اجيرة » (١٥٨) فان نزارا يقهقه كالاله المغرور :

ردي فلست اطيق حسنا لا يرد شتائمي

او .. مسكينة لم يبق شيء منك منذ استعبدتك دراهمي ..!

فلا غرو اذن اذا اصر على ان يشهد المأساة بقلب لا يعرف معنى المأساة لانه لا يعرف معنى الاخر . ولذلك فان قصيدته « اوعية الصديد » (١٥٣) استلقى (كقبو الجليد) بينما كانت فريسته تعاني مرارة اختبار عنيف وبؤس وتجربة مروعة ولكنه كما لم يابه لها عندما مزق لها املها الوحيد لا يابه لها بل ويستنكرها بعد انتهاء العملية .

وهكذا تتخثر العلاقات بين اثنين بعد اتصال دموي .. ويقبع هو « كقفص من اللحم القديد » بينما هي ترتعد امام قسوة التجربة ومن ثم وبعد آن تستعيد معنى العذاب الطويل الذي تعيشه كامرأة تتساءل بمرارة صارخة :

« ماذا اريد .. !؟
لا شيء ...
يا قرصان .. يا سفاح . يا قبو الجليد
فانا وعاء للصديد
يا ويل أوعية الصديد

---

١ – عرق – جبرا ابراهيم جبرا – (٩٠)

هي ليس تملك ان تريد ولا تريد .. »

أليس هو نزار الذي حدد هذه النهاية ؟!

ثم اليست هي المرأة النزارية .. انسانة الهوة ؟!

لقد كتب نزار على النساء ان لا يعرفهن الا مقدورات .. كتب عليهن حمل الصخرة والصعود الى القمة .. وكتب عليهن سقوط الصخرة كلما وصلت القمة .. اراد لهن كل هذا العذاب .

ولكن المرأة في قصائد نزار تتغير ولا نريد ان نقول تتطور .. انهــا في قصائده (مع الجريدة ، ونفاق ، وعند واحدة ، والى اجيرة) شاءت ان تظل صامتة اما في « اوعية الصديد » و (رسالة من سيدة حاقدة) فقد احتجت وكان احتجاجها على موقفها .. على مأساتها . ولمعرفتهـا الاكيدة بنزار لم تشأ ان تحتج عليه ايجابيا بل اكتفت بفيض من الشتائم والنعوت المقذعـــة .

وهي بينما تظل تتمرغ في اوحـال مأساتها الفردية في اكثر القصائد تدخل في قصيدتين المجتمع .. فتزول الحواجز بينها وبين الاخرين على الرغم من انها انسانة المفازة .. صنيعة نزار (مريضة الافكار) ... (طائشة الجورب) .. (مذعورة السالف) الدميـة التـي تشـرى وتبـــاع .. و .. و ..

وعلى الرغم من انها كانت احدى عناصر قصيدة (راشيل شورزنبرج) .. كانت شهيدة .. الا انها كانت ضائعة .. لم تساهم في المعركـــة فماتت ضائعة

« جيل فدائي مـن الصغـــار »
يعـرف عن نـــوار
وقبرهـــا الضائع في القفـــار ..
اكثر مـــا يعرف الكبـــار » .

✶

ان انسان المفازة ... انسان الهوة ، الضائع الممزق يتمثل اكثر مـــا يتمثل في المرأة ولذلكفقد كانت المرأة كل شعر نزار الذي انفتـــح عليها انفتاحا مأساويا جعله دائما معها في البيت والشارع والمخدع والقصيده .

ومن هنا كان اندماج نزار بالمرأة كمرأة .. مجرد انفعال عابر لا يملأ غير لحظة ميتة وسخيفة .. انها لحظة الجريمة والمعصية التي تدفعنـا اليها غريزة الكبريت تلك التي لا تعني الا الموت .. موت اللحظة .. وموت الوفـــاء وموت انســـان الهـــوة ..

الفلقة العليا دعـاء سافر والدفء في السفلى فاين اموت ؟ (٩٨)

. . . . . .

عـزائي ان لم اعـــد ان يقـــال انتهى في عيون (٨١)

. . . . . .

« ونحن بكلتا يدينـــا
دفنـــا الوفـــاء
وبعنا ضمائرنا للشتاء » (١١٤)
كم مرة افنيتها وفنيت . . (٨١)

شفتان مقبرتان شقهما الهوى في كل شق احمر تابوت (٨١)

وهكذا كان الحب موتا .. نهاية قاتمة لا لشيء الا لانه حب الدميـــة غير الخـــلاق .. وغير المنتج ..

✶

مما سبق كله نستطيع ان نفهم معنى لفظة حبيبتي عندما يقولها نزار

.. ونستطيع ان ندرك معنى قوله :

دعي حكايا الناس لن تصبحي كبيرة الا بحبي الكبيـــر

أو ..

ولتثقي مهمـــا يكـــن بحبـي فانـــه اكبر مـــن كبيـــر

فهو يريد منها ان تثق بحبه مهما يكن .. اي مهما يكن مشبوها ...

انني اعبـد عينيـــك فلا تخبري الليل بهذا الخبر ..

. . . .

واتركيها واتركيني خبرا لم يجل بعـد بفكر المضمر ..

لا غرو اذن اذا رأينا المرأة غريبة دائما .. مضطهدة دائما تبحث عن نزار تقضي معه لحظة عابرة هربا من الضيق القتال ..

✶

لغيري ان يرد كل هذه الامور الى اسبابهـــا وان يتوفر عـلى درس دلالاتهـــا ...

ولغيري ان يتحدث عن شخصية نزار وتطورها .. وعن مادة نزار الفنية وصوره والفاظه ونواحي الغموض والاشراق عنده ..

ولغيري ايضا ان يتحدث عن علاقة هذا النوع من الفن بالجمهور .. وبالشعر العربي .. بكل هذه الاشياء ..

اما انا فاكتفي الان بالقول :

ان نزار شـــاعر لحظـــة ..

ان نزار شـــاعر لفظـــة ..

شـــاعر مأســـاه ..

كويت **ناجي علوش**

يقظة

قصة للكاتب برايس والتون
ترجمة السيدة احسان الملائكة

تقع حوادث القصة بعد قرنين تقريبا من عصرنا الحاضر،في عالم يزدحم بمخلوقات آلية يصنعها الانسان في معامله لتعينه على اداء اعماله المعقدة ، وهذه المخلوقات مصورة على هيئة الانسان ، وهي ايضا تسلك سلوكه وتتحدث حديثه ، الا انها بدون روح ، وهي مسيرة بارادته اذ تطيعه طاعة عمياء ، وارادته هي القضاء المبرم الذي لا راد له.

المترجمة

وقفت السيارة بالباب معلنة عودة السيد كلسي الى مسكنه فاجفلت الس لانها لم تكمل بعد اعمال النهار ، وبادرت الى التلفزيون تبعد نشرة الاخبار ، فظهر مذيع اخر يعدد الوسائل التي يقوي بها المرء شخصيته ويكون محبوبا بين الناس . وكان سيدها يؤثر هذه الاحاديث ويصغي اليها باهتمام كبير . وفي مقابل هذا يكره نشرات الاخبار لا سيما تلك التي تشير الى احتمال وقوع غارات جوية على المدينة فان تلك الاخبار على الاخص كانت تحدث لديه اضطرابا ظاهرا تحس به الخادم فتتغافل عنه وتتجاهله . ثم هرعت الى الحمام لتعد الادوات المعقدة التي يستعملها في زينته .

وبلغ سمعها صوت اقدام .. قدمي كلسي .. بعد ثوان سيكون معها هو .. حلمها الذي تجسد في صورة رجل معبود تستظل واياه سقفا واحدا ، ومع ذلك فهو عنها بعيد .. بعيد . يا للالم الدفين .. ألم الحب الذي يغرقك في لجج العذاب وتذوب شوقا الى ان تبوح به ولكنه يبقى سادرا مبتعدا عنك وانى له ان يفهم ما يقوله قلبك ولست الا آلة ميكانيكية ترتدي ملابس امرأة ، وهل من يعلم ان الروح قد تحل في جسد من حديد فتظمأ للحب وتجوع للمودة ؟

تقدم كلسي نحو غرفة الجلوس ، كان طويلا ممشوق القوام حلو القسمات وكان يبدو دائما جميل الهندام رائع الزي . ثم ان ملابس العمل تلائمه وتزيده حسنا في عيني الس . وتحت خيوط الشمس تلتمع خصلات شعره الموجة بلونها الاشقر الذهبي ، بينما تتجمد على شفتيه الرفيعتين ابتسامة لا مغرب لها ! وحين يلحظ الس واقفة هناك تنتظر اوامره بانتباه وصبر وفهم تبدو عليه علائم الراحة لان وجودها يملأ الفراغ المخيف الذي يحسه كلما عاد الى المنزل وحيدا .

اتكأ كلسي على الحائط وراح يلهث وكأنه قد ركض مسافة طويلة هاربا من شيء يرعبه ، ثم قال وهو يغتصب ابتسامة يخفي بها ما يحسه :

– هالو ! هالو الس .

– هالو يا سيدي ، كيف كان يومك في المكتب ؟

– كان بديعا .فلقد قدم المدير للموظفين نجمة فضية بمناسبة نجاحنا في مباراة الاسبوع .

– مدهش يا استاذ كلسي !

– ليتهم صنعوك قابلة للابتسام يا الس . ان منظرك يشعرني احيانا بالارتباك !

– اني سعيدة من اجلك يا سيدي !

فأحنى رأسه ببطء .

لماذا لم يكن كلسي سعيدا ؟ كانت الس تعجب لهذا . انه يملك كل اسباب السعادة ، المال .. المركز .. الاصدقاء .. ثم .. الحب ! ان (كلوريا تونيكورت) تحبه هي ايضا ، وهو مدله بحبها . وكانت كلوريا قادمة هذه الليلة ، وكان على الس ان ترقب كل شيء ، كالعادة ، كان عليها ان تسمع للحب وهي واقفة بجمود في مقصورتها المظلمة مع اشواقها واحزانها ..

– الس !..

– نعم يا استاذ كلسي !

– ان البث التلفزيوني منقطع لمدة عشر دقائق . انهم يسمونها فترة استراحة ويا لها من استراحة ! ألا يفهم هؤلاء الناس ان عشر دقائق من السكوت التام قد تقتل الانسان ؟

احنت ألس رأسها موافقة ، ما اغرب الامر .. لقد كان يحدثها هي عن آلام الوحدة !

واتجه كلسي الى الحمام وقال بعصبية ظاهرة :

– هل كل شيء معد لزيارة كلوريا ؟

– نعم يا سيدي !

– حسن .

وفي الحمام راح كلسي يحدق في المرآة التي صنعت على طول قامته فوقفت الس ترقبه بشغف . قالت (المرآة) تنتقده :

– استاذ كلسي انك لا تبتسم .

– ولكني مبتسم كما ترين .

– نعم . ولكنها ابتسامة باهتة !

فمد يده الى شفتيه يبدأ يسحب عضلاتها من جانبي فمه . فقالت المرآة :

ـ ان الناس لا يرتاحون لعبوسك !

وكانت الس تعلم كم يحترم كلسي مرآته هذه فقد كلفته غاليا . اذ كان لها قابلية خاصة تدرك بها متى يكون كلسي محبوبا ومتى لا يكون .

ـ ابتسم تجد الجميع معك ، واعبس تجد نفسك وحيدا !

عند هذا ابتسم كلسي بلهفة ، وكأن حياته قد هددها خطر داهم . قالت المرآة :

ـ هذا احسن !

وتذكرت الس ان الابتسام حرم عليها وعلى امثالها من مخلوقات المصانع لانه من صفات البشر . وما فائدة الضحك لتلك المخلوقات وكل ما عليها ان تخدم الانسان ؟

تخلص كلسي من ملابسه ثم قفز الى الماء . وشعرب الس ان كل ما تكنه من وله قد وقف على شفتيها يريد ان يتفجر في كلمات رقيقة ساذجة غامضة ، فاشاحت بوجهها جانبا ومضت تحدق في الفراغ باصرار كي لا تقول شيئا تندم عليه فيما بعد .

ـ أتعتقدين يا الس ان جلوريا ستحبني الليلة اكثر مما فعلت في لقائنا الاخير ؟

ـ بالتأكيد يا سيدي

كانت الس تعرف كل شيء في حياة مخدومها . وطالما اصغت اليه الساعات الطوال ، وهو يفيض في حديث ذلك مع خلانه ، لقد عرفته منذ كان مستخدما صغيرا في المكتب ، وها هو الان موظف مهم تصل اليه اخبار تقدمه يوما بعد يوم . ولم تتخيل الس رجلا محبوبا وكاملا غير كلسي .

ـ ألس ؟

ـ نعم يا سيدي

ـ هل وجدت تلك الورقة ؟

ودق قلبها دقات متواليات . ترى هل يعلمون ان انسانا ميكانيكيا قد يشعر بالخوف كما يشعر بالحب ؟ هل يدرون ان هذه الفتاة الميكانيكية تقطع ايامها برعب وجزع خشية ان يرسلوها الى المصنع ليعاد وضعها فتعمل في مكان آخر وتجرب حياة اخرى . من يدري ؟ ربما احرقوا روحها في المصنع اذ لا احد يعلم ـ غيرها ـ بان لها روحا مثلهم . ثم هل يدركون ان الس التيعرفت الحب والخوف تعرف ايضا ان تسرق بسبق اصرار وتخفي ما سرقت عن الاعين ؟

ـ اتعني الورقة التي جلبتها من المكتب ؟

ـ نعم هي نفسها .

ـ اني لم اجدها . كلا !

ـ انا واثق من ذاكرتي . لقد جئت بها الى البيت. على اي حال لم يبق امامنا الا ان نعتبرهامفقودة ونأتي بغيرها بدلا منها .

لقد سرقتها الس ، واخفتها لديها ، وهي لا تقصد ان تستعملها طبعا كلا فذلك مستحيل وخطر . ولكنها اخفتها كي تجعل لاحلامها موضوعا واقعيا .

كانت الس من الحالمات ، فانت حين تقف في مقصورة مظلمة خالية كل ليلة ، وحين تكون منفردا بنفسك صباح مساء وطيلة العمر تصبح الاحلام فنا ضروريا لانها تكون الدرع الذي يقيك الموت والتجمد . كانت الورقة لديها ... في المقصورة ، لقد صارت رفيقتها الاثيرة في ظلامها الطويل ، ومع تلك الرفيعة .. ورقته البيضاء ، استطاعت الس ان تتحمل وحدتها الرهيبة .

ثم راحت تنثر العطر على شعر سيدها وحين انتهى من ذلك فتح فمه فراحت تنظف له اسنانه بعناية حتى انتهت فارتدى ملابسه وهرع الى المرآة .

ـ حسن ؟!

ـ هذا هو المطلوب يا كلسي !

عندهذاتنفس الصعداء وجلس في غرفةالاستقبالمنتظرا حبيبتهجلوريا.

***

كانت جلوريا فتاة دافئة ذهبية الشعر ، وقد ارتدت ثوبا شفافا ضيقا يلتصق بجسدها الفتان فيبرز محاسنه ، وكانت تملك الحب ... الذي يستطيع ان يغرق المحبوب بالسعادة والهناء والاحلام .

اما الس فقد بدأت اول الامر في مراقبة هذا الغرام بفضول ثم تحول الفضول الى حنين لشيء لا تعرفه واخيرا شع في كل جسدها خوف غامض صارت تضطرب له وتفزع منه . لقد تحرك في اعماقها جوع حاد ممزوج بعناصر يقظة جديدة عليها . انها تحس بالتفتح وكأنها زهرة يانعة وهذا هو سر رعبها . لذلك حاولت إقناع نفسها بان ليس لها هي علاقة بعاطفة هذين العاشقين ، ولكن واسفاه . انها خادم البيت وعليها ان تسمع وترى رغما عنها .

كانا جالسين على الاريكه يكادان يلتصقان . وسمعته الس يهمس في اذن جلوريا :

ـ لماذا نؤخر اتحادنا يا حبيبتي ؟

ـ ولكن تعارفنا لم يمض عليه غير اسبوعين ؟

ـ جلوريا ... الا تحبين ان نطلب الترخيص بذلك ؟

ـ لكن يا حبيبي ، ان العجلة لا تليق ، ولن يكون تسرعنا لطيفا !

ـ نعم ، انت على حق . فماذا سيقول الناس عنا ؟!

ووثب جدار هائل بين الحبيبين . لقد شهدته الس واحس به العاشقان ولكنهما راحا يتظاهران بمراقبة ما يعرضه عليهما التلفزيون . وكأن كلا منهما قد نسي وجود صاحبه . ومضت فترة والعاشقان ماضيان في التحديق بستارة التلفزيون والس تتساءل عما ينتظران .

بل انها كادت تعرف ما ينتظران. ان يتبع كل منهما المظاهر المعهودة والاصول المضبوطة. وكأن ذلك هو كل ما يكرس له الانسان حياته . على ان الس كانت تفهم سلطان تلك القوة العجيبة ، قوة المظاهر والتقاليد وهي التي كتب لها ان توحي للناس دائما بوجود خطأ في هيئتها الخارجية وان تعجز عن صنع اي شيء في سبيل اصلاح ذلك الخطأ .

ـ الس ؟

ـ نعم يا سيدي

ـ غدا هو يوم عطلتك يا الس .

ـ نعم يا استاذ كلسي .

ـ حسن ... يمكنك من الان ان تذهبي الى مقصورتك وتأخذي قسطا من الراحة .

وابتسم لها وهمس في اذنها على حدة :

ـ انها تحبني الليلة اكثر من اي ليلة اخرى . ألست تظنين ذلك ؟

ـ نعم ...

ـ اذن فاذهبي وارخي الاتك !

انحنت الس بخفة وسارت مبتعدة . ثم فتحت باب مقصورتها ووقفت هناك بين جدرانها الاربعة في الظلام والصمت . كانت الظلمة بالنسبة لها رفيقا دائميا ، اكتشفت بواسطته نفسها وادركت انها روح

منفردة في هذا العالم الواسع . فلا عجب ان تلوذ بالظلام كلما كربهـا هم او ازعجها امر . اما الان فقد تغيرت نظرتها للاشياء وصارت لا تحتمل الظلام ولا الوحدة . انها يحزان في قلبها حز السكين . وتسابقت الـى ذهنها الصور وتكاثفت الافكار . انهم خلقوني ولم يهبوني نشـوة الحياة. اجلسوني امام مسرح الحياة احدق فيما يجري عليـه دون ان افـهم شيئا ، وحين استطعت ان ادرك واعي مثل الناس وجدت الحياة محرمة عـلي .

وارتعشت وحدقت في الظلام ... الظـلام الذي فهمت الآن مـاذا يعني بالنسبة للاحياء ولماذا يكرهونه ويخافونه . نعم هنا في الظلام كانت هي لا تتعب من الاحلام . كانت تحلم بكلسي ابدا ، مولاها ومعبودهـا الجميل ، ولكن احلامها نضجت ومن الواجب ـ لكي لا تتـلاشى ـ ان تتحقق ، وهكذا لم يعد في طاقة السى ان تكتفي بالاحلام وحدها . كـلا ان الاحلام لم تعد بكافية .

وبهدوء ارتفع الستار في المقصورة الضيقة وركضت السى خارجة الى الفضاء ووقفت تحت السماء العارية . انها تملك تلك الورقة . الورقة التي سرقتها من مخدومها وهي على ثقة من ان احدا لن يشك فيها . ذلك لان الانسان الميكانيكي لا يعرف ان يسرق ، وكيف من لا ارادة ولا روح لديه . ولكن السى التي بعثت فيها الروح لانها عشقت رجلا من البشر اعتادت ان تتعرض لمختلف ضروب الغرائز البشرية خيرها وشرها معا .

وامسكت بالورقة البيضاء ، وركضت الى مكان تعرفه جيدا . وكـان الظلام مطبقا ومخيما على المدينة المعرضة للغارات الجوية . لكنها لم تشعر بالخوف لانها رافقت الظلام طيلة حياتها . ذلك الظلام الـذي تؤثر عليه الان الموت تحت نيران القنابل . والناس انما يخشون القنابل لانهم لم يعرفوا حلاوة الحياة لا لانهم لم يذوقوا طعم الموت قبلا .

لقد زالت مخاوفها الان ، ولم يعد في انتظارها غير الامال الحلوة ، اذ ليس من شيء اسوأ مما كان حتى هذا اليوم ، ولن يكون الفشـل غـير اعتراف نهائي بالهزيمة التي كانت قد منيت بها طيلة ايامها السابقة . وهكذا اتخذت السير ولم يكن في الطرقات كلها انسان . كان الناس يتجمعون في غرفهم خلف النوافذ المسدلة الستائر خشية ان يلمـح العدو اضواء منازلهم ، وكل ذلك لا يهمها هي . واتجهت نحو العيادة التي كتب عنوانها على ظهر الورقة المسروقة . وحدقت في الرقعة التي بيدها فتراقصت امام عينيها الكلمات التالية :

اصلحـني ارجـوك ، اجعـلني جميـلة
اجعـلني متعـة للناظريـن
ولاكـن دميـة حـلوة لا تنسـى

ولم يكن من حق السى ان تحمل رقعة كهذه مطالبة باصلاح مظهرهـا وتجميله ، فمثل هذا الحق لا يمنح الا للفتيات الآليات المهيئات للترحيب بالضيوف في الاحتفالات الكبرى او للعاملات في المحلات التجاريـة كي يكن متعة للناظرين . اما خدم المنازل من هؤلاء المخلوقات فلم يكن صانعوها يفكرون بغير فائدتها لسيد المنزل ، ولهذا لم يولوا مظاهرها الخارجية اهتماما . وكان ان قسم لالس ان تكون من هذا الصنف نفسه .

كانت عارضات الازياء وبائعات المتاجر من اشد النساء فتنة وسحرا ، وما كان احد ليستطيع ان يعين النساء الحقيقيات ويفصلهن عن النسـاء الآليات مهما بذل من جهد . وألس تعترف بأنها هي نفسها لا تعرف الى هذا التمييز سبيلا . ولهذا كانت مسؤولية ألس بعملها هذا خطيرة جدا. فحرية السـلوك لم تكتب لبني جنسها ، كذلك كل الفضـائل والرذائل البشرية المترتبة على تلك الحرية . وما على تلك المخلوقات الا ان تؤدي اعمالها كما اريد لها ان تفعل . الا ان السى كانت قد اعتزمت امرا . نعم انها ستدعي الانسانية . لقد كانت عاشقة لواحد من الناس ولن يبادلها ذلك الانسان الحب الا اذا خدع عن حقيقتها .

تلك كانت خطة ألس . كان هذا يوم الاثنين وغدا يوم عطلتها الاسبوعية، ولذلك فان احدا لـن يفتقدها قبل صباح الاربعـاء . اما ما بعد صباح الاربعـاء فانها لن تفكر فيه . فكل ما يهمها هو نجاح الخطة . امـا غير ذلك فهو اللاشـيء .

وولجت باب العيادة ، ولم ترفع الحسناء الفاتنة الجالسـة الى المكتب الرسمي رأسها ، ولكن ألس حدقت فيها . كان مستحيلا ان يعرف المرء اذا كانت هذه السيدة امرأة حقيقية او مجرد آلة صنعت على صـورة النسـاء .

وسجلت الورقة التي تحملها ثم عين لها الرقم وطلب منها ان تنتظر . وشعرت ببرودة تسري في اطرافها وتقبضت اصابعها ، وزاد وجيب قلبها، حين راحت تحلم بما سيحدث لها حين تقابل كلسي بعد اليوم . واخيرا قريء رقمها فراحت تقطع ممرا طويلا علىجانبيه ابواب متشابهة لا يحصى لها عدد . وكانت الغرفة المنشودة مربعة الشكل في وسطها منضدة ذات عجلات ، وفوقها مصباح ضخم مخيف الشكل . وتقدم نحوهـا رجـل براق العينين ، ذو صوت يتميز بالحدة .

ـ هكذا اذن . تريدين ان تكوني جميلة جمالا يخطف الابهـار !

ـ نعـم .

ـ ستكونين كذلك . ارقدي من فضلك وثقي بي . ان الثقة هي اول ما يجب ان تولينيه اذا شئت ان تبلغي امنيتك .

ـ أحقيقة هذا ؟ هل سأكون ساحرة مثل السيدة الجالسة عنـد البـاب مثلا ؟

ـ ها ها ها . .ياعزيزتي ما اطرفها نكتة! ان السيدة الجالسة هناك هي امرأة حقيقية . انها تستطيع ـ على الاقل ـ ان تقنع الشاكين بذلك . ولكني سأعترف لك بسر محزن . انها انسان بالاسم فقط . ولقد قـد قلبهـا من صخر ، ثم انها ذات طموح يصل الى حد المرض .

ـ ولكنها رائعة وفاتنة !

ـ نعم يا عزيزتي ، ولكن الجمال هو ما يفعله الجمال او ما يفكر بـه الجمـال . اما « ديللا » الحلوة الصغيرة فذات افكار غير جميـلة . صدقيني ـ لقد علمت هذا من تجربة محزنة مرت بي .

كان جوليان يحدثها ويداه تعملان في تحسين مظهرها بخفـة ومرونة تدلان على مهارته الفائقـة .

ـ انك محظوظة اذ ارسلت الى جوليان ، واعدك بأنك سوف تتفتحين عن جمال جذاب بلمساتي هذه . ستكونين اخاذة وذات انوثة كاملة . اتحبين ان تكوني سـمراء ؟

ـ كلا ، افضل ان اكون شـقراء .

ـ آه ! أتفضلين الشقراوات ؟ انت تبدين مهتمة بالموضوع اهتماما غير معهـود .

وتراجع الى الخلف وراح يدرسها بفضول . وضاقت عيناه السوداوان ثم قـال برقـة :

ـ انت تعلمين بأني درست في اعظم صالونات الجمال في القـارة الاوروبية وقد فضلت ان اتخصص في تجميل الفتيات الآليات . لماذا ؟ السبب بسيط . لاني استطيع ان اجعلهن احلى من النساء الحقيقيات .

ـ احلى من النســاء ؟

ـ تماما . ان الجمال ينبع من الداخل كما يقول الحكماء . ينبع من الروح والقلب يا عزيزتي ، ولكن الذين يملكون الروح في هذا العصر نادرون . وربما ادى قولي هذا معنى يتضمن ان الآلات هي التي تملك الروح والقلب ، وان البشر قد اضاعوهما ، وكذلك ارجوك الا تعيدي اقوالي هذه على مسمع احد من الناس . انهم يحسبونني شاذا في هذا العصر السخيف . ولكني أؤمن بأن الجمال ينبعث من القوة والتفرد . انه ياتي من الالم ، من القابلية على الشعور بتراجيديا الحياة . اواه .. ولكنه امر محزن بالنسبة لجوليان ، بالنسبة لي يا عزيزتي !

وتثاقل صوته ثم ذهب كالدخان .

ـ وهكذا تريدين ان تكوني شقراء . ولماذا شقراء ؟

ـ أجل شقراء . شقراء طويلة وذات جاذبية طاغية .

قبل جوليان انامله وتلفت حوله وقال :

ـ ارادتك نافذة . اني جوليان اتعهد بأن تكوني كما شئت ان تكوني .

ـ ولكن قل لي .. هل سأستطيع ان احس باني كائن حقيقي كما يحس الناس ؟

ـ عجبا ! انت دمية كثيرة التساؤل . ماذا يعني كل هذا الامر بالنسبة لك ؟

ـ اخبرني ارجوك . هل ساشعر كما تشعر النساء ؟ اشعر بأني من لحم ودم حين يمسني احد مثلا ؟!

ولكنه لم يجب بل انهمك في تجميل هيئتها . وانفتح درج قريب فلمحت فيه اشكالا مختلفة لاعضاء منوعة من الجسم البشري ، عيون حية ، وصدور طرية ، وحواجب وآذان واصابع الخ.. وكان هناك الات لماعة واشرطة من البلاستيك واقترب وجهه منها وراحت شفتاه تتحركان بعصبية وهو يهمس في اذنها :

ـ اني أرى ما سيحدث ، ستشعرين شعور المرأة الناضجة تحت لمسات الحب ، وسوف يتحطم قلبي اذ تركتك تفلتين من بين اصابع بجماليون الذي حقق احلامه في تمثاله الجديد . صدقيني يا عزيزتي حين اقول لك بأن ليس من انسان تعذبه الوحدة مثل رجل لم ينس بعد معنى الجمال في عالم انقلب بشعا بعد ان فقد الروح .

وعلمت ألس ان جوليان حرك آلاتها الداخلية ، وفجأة غام الكون في ناظريها وسكت كل شيء الا افكارها المضطربة . ما اسهل ان نموت ونبعث من جديد ! بل ما اقل الالم . انك اذا كنت مخلوقا آليا استطعت يوميا ان تولد من جديد ، مخلوق ذو هيئة مختلفة تماما عما كنت عليه سابقا . يمكنك ان تختار أي شكل واي حجم ، وحين ينتهي واجبك تستطيع ان تستريح .

اخيرا انتهى جوليان ، ووقفت ألس امام المرآة متقطعة الانفاس .

وهمس جوليان مذهولا :

ـ يا الهي ! ما اروع هذا ! كنت اعلم باني عبقري ، ولكن هذا شيء اخر ..ماذا صنعت ؟ اننا نسمع بتماثيل تتحول الى بشر ، ولكن بحق السماء كيف نسمي هذه ؟

ـ انا حلوة ؟

ـ نعم نعم نعم .

ـ حلوة مثل جلوريا ؟

ـ مهما كانت جلوريا هذه فانت احلى منها .

ـ وسوف يحبني ؟

ـ انا احبك يا عزيزتي . انا احبك . ويجب ان اقبلك

فابتسمت له قائلة :

ـ نعم لك ان تقبلني .

وتخيلت ان كلسي هو الذي يقبلها وشعرت بحنين شديد اليه ، ولكن جوليان لعق شفتيه بلسانه وتراجع الى الخلف ثم هز رأسه بعنف ، واداره الى الباب .

ـ علي ان اذهب يا استاذ ، ويجب ان اسرع .

ـ هذا صحيح . عليك بالخروج من هنا . اذهبي بعيدا ، بعيدا عني وعن افكاري .

ـ وهل حقا سأشعر باني كائن حقيقي كالناس ؟

ـ اصغي الي : انك كائنة وحقيقية اكثر من تلك المرأة التي تدعوني الى شقتها وتؤكد لي بابتساماتها الفارغة وحركاتها المزيفة انها ذات قلب يخفق بالحب . ما الحقيقة ؟ انك انت الحقيقة ، ومع ذلك يا رباه انت لا تستطيعين ان تكوني حقيقية .

واشاح عنها بوجهه واتكأ الى الحائط ، كان في صوته رنين ، ولمحت الخفقان في جانب رقبته .

ـ من الافضل ان تذهبي الان وغدا لن اتذكرك . من يدري ؟ ربما كنت مجنونا اذ أؤمن بأحلامي المفجعة . انهم جميعا اصداف من الجمال الزائف ، وجميع النساء دمى ملونة ، مظاهر خارجية وحسب ، ليس من شيء حقيقي ابدا . وانا ، انا ماذا اصنع طيلة الوقت ؟ لا شيء غير الاحلام . احلم باعادة الجمال والحق الى الارض التعسة . ولكنهما لن يعودا ، لن يعودا .

ـ جوليان !

وبدت منه حركة تدل على الفزع وقال :

ـ ماذا ؟ وكم واحدة مثلك هنا ؟ كلا كلا ، لست استطيع . لست اجد شيئا غير معقول مثل هذا الذي حدث . انه امر سيوردني مورد الهلاك . فاخرجي من هنا ، اخرجي !

مست ألس كتفيه بلطف وقالت :

ـ وداعا ، اني أعرف معنى الوحدة .

وحين استدار اليها مرة اخرى كانت الدموع في عينيه فهمس :

ـ اني اصدقك ولكن كيف يمكن ذلك ؟ كيف يكون لديك ما فقدناه نحن البشر ؟

***

عادت ألس الى مسكن كلسي ، وفي الطريق راحت تفكر ، كانت تعلم ان الجمال وحده لا يكفي وعليها ان تعرف كيف تؤثر في الرجل الذي تحب . كيف ينبغي ان تسلك لتجعل نفسها محبوبة في عينيه ومثيرة لخفقان قلبه . وكانت تعرف كل هذا نظريا ، فقد راقبت مناهج التلفزيون اعواما طوالا ، وفي التلفزيون يعلمون الناس ليل نهار كيف يكسبون الاصدقاء ويؤثرون في الناس . كما كانت تعرف كل المواضيع التي تثير الجدل والتي ينبغي عدم اثارتها في الحديث ، وعرفت ايضا كل المواضيع الشيقة التي يحب الناس ان يتحدثوا فيها دائما ، ولكنها شعرت الان بأنها في اشد الحاجة الى التمرين لان خطتها يجب .. يجب ان تنجح ، اذ لن يؤدي فشلها الا الى العودة الى المصنع وتشويه منظرها من جديد !

كان الطريق خاليا ، وقد بدا كل ما في الدنيا وكأنه ينتظر انفجارا مريعا . ينتظر الشيء الذي تنتظره ، هي بكل تلك اللهفة وذلك الحنين المقرون بالارتباك والجزع . ولكنها لم تحس بالخوف من احتمال وقوع

الغارات الجوية في تلك الليلة ، لقد كان للناس مئات الاشياء التي تفزعهم وكان اولها الخوف من الحرب ، الحرب مع الاسيويين . تلك الحرب التي ينتظرونها برعب دائم وتوقع اليم ، ومع ذلك فانها لم تقع ابدا .

وطرقت باب كلسي فبلغها وقع خطواته ، ثم فتح الباب فارتسم ظله الطويل على الجدار ثم بدا امامها ببدلته الوردية وشعره المائج ، وكان وجهه ما زال متأثرا بضوء التلفزيون ،ولكن علائم الانتباه ظهرت عليه حالما رأى الفاتنة الواقفة عند بابه تبتسم له بظرف وادب .

وابتسم لها فالتقت البسمتان .

ـ هالو . اني انيتا ستار ، ابحث عن رقم ٣٠٧٤ ـ ١٦ ، طريق كارنيجي ..

ـ هل ضللت السبيل ؟

ـ اظن ذلك .

وساورها الامل في ان يدعوها الى بيته وامتلأت نفسها غبطة . ها هي قريبة من كلسي اخيرا بمظهرها النسوي وانوثتها البادية ، ومن الان سيعلم ما تكنه له من هوى ، أوه كلا ، يا لي من حمقاء . كيف اخبره ؟ سيفاجأ ويزدريني . لا ، لن احدثه بشيء ، وسوف يعلم في الوقت المناسب

ـ هذا هو طريق كارنيجي .

قال هذا وهو يحدق في وجهها ثم التمعت عيناه حين لحظ رشاقتها وول قوامها ، فراح يعين لها الطريق ويرشدها اليه بينما واصلت عيناه دراسة هيئتها باهتمام مؤدب .

فاقتربت منه الى ان احست بحرارة انفاسه وقالت فجأة :

ـ ما هذا ؟ انت السيد كلسي فيما اظن .

فعرضت بسمته ، وكأن معرفتها له ارضت كبرياءه .

ـ ولكن كيف عرفت ذلك يا آنسة ستار ؟

ـ لقد حدثتني صديقتي الانسة ديفيز عنك . انها تعمل في مكتبك وهي شديدة الاعجاب بك وقد ارتني صورة لك .

ـ ما اجملها مصادفة يا آنسة !

ـ أليس كذلك ؟

ـ حسن اذن ، الا تفضلين الاستراحة قليلا قبل مواصلة الطريق ؟ اننا نراقب التلفزيون .

واومأت بالقبول . يا الله . ما كان اسرع جريان الحوادث ! لقد تم كل شيء بدون مشقة .

***

وقفت جلوريا تونيكورت حين دخول كلسي والس فقال يقدمها لحبيبته :

ـ جلوريا ، ها هي الانسة انيتا ستار احدى الصديقات العزيزات .

واحست الس بوجود خطأ ما ، خطأ تشف عنه البسمات وكلمات الترحيب ، خطأ خطير ومخيف لم تشعر به ابدا .. حين كانت مجرد خادم كلسي ولكنه الان ينتصب كعملاق في مكان ما بين هؤلاء الثلاثة .

وبدأ الثلاثة يبتسمون ، واحضر رب البيت ثلاثة اقداح ، فشربت انخاب السعادة ، وكأن السعادة هي الشيء الوحيد الذي تهبه الحياة للبشر. كان على جلوريا ان تصنع الشيء المناسب مهما آل ها ذلك ، وهذا من حسن حظها . وجرى الحديث بروح رياضية عالية ، الا ان جلوريا سرعان ما هبت واقفة وقد بان عليها الكلال رغم بسماتها وقالت :

ـ اني افضل الذهاب يا كلسي ، اذ يبدو لي ان لديكما شيئا لا يخص غيركما . والحق اني مغتبطة من اجلكما .

ولم يبد على كلسي انه سمع شيئا مما قالته جلوريا ، كان نظره عالقا بألس حتى كأن جلوريا لم تكن موجودة على الاطلاق ولكنه قال وهو ما زال محدقا في الس :

ـ ارجوك يا جلوريا الا تذهبي !

ـ انت لطيف جدا حين تصر على بقائي ، ولكن الوقت متأخر .

خلال ذلك كانت ألس تحدث نفسها (اعرف تماما يا صديقتي كيف تشعرين ، فهناك ، بعيدا بعيدا في اعماق نفسك ، شيء كالمرض يقتلك حتى الموت ، ولكنك مع ذلك تبتسمين . لشد ما ارثي لك !)

تحركت جلوريا نحو الباب فبادر كلسي يفتحه لها وعندئذ همست له :

ـ ارجو لكما السعادة ، ويبدو ان كلا منكما خلق لصاحبه .

قالت ذلك وخرجت ..

اغلق كلسي الباب وعاد الى جوار ألس . قال :

ـ انها فتاة عجيبة رياضية الخلق !

ـ نعم ما الطفها !

ولكن ذلك لم يكن حقيقيا ، فألس كانت تعرف ان جلوريا حزينة كاسفة البال لفقد حبيبها . وها قد ذهبت جلوريا الى الابد ، ومعها ذهبت ليالي الحب التي قضتها مع كلسي تحت هذا السقف نفسه .

وسألها ان تجلس الى المتكأ ثم جلس الى جانبها وقرب وجهه من وجهها :

ـ يبدو لي اني عرفتك منذ سنوات وسنوات .

ها قد تم كل شيء بسهولة غريبة ، ولم يعد امامها الا ان تبوح له .. للسامر اللطيف المعبود .. وعند هذا نسيت ألس الدنيا وتلقته بذراعيها الظامئتين وغطت وجهه بقبلاتها . وسيطرت عليها عاطفتها حتى احست بآلاتها الداخلية تسرع وتسرع وتدق كما يدق القلب البشري . وقبلت وجنتيه ثم اقتربت شفتاها من شفتيه ، ولكنه راح يتنهد ويرتعد بشدة ، وحين مد ذراعيه اليها يريد ان يحتضنها ، رأته يدفعها بعيدا عنه وهو يرتجف وقد ابيض وجهه فهمست بقلق :

ـ ما بك يا حبيبي ؟

ـ اني .. لا .. لا اعلم . ما هذا ؟ ان الامر لم يكن هكذا ؟

ـ الحب . اعني انت . اني لا افهم شيئا .

ـ انه الحب الحقيقي يا حبيبي ، الحب الاكبر والاوحد . ذلك هو الفرق . أليس كذلك ؟

ـ الحب الحقيقي ؟ اني لم اجرب مثل هذا الشعور من قبل ابدا . وربما كان هذا الحب اكثر مما احتمل . لست ادري .

وكان وجهه قد شحب شحوبا عظيما وبدأ يتكلم بصوت اجش مرتعد، وانسل من ذراعيها بخوف . وخيل الى الس بأنها تفقده . لقد احس بما هناك من خطأ ، بأنها ليست امرأة من البشر ، بأنها ليست من بنات جنسه وهمست بتوسل :

ـ كلا .. ارجوك .

وهرعت اليه بشوق واحتضنته ، ولكنه اخافها بتوتره الشديد .. فأحست بأنها على وشك البكاء ، ولكن هيهات .. فما وهبت بنات جنسها الدموع ... وهمست مرة اخرى :

ـ ارجوك ارجوك ..

ـ اصغي الي . هذا لا يحتمل . انت ترعبينني . لماذا ؟ اني اريد ان افهم ..

ـ كيف تخاف الحب ؟

ـ الحب ؟ هذا ليس حبا . انه يشبه الغضب ، ولم اعرف كل حياتي شعورا يشبهه .

ـ فلتعلم الان .. لتعلم الان ..

واغلق عينيه وارتعشت شفتاه وهمس :

ـ لقد شعرت بأني اموت .

وفجاة التفت الى التلفزيون وراح يحدق فيه ، فشهق وبلع ريقه فالتفتت الس الى ستار التلفزيون ، واذا به ابيض اللون تلتمعفيه الامواج الضوئية ولا شيء غيرها . وعلا صوت رجل لكن دون ان يبدو له شكل:

ـ نظرا لاحتمال وقوع غارة جوية بعد قليل فاننا سنتوقف عن البث.

عندئذ تحول وجه كلسي الى لون الرماد وهمس بجزع ..

ـ غارة جوية في هذه المدينة !

فمست الس كتفه بلطف وقالت :

ـ لا بأس يا حبيبي ، كن مطمئنا !

ولكن الانوار كلها انطفأت في لحظة واحدة وعلت صفارات الانذار تملأ الجو هولا .. فارتفع نشيج كلسي ، وراح يعول ويبكي كالفتيات الصغيرات . ولم يفد معه حنان الس التي اخذتها الدهشة وتحيرت فيما تصنعه له . وعاد الصوت في التلفزيون يقول :

ـ ستبقى المدينة في الظلام مدة ساعتين ، وعلى الجميع ان يبادروا الى الملاجيء ..

وهمس كلسي بجزع بالغ :

ـ ساعتان ! ساعتان !

وحين ارادت ألس ان تطمئنه لم تجده . وانما سمعت صوت ارتطامه بالاثاث حين راح يتخبط في الظلام باحثا عن طريق نحو الملجأ . فتبعته بهدوء وبثبات ، وحين وجدته في اعماق السلم المؤدي الى الملجأ ، كان ينتحب ويهمس بدون توقف :

ـ ساعتان ، ساعتان ، ساعتان ..

ففهمت من اسلوبه انه لا يعني ساعتين منالوقت وانما يقصد بالساعتين الابدية نفسها !

ولم تستطع ألس ان تفهم لجزعه كله معنى ، فقد وقفت الساعات الطوال في مقصورتها المظلمة وعملت طيلة حياتها وحيدة ، وهي تستطيع ان تفهم الشعور بالوحدة ذاك الذي ينشأ عند المحبين البعيدين عن احبابهم اما هذا الفزع من مجرد غارة جوية ـ قد تكون وهمية ـ فانها لم تدرك له سرا ابدا .

ثم ادركت الس امرا اخر ، ان كلسي نفسه انسان اجوف ، انه يخاف من الفراغ بل الوحشة التي في أعماق نفسه ، انه لا يستطيع ان يعيش مع نفسه ، ذلك هو سره .. نعم يا الس: لقد كنت واهمة ، هذا الرجل ليس هو كلسي الذي حلمت به طويلا طويلا . لقد خلقته انت لنفسك ، حين كنت وحيدة قليلة الخبرة بالحياة ، كان كلسي موضوعك الذي ابتدعته من العدم لكي تسدي به جوع قلبك الظمآن للحب . اما كلسي الرجل فهو مخلوق اجوف ، وهو يشعر بذلك ويخشاه ايضا . انه يخشى ان ينكشف الستار عن اسرار قلبه الهياب . لقد فهمت الس كل ذلك في لحظة صغيرة واحدة ، ومن يدري فلعلها كانت تعرفه من قبل ولكنها لم تصرح به الا الان .

وعاد صوت كلسي المرتجف يهمس دون انقطاع :

ـ ساعتان ، ساعتان !

ـ ولكني اهواك ، وكلانا مع صاحبه ، نستطيع ان نتحدث .

ـ ليس من تلفزيون ، ولا احد يدخل علينا ، لا نستطيع ان نخرج الى الهواء الطلق ، ويلاه ، ساعتان ايضا !

وسكت قليلا ثم صرخ بأعلى صوته كالمجنون :

ـ فلنتحدث .. تحدثي الي بأي شيء ..

ولكن الاشياء السخيفة كانت قد انتهت ، ولم تتذكر الس اي موضوع يمكن التحدث به معه . بل انها لم تعد تتمنى حتى ان تضم هذا الرجل الى صدرها ، لميعدلديها مثل هذه الرغبة ، انه مخلوق غريب لا صلة لها به .

وادركت ايضا ان كلسي كان وحيدا على هذه الصورة حتى مع جلوريا كان وحيدا وحدة مطلقة بعيدا عن العالم كله . نعم ذلك هو سر فزعه من الظلام والوحدة . انه لايملك ما يمكن ان يشارك العالم فيه حتى ينسجم معه ويزول شعوره بالخوف من الوحدة .

انه لا يملك الحب .

وعلى حين غرة ، حاول كلسي ان يهرب الى خارج الملجأ دون وعي فجذبته الى الداخل بقوة فارتمى على الارض ينشج :

ـ اريد ان اخرج ، ان اذهب الى ملجأ مملوء بالناس

ـ حسن ، فلنذهب الى الملجأ الكبير .

واتجها اليه ولكنهما لما وصلا الى اعلى السلم ودخلا غرفة الجلوس في مسكن كلسي ، عاد الضوء واشتغل جهاز التلفزيون من جديد ، فقد انتهت الغارة الجوية وكانت غارة وهمية في الواقع .

وبهدوء تناولت الس مسكنا وجعلت كلسي يبتلعه ثم صحبته الى مرقده وسرعان ما غط في النوم .

اما هي فعادت الى مقصورتها المظلمة تنتظر قدوم صباح الاربعاء . لقد كان لديها وقت طويل يكفي للتفكير في الامور تفكيرا جديدا . وهبط عليها سلام مفاجيء وعلمت انها لم تعد تأبه لما يمكن ان يحدث لها بعد الان . انها كائن قوي مسؤول عن نفسه . ومثلها يستطيع ان يتلقى كل ما يقع عليه دون مبالاة ودون خوف .

حين ايقظت الس كلسي صباح الاربعاء واخبرته بحقيقة الانسة انيتا ستار وبانها لم تكن الاها ، طلب منها ان تكف عن المزاح . ولكنها لما حدثته عن الرقعة المسروقة واقنعته بما حدث فوجيء مفاجأة اليمة وهرول الى عيادة اصلاح الدمى الالية وراح يحدثهم بالامر وهو يرتعد دهشة وفرقا . واخيرا وعدوه بنقلها الى مكان بعيد عنه .

ولما عاد اليها كان الخوف منها مرتسما على وجهه ، وقال لها وهو غارق في التفكير :

ـ اني لا أكاد افهم شيئا ، ليس من انسان طلب اليك ان تفعلي ذلك ، فكيف استطعت ان تقومي بكل ما قمت به ؟ كيف كيف ؟؟

حالت الس ان تجيب ولكنها آثرت السكوت اذ لم يعد هناك ما يقال .

وعاد الى الحديث :

ـ ان الدمى الالية تتعب من العمل احيانا فتحتاج الى بعض الاصلاح في المعمل . ولكن دمية واحدة لا تستطيع ان تقوم بكل العمل الذي صنعته انت ، فكيف كيف ؟؟

ولكن الس لم تحرك شفتيها ، وانما اجابته مع نفسها :

ـ لقد صنعت كل ذلك لاني كنت وحيدة ، وفي حاجة الى الحب .

وابتسمت اذ عاد في طوقها الان ان تبتسم .

وبلغ سمعها صوت عجلات العربة التي ستقلها الى المصنع وسمعت الخطوات المقتربة منها ولكنها لم تبال . كانت قوية الى حد اللامبالاة .



صراع مع الظلام

من تاليف محمد منير آل ياسين المحامي

منشورات الرسالة الجديدة ٩٦ صفحة ـ مطبعة الجامعة ـ بغداد

*

المعروف عن الاستاذ محمو منير آل ياسين المحامي انه دائب النشاط والانتاج في مجالات الفن والادب فمنذ ان الغت الحكومة امتياز مجلته الادبية الكبرى (الرسالة الجديدة) في سنة ١٩٥٣ والتي ساهم في تحريرها نخبة من احسن ادباء العروبة قال الجميع ان هذه الضربة ستكون كفيلة بالقضاء عليه ادبيا .. الا انهم فوجئوا بنشاطات جديدة له في ميادين اخرى غير ميدان الصحافة . فقد عاد الى الكتابة للاذاعة في كل مكان .. فالمعروف عنه انه كاتب مسرحي واذاعي من الطراز الاول ... يشهد له بذلك آلاف المستمعين الذين استمتعوا برواياته الاذاعية الشيقة الطريفة . واخذ المذياع يردد اسمه من جديد فيعيد للاذهان قصة كفاح شاب عصامي طموح وهب شبابه وروحه للفن ولخدمة الوطن .

وكان اخر عمل فني ادبي له هو اصداره مسرحية (صراع مع الظلام) التي نحن بصدد نقدها الآن. واول ما يلفت نظر القاريء هو عنوان المسرحية البليغ ، فقد اثار هذا العنوان تساؤل الكثيرين .. لاول وهلة .. وانا منهم فقد قلت لماذا لم يسمها صراع في الظلام ؟.. ولكني بعد ان قرات المسرحية واستوعبتها شهدت له بالتوفيق والابداع في اختيار هذا العنوان بالذات .

ان مسرحية (صراع مع الظلام) تعني الصراع مع الجهل والرجعية والظلم والانانية ... صراع الحق مع الباطل .. صراع النور مع الظلام ولعله استوحى العنوان من صراعه هو مع الظلام . فقد لقي في حياته الادبية والفنية الوانا شتى من المكافحة والمقاومة والحسد والعدوان ...

ولكن هل رضخ هو لذلك ؟.. هل نكس راسه امام تلك الاعاصير ؟ هذا ما تجيبنا عنه هذه المسرحية الكبرى التي لم يفز المسرح العربي باجرا منها واصدق .

انها تصور كفاح المعلم في سبيل خلق الجيل الجديد ... المعلم العربي الذي تلقى على عاتقه مسؤوليات وطنية كبرى بالاضافة الى مسؤولية مكافحة الجهل ... مسؤوليات تهيئة الجيل الجديد للنهوض ببلاده من كبوتها وتحريرها من نير الذل والاستعباد .

لقد تمثلت هذه الشخصية الحية الرائعة في ـ خالد ـ ذلك الشاب الطموح الذي يصر على حرمان نفسه من كل مستقبل مرموق في سبيل ان يكون معلما ابتدائيا ... لانه كان يعتقد ان مجال خدمة الامة خدمة حقيقية هو تعليم الجيل الجديد في اولى مراحله الدراسية لانه يكون آنذاك لينا سهل التكييف وفق ما يرسمه له المعلم من توجيه وارشاد .

واروع من ذلك هو رفضه التعيين في العاصمة واصراره على التعيين في الريف حيث يكمن الجهل والفقر والمرض وحيث تتمثل افظع المآسي من حياتنا الاجتماعية المتطورة ..

وهناك في الريف تتكتل ضده قوى الرجعية كلها ... يغذيها رجال الاقطاع الذين يرون في كفاح خالد وافكاره خطرا يتهدد مصالحهم واطماعهم فيحاولون بكل ما لديهم من قوى ان يحوكوا الدسائس والمؤامرات للقضاء عليه الا ان ايمانه برسالته الانسانية الكبرى يمده بقوى روحية جبارة تعينه على الصمود في وجه الاعاصير ثابت العزم قوي الجنان ... حتى ينتصر في النهاية ذلك الانتصار العظيم .

لقد جمع المؤلف في مسرحيته بين الواقعية والمثالية . فقد رسم لنا فيها نموذجا كاملا للريف العراقي المثالي الكامل .. وهذا النموذج لم يتحقق الى الان بالرغم من الجهود التي تبذلها المؤسسات الاجتماعية المختصة برفع مستوى الارياف .. .

نعم لم تعد الس تعبا باحد حتى ولا بكلسي معبودها القديم . كان هناك جوليان الذي وجدته اكثر فهما واعمق حرية من كلسي . ولكن نظرتها للناس قد تحولت تحولا خطيرا وما عاد للجنس البشري اطلاقا سلطان عليها.

ان البشر يملأون الطرقات والمنازل وتجدهم في كل ركن ، يسيرون ويتحدثون ويضحكون فيخيل اليك ، انهم يحيون الحياة كاملة غير منقوصة ولكنك تعرف اخيرا انهم جميعا يسيرون وهم اموات . انهم اموات .

وابتسمت بنشوة وارتياح ووقفت تنتظر مقدمهم فبدا عليهم التهيب والخوف .

وودت ان تصيح بهم قائلة :

ـ ليس في ما يستوجب فزعكم ايها السادة . وانما الفزع في انفسكم، في ذواتكم الخاوية ، انكم تخشون الحياة وتجزعون من انتصار الزمان عليكم ، اما انا فلقد عبرت الظلمات وتركتها لكم . اني اعرف مصيري واعرف نفسي ، فانا في النور وانتم ما تزالون في الظلام .

انا اعيش ، وسوف اعيش ..

وامتدت احدى الايدي الى الصمام الذي يحرك الآتها ..

بغداد ترجمتها بتصرف **احسان الملائكة**

كما انه رمز الى المثالية الكاملة بشخصية خالد التي ذكرناها . والتي قلما نستطيع العثور على ما يماثلها بين شبابنا المثقف ... تقابلها شخصية الشيخ جهود ذلك الشيخ الاقطاعي الذي تركزت فيه كل الخسة والضعة والدناءة والجشع والذي كرس كل جهوده وقواه للقضاء على خالد ومشاريعه .

فهل يمكن الجمع بين المثالية والواقعية في الحياة ؟ هذا ما يعتقده المؤلف.. وهذا ما يرمي اليه في مسرحيته . انه يهتف بنا من بين سطور مسرحيته ان علينا ان نضع لنا في الحياة هدفا مثاليا يجب ان نسعى في حياتنا الواقعة الى بلوغه لكي نطور انفسنا وحياتنا وتتقدم بها الى الامام .

وهذا ما حققه خالد بطل مسرحيتنا ... فقد رسم لنفسه مثلا اعلى الا وهو خلق ريف مثالي كامل .. وسعى وجاهد لتحقيق هذا الحلم حتى وصل الى غايته في الفصل الرابع والاخير من المسرحية بعد ان وصلت الحوادث والانفعالات الناجمة عنها الى الذروة .

لقد اعجبني الحوار .. فقد كان سلسا نابضا بالحياة ... كما اعجبتني « القفلات المسرحية » اي خاتمات الفصول .. فقد كانت موفقة الى حد كبير .

والمسرحية بعد هذا حافلة بصور اجتماعية واقعية شتى ... منها صورة للجيل القلق الذي يعاني ما يعاني من مرحلة التطور التي تمر بها . وتتمثل هذه الصورة في شخصية « سوسو » واخيها « فوفو » ابني عم خالد . ومنها صورة لرب العائلة الذي ينهمك في ملذاته وشهواته ويترك امر تربية ابنائه للاقدار .. فتؤدي هذه الروابط الاجتماعية المهلهلة للاسرة الى هدم كيانها وجعل افرادها مرضى نفوس او نزلاء سجون

وقد اعجبني بالاخص الفصل الرابع الذي يصل فيه الكفاح بين خالد ـ وتتمثل فيه قوى الخير والصلاح ـ وبين صيهود ـ وتتمثل فيه قوى الشر والفساد ـ الى القمة ... ففيه يبدو الطرفان خصمين في معركة انتخابية للنيابة عن تلك المنطقة من الريف. صيهود قوي بماله ونفوذه ومؤامراته.. وخالد قوي باصلاحاته ومحبة اهل الريف له .. وينتصر خالد ويفوز بالنيابة بينما تكون نهاية صيهود على يد احد الريفيين الذي يطلق عليه رصاصة مسدسه فيرديه قتيلا ... ولم يكتف الريفيون بهذا ... بل رجموا جثة صيهود بالحجارة وبصقوا عليها احتقارا في الوقت الذي كانت تتعالى فيه الهتافات بحياة خالد ..

هذا عرض عاجل لمسرحية رائعة الفها شاب ضحى بكل شيء في سبيل امته.

ارجو ان تنال من القاريء العربي التقدير والاهتمام الذين تستحقهما كما ارجو ان يواصل المحامي الفنان الاديب الاستاذ محمد منير آل ياسين صراعه مع الظلام حتى ينتصر .. وانا واثق من ان النصر ليس عنه ببعيد .

بغداد سامي عبد الكريم

التعبير الموسيقي

تأليف الدكتور فؤاد زكريا

من سلسلة « الثقافة السيكولوجية » مكتبة مصر ـ ١٠٠ ص

✶

انه كتاب ، بل كتيب ، يحاول فيه المؤلف ان يقدم لنا شرحا علميا مبسطا حول الفن الموسيقى ـ وما اشد حاجتنا اليوم في بدء عهد النهضة العربية الحديثة ، وفي ميدان الثقافة ، الى النظرة العلمية السليمة ازاء ما يحيط بنا من تراث الانسانية ومبتكراتها ، والى الابتعاد عن الاهواء والتعصب ومضاعفاتهما .

ونحن في الواقع نلمس مظاهر كثيرة تتضمن تأويلات عن الفن الموسيقي ، وتتبدى بأشكال مختلفة ، فمن معجب مغرم ، لا يرقد له جفن ـ على حد زعمه ـ ان لم يستمع للموسيقى ، الى متبرم حائر لا يدري اي موقف يتخذه ازاءها ، الى هازيء ساخر يفخر بانه يجهل الموسيقى ، باعتبارها « مودة غربية » وهو شرقي ، وهو محافظ ، وبالتالي هو لا يلتقي ـ كما يتوهم ـ مع ثقافة الغرب . واذا نحن طلبنا من هذا او ذاك تبريرا معقولا لما يدعيه لكان لنا منه ما يشبه الجواب حينما يتذرع بالذوق الخاص . ويزداد تمسكا بهذه النمطية من الاجوبة على اعتبار ان قضايا الفن يتحكم فيها الذوق الى حد بعيد .

ولكن كيف نعي هذا الذوق ؟ وكيف نتعقل تذوقنا الفني ؟ وكيف يغدو استماعنا للموسيقى استماعا فنيا ؟ . هذا ما يجهد المؤلف في اظهاره .

✶

الموسيقى فن تعبيري كبقية الفنون . الا ان لها صفات خاصة تتميز بها. فهي فن **مستقل** اولا بمعنى انه لا يمكن ترجمتها الى اية لغة اخرى ، كالشعر الذي يترجم للنثر مثلا . ولا يعني الاستقلال البعد عن الحياة . « انما يعني اختلاف صورتها النهائية عن صورة موضوعها ، اي ان العلاقة بينها وبين الموضوع ليست علاقة محاكاة او تمثيل او تصوير مباشر ، انما هي علاقة ايحاء تبعثه الموسيقى في النفس فتخلق فيها **شعورا عاما** يتلاءم مع طبيعة ذلك الموضوع وان لم يكن يحاكيه بطريق مباشر » ص ١٨

وتتصف الموسيقى ثانيا **بالعمومية** ، **فهي لا تصور انفعالات وعواطف جزئية**، بل تنطلق من هذه الجزئيات الى تصوير انفعالات واحاسيس عامة .

والموسيقى ثالثا **ذاتية** ، مرتبطة بالبعد الزماني ، غير الرسم مثلا المتمثل في البعد المكاني ، فاداؤها يتم خلال التعاقب الزماني ، وهذا التعاقب يدرك في ذاتية الانسان ، ومن الداخل .

ولقد كان الفيثاغوريون ، تأكيدا لهذه الحقيقة ، ينظرون الى العالم كعدد وكنغم فالعدد يعبر عن الكم ،والنغم عن الكيف (١)

وكذلك شوبنهور الذي اعتبر العالم ارادة لا يمكن الوصول اليها مباشرة ، بل بواسطة الموسيقى .. الخ ...

والموسيقى تستمد قوتها من اسلوب تأليفها ، هذا الاسلوب الذي يتم بواسطة اللغة الموسيقية ، واهم اركان هذه اللغة .

١ ـ الايقاع Rhythme وهو التنظيم الزمني لحركة اللحن ولا يضيف للحن شيئا جديدا ويتصل بحركة الجسم الطبيعية : التنفس (شهيق

(١) نحرص على عدم التعليق على هذا الراء عن الفيثاغورين لانه يحتاج لمزيد من الشرح لبيان العلاقة بين الاعداد ، وبين الموسيقى .

وزفير ، الجوع والعطش ثم الليل والنهار ... الخ

٢ ـ اللحن Melody وهو ارتفاع الصوت وانخفاضه من حيث عدد الذبذبات .

٣ ـ التوافق الصوتي Harmony : (وهو غير معروف في الموسيقى الشرقية ، بينما اتخذه ديبوسي اساسا للتأليف الموسيقي)

انه ايجاد الانسجام بين صوتين او اكثر في وقت واحد . وتتعاون فيه الآلات المختلفة حتى لا يبقى في النفس فراغ للانتظار

٤ ـ القالب Form ويتضمن الوحدة بين اجزاء القطعة كلها .

والآن كيف تتم عملية الموسيقى ؟!

١ ـ هناك المؤلف : فهو لا يمكن ان ينفصل عن الواقع اثناء تأليفه : لان الموسيقى فن مرتبط بحياة الانسان الواقعية وبصراعه خلال هذه الحياة ، فمن المحال ان نفهم اية فترة من الفترات الا اذا عرفنا كيف كان الناس يعيشون فيها » ص ١٦ ـ ١٧ . و « حساسية الفنان الصادق تجعله اكثر الناس تأثرا باحوال الحياة المحيطة به فتأتي موسيقاه صورة معبرة عن هذه الاحوال » ص ١٧ .

٢ ـ وهناك الناقل وقد تتدخل شخصيته في عملية الاداء قليلا او كثيرا

٣ ـ وهناك الذي يتلقى المعاني والاحاسيس التي سجلها الملحن ونقلها اليه القائم بالاداء . ص ٢٦

فالمستمع يحتاج الى الاستماع المركز ، والى عادة طويلة الزمن اذ : «يجب الا يكتفي بالسطح اللحني الظاهر للقطعة بل ينفذ الى التيارات الخلفية والاتجاهات الخفية فيها ، ويدرك الوحدة الكامنة وراء هذه الكثرة المتعددة من الاصوات» ص ٢٨

« فالاستماع الفني الكامل عمل ايجابي بكل معنى الكلمة يقتضي انتباها وتركيزا لا يكتسبان الا بعد مران طويل الامد ، ويقتضي تدخل الذهن الواعي الى جانب الاحساس الانفعالي اي انه عمل يشترك فيه العقل مع الحساسية ، ويقتضي بجانب التذوق الوجداني تفكيرا وتحليلا ومقارنة » ص ٥٨

وبهذا نبتعد بالسامع من ان « يلجأ الى التشبيهات الشعرية ليغلف بها اللحن » ص ٥٧

وهكذا نصل الى ان الموسيقى تحفل بالمعاني الحقيقية وليست اوهاما واحلاما « ان للموسيقى مجال المعاني ، فيه لا تهز الاعصاب فقط بل تيقظ العقل وتنبه الملكات الواعية وتكشف حقائق جديدة كانت النفس تجهلها من قبل . وهذه هي المهمة السامية للفن » ص ٣٠

الى هنا نرى ان الموسيقى تكسبنا مزيدا من المعرفة في هذه الحياة . وبهذا نبتعد عن تشبيهات الامزجة الشاعرية الرومانتيكية كأن يقول البعض : ان الحركة في السمفونية الخامسة لبيتهوفن تعني ضربات القدر ، وتلك تعني الاستسلام له .. الخ .. « ان هذه تشبيهات ادبية تسيء الى المتعة الجمالية اكثر مما تعين على تحقيقها» ص ٣٦ ونستطيع اخيرا ان نقول فيما يخص المعنى في الموسيقى :

« ان اقصى ما تستطيع الموسيقى ان تبعثه في النفس هو ان تضفي علينا معاني واحاسيس عامة، اي انها تخلق فينا جوا معينا يمكننا ان ندرك تياره العام ولكننا لا نستطيع ان نحدد تفصيلاته الجزئية ، ولن نستفيد شيئا لو استطعنا ذلك » ص ٣٦

واخيرا يحدد الكتاب صلة الموسيقى بالغناء ، ويرى تزاوجهما احيانا كما في الاوبرا ، ولكن لا يتم ذلك لاستكمال النقص في التعبير الموسيقي والاستعانة بكلمات الغناء الواضحة ، بل لمحض الاكتمال في العمل الفني .

اما القسم الاخر من الكتاب ـ فيبحث مشكلة التعبير في الموسيقى الشرقية . ويستهل البحث بان ليس لدينا في الشرق موسيقى بالمعنى الصحيح . فلقد انحصرت تجربتنا الموسيقية في الاغاني ، واصبحت غايتها احداث الطرب وليس المتعة الفنية الحقيقية.

اما الاغاني عندنا فقد قامت على ما تحمله الكلمات من رومانتيكية مفرطة يغلب عليها طابع الحزن والاسى . ويرجع هذا الى « ان الكفاح ضد الاضطهاد عندنا لم ينقطع ، غير ان تعاقب مظاهر الاستبداد واحدا بعد الآخر لم يترك للشعب فرصة في ممارسة تجربة الحرية والتغني بها في فنونه ، وانعكس ذلك على اوضح صورة ممكنة في موسيقانا الشعبية ، فاصبحت زاخرة بمعاني الذل والخنوع ، وانعكست المعاني على الالحان فاذا بها حزينة باكية لا تقبل على الحياة بقدر ما تندب حظها فيها » ص ٩٥ .

اما التأليف الموسيقي فيرجع ضعفه عندنا الى ان موسيقانا لحنية Mélodique وليست ذات توافق صوتي Harmonique . وقد سادت فيها صفتا التلاصق والتماثل ففدت هذه الالحان سلسلة متصلة من الاصوات تعلو وتنخفض كالبشارف مثلا التي تمثل ذلك احسن تمثيل . « وهذا يؤدي الى فقدان الشعور بالجدة في الالحان المستحدثة ، والى صبغ هذه الالحان بصبغة التشابه والتجانس والى انعدام عنصر التنوع فيها » ص ٧٠ .

ومن عناصر تأخر موسيقانا قيامها على الايقاع Rhythme ، فان الايقاع عنصر ضعف واضح ، انه اشبه بالخطيب الذي يقول للناس انتبهوا سوف اقول قولا مهما ، بينما في الحقيقة عليه ان يدع السامع يكتشف ذلك . بينما الايقاع في الموسيقى الغربية اندمج في تيار اللحن مع بقية عناصر القطعة .

وفقدان التوافق الصوتي Harmony في موسيقانا الشرقية يجعلها سطحية بينما هو في الموسيقى الغربية مصدر العمق ، اذ بفضله تتخذ الموسيقى عند السامع الوانا متجددة على الدوام . ان موسيقانا ذات تيار واحد وهو ساذج بحد ذاته فتكرار الاستماع اليه يؤدي الى الملل .

اما القالب Form فهو عندنا دوري ـ كما في غناء المواويل ـ وتكون العودة فيه دائما الى القرار .

اما **الشعب المستمع** فهو كتلة جماهيرية تعيش في جو تشنجي صاخب ولذا صار الهدف من الاستماع هو البحث عن النشوة العاجلة والطرب المستمر في الالحان دون بذل اي جهد في **الفهم والتعمق** .

ويتوهم البعض ان كثرة السلالم الموسيقية عندنا دليل على جودتها مع ان الغربيين جهدوا كثيرا لضغطها الى سلمين فقط .

وبعد ، هذا قليل من كثير من ملامح هذا الكتيب ، بل الكتاب ، وهذه الملامح تجعلنا اميل الى البحث العلمي في قضايا فن الموسيقى لنقف منها موقفا واعيا غير تلك المواقف المائعة التي يتخبط فيها بعض متقفينا فحدود هذا الفن اضحت واضحة لا مجال فيها للتعبيرات الشعرية ، ولا للتذرع بما يسمى ـ الذوق الخاص ـ والاذن ... الخ انه كتاب جدير بالقراءة .

اسماعيل حمود

الجامعة السورية ـ كلية التربية



يوسف السباعي

روائي الكادحين

بقلم فاضل السباعي

لا نكران في ان الروائي يوسف السباعي شاغل القراء ومالىء اذهانهم بعديد قصصه ، القصير والمطول ، المشحون بمواقف الحب تستدر دمع القارىء رثاء للبطل المتاع والبطلة التي قضت صريع الحب والوفاء (١) ... وهنا يكمن الباعث في عدم ارتياح النقاد لنتاج يوسف ـ في معظمه ـ حيث لا يرون فيه ذلك الادب المسهم في تشخيص المثالب والعلل ، المتطلع باخلاص الى العلاجات المجدية ، الا ان مطولته « السقا مات » لتفيض بهذه المعطيات افاضة قل في الحق نظيرها .

وقصة « السقا مات »(٢) ترصد قطاعا للطبقة الفقيرة ـ او ، بالتعبير المستورد : البروليتاريا ! ـ الكادحة في سعادة وصمت لا يشغلها الا ان تمضي يومها طاعمة في انتظار غد مؤمل يحمل في تضاعيفه الفرج .

والقصة تغص بالكادحين امثال : « المعلم علي دنجل » المتربع في كشك المياه ، و « عم سلامة » صاحب مطعم « فول الامرا » ، و « علي الحمى » المبيض، و « محمود الخشت » الجزار ، و « زكي زين » الخضري ، و « الحاجة زمزم » صاحبة المسمط ، و « الحاج سرور ابو الفرح » الحانوتي ، و « عزيزة نوفل » المومس ، و « شرف الدين الدباح » القواد ... على ان اظهر شخوص القصة وامتعهم : « المعلم شوشه الدنك » سقاء الحي ، وابنه الصبي « سيد الدنك » ، و « الست ام آمنة » الضريرة، ثم « شحاته افندي » مطيباتي الجنازات (٣)..

والمؤلف يصيب حظا بعيدا من النجاح في رصد الحياة القاهرية ببؤسها وسعادتها وهزلها وجدها وشعبيتها وروافدها جميعا . فهو يعرض لنا دور ذلك السقاء الذي يحمل قربة المياه ليفرغها في الاوعية قبل ان تصلها انابيب المياه ، ويحملنا الى قلب المطاعم الشعبية فنرى كيف يتناول غداءه « حسين القرداتي » و « محمود مسطرين البنا » وسائر ابناء « الحته » ، وكذلك يدخل بنا الى كتاب « الشيخ كفته » فيسلينا بمرأى الصبية الى « درب القط » فنشهد ما تتفتق عنه اذهانهم من العاب يتسلون بها بعد نهار مجهد ، ومن طرف اخر يصحبنا الى احتفال بالمولد يقام في ضريح بالحي ، ويطوف بنا على مقاهي القاهرة الشعبية ، ويسير بنا في موكب ميت في طليعته حفنة من « الطيباتية » ، المشيعين المحترفين، وفي فصلين اخرين يشهدنا فرحا يقام في الدرب ، ويذهب بنا الى الحمام يغتسل بها شوشه الدنك وابنه سيد !..

والقصة بعد هذا لا تعرض لحياة اسرة الدنك وحدها ، بالرغم من ان افرادها هم الابطال الرئيسيون في القصة ، وانما تعرض لحيوات طائفة من الناس في « درب القط » و « درب عجوز » و « درب السماكين » جميعا ، يودعون نهارهم البائس السعيد متطلعين الى استقبال غد اقل بؤسا واكثر سعادة . والمعلم شوشه ، السقاء ، كان يأمل ان يودع عهده بالقرب يعتلها الى عربة يدفعها بيديه ويطوف بها على البيوت ، مؤملا ان يتربع في الكشك يوزع مياه الشركة على السقائين ونساء الحي ، فهو اولى من « علي دنجل » الذي لا يتورع عن مغازلة النساء اذ يقبلن الى الصنبور طالبات الماء . وشوشه رجل وادع طيب راض بحظه من الدنيا على كل حال ، وهو مثال لـ « ابن البلد » الشهم الذي يتطوع لانقاذ « شحاته افندي » من براثن « الحاجة زمزم » عندما دخل هذا مسمطها طامعا في ان يصيب لديها غداء طيبا مقابل كلمات من الغزل يهدهد بها تصابيها لما بدا له من ولعها بالغزل وتحريضه عليه ، الا انه كان في وهم واهم كاد يودي به الى شر مآل .. ذلك ان الحاجة زمزم ، عندما ادركت وقت الحساب ان شماته افندي لا يملك غير الغزل مليما ، اوعزت الى خادمها المطيع « جاد » بان ينزع عن الزبون كل ما على جسده من ملبس ... وقد نشط الخادم ، وشوشه في المسمط يشهد متألما ، في نزع معطف الرجل ، ثم مد يده الى ذيل الجلباب يهم برفعه ، فاذا المعلم شوشه الشهم يهب اليهم ويحول دون ذلك بان يدفع ما على الزبون من حساب .

وتنعقد من يومها اصرة ود بين المعلم شوشه وشحاته افندي . اذ يقبل الاخير الى السقاء في غد الحادثة شاكرا جميل احسانه رادا اليه ما دفع عنه . فيتبين للمعلم شوشه ان شحاته لا يملك من حطام الدنيا مالا ولا مأوى غير صرة في يده يقول ان فيها « عدة الشغل » ، فيعرض عليه ان يبيت ايامه في غرفة خالية في داره الى ان يقيض الله من لدنه فرجا . ثم لما يعرف السقاء في الظهيرة ان « صنعة » الضيف « مطيباتي » يحس نحوه بالكره والنفور ويتمنى لو ينصرف عنه تشاؤما منه وتطيرا ، الا انه كان قد نزل في الغرفة ولم يعد من اللائق صرفه . على ان الطيرة سرعان ما تتلاشى من نفسه بعد ان يصطحبه شحاته الى المقهى الذي يمضي

---

(١) لعل من اطرف ما عرفنا .. ان طالبات التجهيز بحلب ، كن يتداولن مطولة يوسف « اني راحلة » في فجر ظهورها ، فيقرأنها في الدرس في غفلة من مدرساتهن ، ويذرفن الدموع لوعة واسى !

(٢) نشرت « السقامات » اقصوصة في مجلة « الهلال » عدد اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٨ .. ثم ما لبث المؤلف ، بعد ان تبدت له « شعبية » موضوعها وانسانية شخوصها ، ان جعل منها قصة مطولة .

(٣) ان « شحاته افندي المطيباتي » شخصية انسانية ظريفة ملء المعنى وقد عقدنا لها فصلا قائما بذاته درسنا فيه ما اتسمت به من صدق هو علة ظرفها وانسانيتها .

فيه « المطيباتية » لياليهم عادة ، وهناك يفيض على مسمعه بفلسفته عن الموت ، فيذهب من نفسه كل اثر للرهبة والتشاؤم .

وكان كلما صادقها في الحي اوسعها غزلا يجيد منه المثيل . ويتصل بعلمه ان المرأة « ماشية » وان « شرف الدين الدباح » قوادها الاميـن

يرددونها على مسمعيه كل يوم : « ابـوك السقا مات .. بيمشي في الجنازات ... ويوصل الاموات .. » ، ويرجوه الكف عن التشييع حبا له واعزازا . فينزل الاب عند الرجاء ، ويعزم على هجران الحلة جميعا .. الا ان المعلم شوشه يموت ، في اليوم التالي ، تحت انقاض بيته !. .

يتضح ان القصة تستقطب — بالدرجة الاولى — تجربة الموت ، موت

مطالباً بان يكتب لشعبه الذي تحده الحدود السياسة الضيقة فحسب ، وانما لافراد الامة العربية جمعاء ، وهم - في معظمهم - لا يفهمون اللهجة المصرية وسائر لهجات الشعوب العربية الا بالكاد . وبهذا المعنى فهم محفوظ وظيفة الاديب ، فرأيناه حريصا على ان يحكي حواره بالعربية الفصيحة - لا الفصحى - على الرغم من الانتقادات العديدة التي وجهت اليه من رواد العامية المصرية .

ويقول المؤلف في مقدمته انه كان عزم في بدء كتابة « السقا مات » على اجراء الحوار (٤) بالعربية « ولكني لم اكد اكتب بضع صفحات .. حتى وجدت ابطال القصة ينطقون على الرغم مني باللغة العامية .» ولقد رأينا اول حوار في القصة (٥) فصيحا سائغا لا يعيبه شيء ، ليرتد بعد ذلك الى العامية .. وانا لنتساءل عما دفع المؤلف الى العودة الى الحوار الفصيح في بعض صفحات القصة (٦) ؟ أهو حنين الى التسامي ؟ ام اصرار على دحض دعوى « المتفصحين » واثبات بطلانها ؟ لقد كسب المؤلف في هذه القصة انصار العامية المصرية ، ولكنه خسر من عداهم من رواد العربية . وان في القصة من العاميات الموغلة في اقليميتها ما لا يفهمها من المصريين غير القاهريين !

والحق ان الحوار العامي ايسر جريا في سن القلم من الفصيح الذي تصقله الروية والامعان . ولكن ، متى كان الجمال والفن رهيني يسر وهينة؟

والمؤلف يزعم انه انما يكتب للعامة الذين هم « في اشد الحاجة الى زاد من الادب الذي يفهمونه » . اذن ، فالعامة يعسر عليهم فهم « الحوار » الفصيح ، وبالتالي :فهم « السياق » الفصيح ايضا .. وهذا ما يحتم على المؤلف ان يكتب بالعامية الحوار والسياق جميعا ، ليتاح للعامة ان يفهموا ما يقدم لهم من زاد قصصي (٧) .. فتأملوا هذا الادب العجيب !

ولكن ، كيف يقبل القول بان يوسف السباعي يعني بالعامة ، وكتبه لا تستطيع الا الخاصة الموسرة شراءها (٨) ؟ وان كاتب السطور ما كان ليقتني نسخة من « السقا مات » في طبعتها الاولى المترفة لتي صدرت من سنين ، لولا ان صدرت مؤخرا في حلة شعبية محتملة الثمن (٩)

ذلك تقويمنا لقصة « السقا مات » ، موضوعا وتقنية ولغة ، نرجو الا يضيق به صدر مؤلفها (١٠) . وان رأينا ، مهما ضم من ملاحظات ، لا يغمط القصة روعتها . فانها ، بموضوعها وشخوصها الانسانية ، لترتفع بلا ريب الى مستوى الاعمال القصصية العربية الرفيعة . وان في وسع الاستاذ يوسف السباعي بعد اليوم ان يهجر مدرسته تلك الرومانسية العتيقة ، ليصبح بحق روائي الكادحين .

والى الصديق ، يوسف السباعي ، التقدير والاعجاب .

حلب فاضل السباعي

---

(٤) يعتمد مؤلفنا في تحليل شخوصه على الحوار ، دون « المونولوج الداخلي » .

(٥) من الصفحة ١٦ - ١٨

(٦) في الصفحات ٢٧ و ٤٧ و ١٦٢

(٧) باسم العامة ، الذين لا يقرؤون .. تمزق العربية وتقطع اوصالها !

(٨) مما استلفت الانظار في حينه ، ان قصة « رد قلبي » ضم جزآها في علبة من المقوى انيقة ، وبيعت باحدى عشرة ليرة سورية !

(٩) سلسلة «الكتاب الذهبي» العدد الثالث والخمسون ، نوفمبر ١٩٥٦

(١٠) كنا بعثنا ، من حوالي السنتين ، الى المؤلف رئيس تحرير « الرسالة الجديدة » ، بمقالة ننقد فيها احد آثاره .. فطواها في صمت .

المجد للزيتون

الى الامة العربية الصامدة

بمناسبة احداث الاردن الاخيرة

لا تجزعي ... ان هب اعصار
فصوحت في الروض أزهار
لا تيأسي ... لا تيأسي أن دجا
ليل ففي افقك اقمار
بشراك بالنور ... فلا تجزعي
ان ناوأت سعيك اقدار
ان غام افق ، واختفت انجم
وساورت حلمك اخطار
غدا يشيع الصحو في سوحنا
وتجتني ثمة أثمار
غدا يناغي الفجر احلامنا
فتغمر الاعين انوار
غدا تغني الارض أمجادنا
فتنتشي في الدوح اطيار

***

لا تجزعي من مستبد عتا
فتاه في عطفيه جزار
فالبغي لا يبقى ... وأسواره
على ذويها سوف تنهار
وكل جلاد سيجتاحه
في كل قطر منه ثوار
وموكب « البعث » سيجتثه
فليس يبقى منه ديار

***

بشراك يا امتنا ... في غد
يزهو على مفرقك الغار
لا ترهبي الليل واشباحه
ما دام في دنياك احرار
منك الضحايا ... لم تزل حية
في دمها يستصرخ الثار
فيك نفوس .. لم تزل حرة
لم يستملها قط دولار
فالمجد للزيتون في ارضنا
والموت للاحلاف والعار

محمد سعيد المسلم

رجل من الداخل

كلّت قدمي ...
كلّت اقدام الالم ...
اقدامي تمشي في عشب أصفر ...
وانا حلقي مر ..
وانا أمشي امشي ..
وكاني في موكب نعشي ..!
اربع ساعات وانا احمل نفسي
احمل يأسي ..
وانا كالفار الميت
يبحث .. لكن عن امل ميت
خلف الصمت المصلوب بعين الناس ،
خلف الانفاس ..
كل الاعين مني تنفر ...
كل الاعين تمضي وتفر ..
وانا امضغ عشبي الاصفر ..
وانا أشعر حلقي مر ..
وانا امضي وامر
قرب الفترينات ..
يا بلد الفترينات !
اني جائع ..
اني عريان الجيب ،
اني عريان القلب
سبعة اشهر
وانا اعجن صبري
وانا افتل حبلا لم يفتل ايوب مثله ...
اني امضغ مرِّي...
وسأنهي الليلة ضوئي الذاوي ..
دهليزي صار بلا ضوءْ ..
وكراسي الصمت مبعثرة
ومحطمة داخل نفسي ...
سبعة اشهر
وانا عاطل
وانا احيا في الجوع القاتل
جوع الجيب وجوع الاعين ..
كم كنت اجوع لعين أشكو في بؤرتها همى !

أشعل في رحمتها فحمى ..!
سبعة اشهر
وأنا آكل لحمى ...
كنت اجوع لنظرة عطف ..
لكن كل لاذ بمعطف ..
وانا عريان القلب ..
وانا الليلة متعب ..
كلت منى اقدام الالم ..
يا بلد الفترينات ،
حتى اعين فيرْان الليل السود
كانت تأوى فلها مأوى في اي مكان ..
اما قدماي .. فلا راحه ..
كل يبنى واحه
فيتَـاحه ..
الا قدمي ...
كل يشكو الليل جراحه
لم لا جرحي ..
فانا جرحي اسود ...
والاسود لا يحكي للاسود همه ...
الاسود يأكل فحمه ..
اني متعب ..
وانا امشي ارقب ظلي
اني اتبع ظلي ..
يا للمأساه !
اتبع ظلي !!
أربع ساعات مرت وانا اتبعه لا ادرى ...
اني أفلست اليوم لاخر قطرة حب ..
لن ترجعني عن عزمي نظره ..
فانا شاهدت الاوجه مرّه ..
قد افلس منى القلب مع الجيب ..
سبعة اشهر
وانا افتل حبلين
حبلا من صبر
والآخر افتله كي اشنق ظلي ..
.. والليلة اقسمت لاشنق ظلي ..
وسأصلبه فوق جدار الليل ...
اني عنكبت دموعي يا بلد الفترينات ،

يا « شملا » يا « باتا » يا « اوركو » ..
اني الليلة اشنق ظلي ..
سأميت الليلة كل الصرخات ..
لن يشهدني ما هو آت ،
وسيلعنني ما فات . .
ليس لديَّ الليلة احباب ...
اني الليلة انهيت جميع الاحباب ..
ماتوا ، حتى حبة قلبي .. أنهيت جميع الاحباب
فلقد ضاعت من بين يدى الليله ..
ذهبت لتزفةَ لغيري ..
ذهبت لتزف لمن ضيعني ..
ولمن افلسني القلب مع الجيب ..
اني اذبح نفسي الليله
يا حبة قلبى ..
اني اذبحها في ليلة عرسك
يا ضجتهم في الزفه
مزقت الشريان برأسي ..!
يا صرخة اعماقي الطينيه !
اني ابصق في الفترينات ...
... اني ابصق يا « باتا »
فلقد بات القلب هنا خاو ...
وانا اقسمت لانهى الضوء الذاوي. .
اني متعب ،
وأنا امشي ، امشي امشي ...
وانا امشي داخل نعشى...
... واخذت اراقب في قدمي :
كانت قدمى
في حجم القدم ...
ماتت حولى الخطوات ..
ورايت الطرقات ،
تخلو ..! الا من خطواتي ..
وانا لا اسمعها في الصوت العاني
داخل نفسي ..
فأنا اسمع ضجتهم في الزفه :
ضوضاء كانت في عيني ،
وصراخ اتعب لي جفنى ..
يا للمأفون !

وفتلت حبال الصبر
وشددت الاحجار على بطني ..
.. يا من تسرق مني اللقمه ،
ها انت الليلة تسرق حبي
تسرق حبة قلبي ..
يا بلد الاعلانات
ها هو يسرق آخر شمعه
ها هو يسرق منى من اطعمت هواها ضلعي
من نورت بعينيها شمعي ..
يا للذهب ؟!
يغريها .. ولقد كانت في حضن نبي ؟!
.. كانت تسكن قلبي ..
كيف استسلمتِ اليه ؟
كيف تركت الضبع لياكل منك الشمع ؟
الاني عاطـل ؟
الاني خاوى الجيب
استسلمت اليه كقطعة شمع ؟!
وسيعجنها بين يديه
كيف استسلمت اليه ؟،
ولقد كنت النور الباقي في عيني
ولقد كنت اذا جعت
آكل نورا من عينيك ..
كنت ابث الشكوى بين يديك ..
وفتلت حبال الصبر ...
ولعينيك طرقت الابواب ،
ولشمت الاعتاب ...
لكن .. قد لطمتني كل الايدي ..
اغلقت الابواب
لكني لم أيأس :
ما دمت بعينيك ارى لي كأس ..
وفتلت حبال الصبر
وانا اترك حبلا آخر
انسجه كي اشنق ظلى ..
.. لكني الليلة اني مطعون !
فسيلمسك المأفون
وسيأكلك ..
وانا الليلة مزقت حبال الصبر ،
فانا قررت الليلة انهي امرى ،
كي لا العق مري بعد اليوم ...
وانا امشى خارجها في الدوامه ..
خمدت حولى الاصوات ،
ماتت كل الاعلانات
مات الضوء هنا حولى
وانا اتبع نعلى ..

ماتت كل الاعلانات :
« صيدناوي » و « البيبسي كولا » ..
يا بلد « البيبسي كولا »
اني مطعون في القلب الايسر ..
.. ماتت كل الاصوات
ماتت كل الخطوات
وانا امضي وامر
بجوار السينما ..
أين الرواد ؟
ماتت فرحتهم فمضوا ليناموا
وليستلقوا كالاموات
في بلد الاعلانات !
وانا اقرأ اعلانا مطموس الكلمات .
الدنيا لما تضحك »
هي تضحك .. لكني ابكي
هي تضحك منى وانا ابكي ..
اني امسكت الليلة اوراق حياتى
ومشيت بدرب الناس
كي احرق في مدفاة البرد القاسي اوراقي ..
كي احرق في الاحداق
صمتي الآتي ...
خمدت كل الاصوات ،
حتى ضوء الاعلانات ،
حتى قلب محطات الليل ،
حتى السيارات ،
حتى اضواء اشارات الليل
مات الاخضر منها والاحمر ..
وانا امضي وامر
ليس بنفسي اي اشاره
توقف خطوي ..
كل يعلن اني اذوي ..
وانا امشي امشي
وانا اشهد ظلي في ماء الفسقيه ..
... حتى ظلي مقلوب في ماء الفقيه !
فلماذا لا انهي الليلة ظلي المقلوب ؟!
ولماذا لا انهيه مع الليل المصلوب ؟؟؟
ولماذا لا انهيه مع العمر المغلوب ؟؟؟
ولماذا .. صارت حبلا ملويا في ماء الفسقيه ،
ولماذا صارت حبلا ملويا في عينيّ
لكني .. ها انذا المح نورا في الماء
وانا اسأل قلبي كيف ولمْ جاءْ ؟
اني ارفع عيني في وجه سماء الليل ..
وانا المح عند الافق المرتاب
نجما ينساب ...

اني المحه كحزين جواب
يتراءى من خلف سحاب ..
يا نجم الليل المتفرد :
اني مثلك لا صاحب ،
اني مثلك بالقلب الشاحب ..
مات الليلة كل الاحباب
لم اشرقت الان على باب حياتي ؟
التشهدني وانا القى عمري في المجهول العاتي ؟
ولتروي قصة ياسي للجيل الآتي ؟
يا نجم الليل الجواب
رفقا وترفق بي
فأنا الليلة انهيت جميع الاحباب
رفقا وترفق بي
لا تشمت بي قلب الناس .. .
لا تحك لهم ان الكاس
فاضت مني ..
تذكر انـي
وجه ملوي النظرات
اترى جئت لتسمع مني الصرخات ؟
ام جئت لتهديني ؟..
... كلا ، اغرب عني
امض ... والعنّي..
فسأنهي الليلة اقماري .
قف . : لا تقرب من اي جدار ...
عفوا ان كنت اغض الطرف ..
اني ابحث عن ظلي في ماء الفسقيه
... لكن يا نجم الليل الجوّاب
ها انت هنا تتبعني في الماء
فاشح ضوءك عني
ابعد عن وجه الماء ...
فلماذا » صارت حبلا كي اشنق ظلي
وانا الح رأسي في الانشوطه
وانا اسمع صرختهم في الزفه
وانا الح رأس المأفون يشيعني بالبسمات ..
و « لماذا » ... اني المحها كالانشوطه
في سطح الماء
وانا الح رأس المأفون بداخلها في الانشوطه .
فلماذا لا اقتله واموت ؟
ولماذا لا اقتلها واموت ؟؟!
ولماذا لا اقتله واعيش
وتعيش ؟؟؟
يا بلد الاعلانات ،
يا بلد الفترينات :
اني الليلة قررت أعيش ..

القاهرة **مجاهد عبد المنعم مجاهد**

حرية العقل في الدولة الحديثة

بقلم هارولد ج. لاسكي
ترجمة وتلخيص محمد السيد الأطرش

– ١ –

تعتمد الحرية في بقائها في اي مجتمع من المجتمعات على وجود جماعة يصممون على ذلك . فالمعرفة بأن اي تهجم على الحرية سيقابل بالمقاومة من قبل جماعة يصرون على وجودها ، هي خير ضمانة لدينا . فسر الحرية اذن هو الشجاعة في مقاومة الطغيان .

ان اهم مظهر من مظاهر الحرية هو مظهر حرية العقل بغير شك . فالمواطن يفتش عن سعادته ، وليست الدولة بالنسبة اليه الا مؤسسة تجعل سعادته ممكنة . فهو يحكم عليها بناء على قدرتها على تحقيق هذه الحاجات التي يعرفها بواسطة تجربته التي لا يشاركه فيها احد ، والتي تتميز بفرديتها . وما يطلبه المواطن ، بحق ، من الدولة هو ان تضع تجربته بعين الاعتبار حين ترسم سياستها . ولكي تفعل ذلك ، عليه ان يكون قادرا على التعبير عن تجربته بحرية . وينشأ من هذا ان حق المواطن في الكلام عن تجربته وطباعتها ونشرها ، شيء اساسي بالنسبة للحرية ، اذ بدون حرية العقل والاجتماع ، ليس لدى الفرد وسيلة لحماية نفسه في نظامنا الاجتماعي . لان انكار حقه في هذه الاشياء ، حتى ولو كان كلامه او تعبيره ضارا ومخالفا لاراء الاغلبية ، هو انكار لحقه في السعادة . فعندما نمنع حرية التعبير تكون قد منعنا نقد المؤسسات الاجتماعية . فالاراء التي توضع حينئذ في عين الاعتبار تكون تلك المتفقه مع آراء الحاكمين . فيؤخذ السكوت على انه رضى ، وتصبح القوانين معبرة فقط عن آراء الحاكمين لا عن تجارب الافراد وحاجاتهم . والتاريخ يعلمنا أن الطغيان كان نتيجة لانكار حرية العقل .

اني ارغب في ان ابرهن هنا نظرية ذات شقين ، اولا ان حرية التفكير والاجتماع خيرة بذاتها ، وثانيا ان انكارها ليس الا وسيلة لابقاء بعض المصالح الخاصة المضرة التي لا يمكن أن تعيش في جو من الحرية . وسأناقش بعد ذلك القيود ، اذا وجدت ، التي يجب فرضها على حق الحرية ، والظروف الضرورية لتحقيقه . وسأبرهن ، خاصة ، ان كل القيود التي تفرض على حرية التعبير ، لكونها تحرص على شيء او تكفر بشيء ، هي ضد سعادة المجتمع .

من السهل ان نبين ان حرية التفكير خيرة بذاتها ، لانه اذا كان من واجب الحكام ارضاء حاجات المحكومين ، ضمن الواضح ان الاولين يجب ان يعلموا عن هذه الحاجات ، وهذا لا يتم الا اذا كان المحكومون احرارا . فالدولة لا يمكنها ان تضع قانونا صائبا يحدد ساعات العمل اذا استمعت الى اصحاب الاعمال دون العمال ، لان القانون يجب ان يأخذ جميع خبرات الافراد بين الاعتبار ، وهذا لا يتم اذا وضعت قيود على حرية التعبير . فالشيوعي او الكاثوليكي في الحقيقة لا يكفان عن الاعتقاد بمبدأهما اذا منع التعبير عنهما ، بل يزداد تمسكا برأيه في ان المجتمع ذو اساس فاسد ، ويزداد سعيا في اختراع طرق للتعبير عن ذلك . والارهاب لا يغير الفكرة وانما يزيدها قوة ويجعلها معلومة لجماعة لم يكونوا ليهتموا بها من قبل ، اذ يجعلهم يوجهون اهتمامهم اليها ليعرفوها . فاضطهاد الحكومة الانكليزية للشيوعيين سنة ١٩٢٥ ومحاكمتهم بتهمة التحريض ، جعلت كثيرين من الانكليز ، الذين لم يكونوا يهتمون بمعرفة الشيوعية ، يسمعون ويعلمون عنها الكثير من مطالعتهم في الصحف عن سير المحاكمة والتعليق على نتائجها .

فالحكومة لا يمكنها قمع دافع الفضول عند الانسان ، لانه يوجد دائما نوع من السرور النفساني في معرفة المحظور . ولم تكتشف حتى الآن طريقة من طرق الاضطهاد لا تعطي شهرة للشيء المضطهد . فالحقيقة الجديدة تبزغ دائما في رأس فرد قبل ان تصبح حقيقة لدى المجموع والعالم لا يكسب شيئا من مجرد رفض احتمال كون احدى الافكار الجديدة صحيحة . فنيرون لم ينجز شيئا باضطهاده للمسيحية ، وكل نقد يوجه الى موقفه يمكن توجيهه الى كل من يقف هذا الموقف من الاراء الجديدة .

واسباب كرهنا لاضطهاد الراي هي : اذا كانت وجهة النظر المعتنقة غير صحيحة فالزمن كفيل بكشف بطلانها الذي لا يظهر لان السلطة ارادت ذلك . واذا كانت صحيحة جزئيا فالتفريق بين الصحيح منها والباطل لا يتم الا في جو حر من المناقشة العقلية ، حيث النقد المعقول يشرح الفكرة فيدفع معتنقي القسم الباطل منها الى الدفاع عنها باظهار الاسباب العقلية لاعتقادهم بها . اما اذا كانت وجهة النظر المعتنقة صحيحة باكملها ، سواء كانت عن الزواج ، عن الملكية ، عن الدين ، ام عن شكل الدولة ، فهي تتطلب تغيرا تاما في نظرة الفرد والنظام الاجتماعي

ان الافكار الباطلة لا تعيش ، انها تعرقل الاكتشاف وتقلل من السعادة ، وتساعد اولئك الذين يستفيدون من وجودها ولكن على حساب المجتمع ككل .



وهنالك سؤال اخر يتعلق باولئك الاشخاص الذين توكل اليهم مهمة اختيار ما يجب منعه. ما هي المؤهلات التي تخولهم ذلك ؟ وما هي الاختبارات التي يطبقونها ليعلموا المرغوب في منعه ؟ فمجرد الحماسة لاجل الصالح العام مؤهل لا يكفي ، لان اغلب الرقباء يحوون هذا المؤهل ومع ذلك فهم غير صالحين. فالرقيب يجعل نظرته الخاصة للاخلاق على انها الاخلاق المطلقة ، واي قاريء ينظر الى قائمة الكتب المحظور دخولها الى كندا يضطر الى الاعتقاد بان المشرفين على الرقابة من اسخف الناس . ولا اعتقد بان هناك انسانا ، مهما اوتي عقلا او حكمة ، جدير بالاشراف على الغذاء العقلي للبشر .

ولقد يمنع الرقيب بعض المطبوعات بحجة انها غير اخلاقية وخطرة ، ولكننا حتى الان لم نصل الى تعريف عملي لكلمة غير اخلاقي . فكتاب مس«راديكليف هول» « بئر الوحدة» «Well of Loneliness» الذي منع سنة ١٩٢٩ بحجة عدم اخلاقيته ، قد اعتبره رجلان كمستر ارنولد بنيت ومستر برنارد شو عملا مهما عالج موضوعا خطيرا بالنسبة للمجتمع فهما لم يجد سببا يحملهما على الاعتقاد بان معالجة موضوع كالتحول الجنسي يشكل خطرا . ورغم اعتناق الرقيب وجهة نظر مخالفة تماما ، غير انني لست مستعدا لان اعتقد بانه اقدر من مستر بنيت ومستر شو في معرفة ما يشكل خطرا على الاخلاق . وكذلك الامر بالنسبة لرواية د. ه. لورنس « عشيق ليدي تشاترلي » Lady chatterley's Lover التي وزعت سريا بشكل طبعات خاصة وثمينة، رغم اعتبار بعض النقاد الامريكيين لها كأحسن مثال لرواية تبحث عن الحقيقة في العلاقة الجنسية بين الرجل والمراة . والحقيقة انني لا اعلم كيف نكون موقفا صحيا نحو الجنس اذا كان كل ما يعالجه بصراحة وجراة يمنع ، بحجة انه غير اخلاقي وخطر . فالرجال الفضلاء الذين ينكمشون عن معالجة أمثال هذه المواضيع بصراحة ، مسؤولون عن الالام التي يعانيها البشر . فما يسمونه « براءة وطهرا » ليس الا جهلا فاضحا يسد على الحرية طريقها ، ويسجن الشخصية الانسانية بشكل لا يغتفر .

واني اقف نفس الموقف في قضية ما يسمى كفرا ، انني لا احبذ الرأي الذي يهاجم معتقدات الاخرين الدينية ، ولكني لست مستعدا للموافقة على كبته ، فالتاريخ يعلمنا انه لا يوجد حد لتلك الاراء التي يضطهدها رجال الدين بحجة انها كفر ، وكل هيئة دينية تعني بما هو كفر اي تهجم على معتقداتها الاساسية . ونحن الذين نقرأ كتاب بين « عصر العقل » Paine's Age of Raison معجبين بمنطقه ، واسلوبه ، وجرأته في طلب الحقيقة ، لا يمكننا ان نتمالك انفسنا من الاحساس بالرعب حين نفكر بتلك الايام التي كان يتداول فيها بشكل سري ، وحين كان مجرد اقتنائه يعتبر خطرا .

وحقيقة اخرى يجب اخذها بعين الاعتبار وهي : اذا كنا نعتبر بعض الاراء كفرا لانها تهاجم مبادىء دين من الاديان وتسبب اذى لقسم كبير من المواطنين ، لهذا فيجب علينا اخمادها ، فلأي مدى نحن مستعدون لتطبيق هذا المبدأ ؟ فكثير من الدعايات الدينية تسبب اذى لكثير من العقلاء الذين لا يستسيغون الانتماء الى مذهب ديني . وهكذا اذا استمررنا في حملة المحظورات هذه ، نرى اننا لم نترك مجالا لظهور اية اراء اجتماعية جديدة .

وليس هذا كل شيء ، ففي عالم التعليم تواجهنا دائما مشكلة تقرير الكتب المدرسية التي تعبر عن الاراء « الصحيحة » . ففي عالم الاقتصاد والسياسة مثلا نرى الطلب يزداد الحاحا على تعليم الاراء « الحقيقية فقط للطلبة غير البالغين ولكن الاراء « الحقيقية » تظهر عند الامتحان انها تلك التي تناسب جماعة من الجماعات لغرض خاص . وقد كنا نعتقد في جامعة « لندن » بان نظرية القيمة الحقيقية هي التي عبر عنها البروفسور «كنعان» في اعماله ، بينما تعتقد « كمبردج » انها تلك التي عبر عنها « مارشال » و « بيجو » ، اما الكليات العمالية فتعتقد بأن الحكمة النهائية مجسدة في كتابات « ماركس » و «كنعان» وترفض نظرية « مارشال » و « بيجو » بحجة انهما خادما البورجوازية الرأسمالية .

هل نربح شيئا باعتقادنا ان الحقيقة توجد عند فريق معين ؟ او ليس من الحكمة ان نبدأ بالاعتراف بأوجهها المتعددة ؟ اليس ذلك يعني حرية غير محدودة في تفسير الحقائق ؟ لان الحقائق ، كما قال وليم جيمس ، لم تخلق حرة ومتساوية ، فيجب ان نفسرها اذن على ضوء خبراتنا . ولا اعتقد بانه من الحكمة ان نفرض خبراتنا على غيرنا .

لقد حصرت مناقشتي حتى الان في المجال غير السياسي للحرية ، وقبل ان اتناول المجال السياسي بالمناقشة اريد ان الخص موقفي وابين الحد الوحيد لحرية التعبير ، الذي اعترف به . فلقد انكرت جميع القيود السابقة على حرية التعبير لانه لا يحق لاي انسان ، مهما كان حكيما ، ان يحدد ماذا يجب ان يفكر به الناس ويكتبوه . فاضطهاد الاراء لا يعني منع الاراء غير الصحيحة وغير الاخلاقية بل منع «الآراء» التي لا تسر القائمين على الحكم وعلى شؤون الرقابة.

وحرية التعبير هذه تعني ، بصورة عامة ، حرية احدنا في التعبير عن رأيه حول مواضيع عامة يعنى بها الجمهور لا حول اخلاق اشخاص معينين فليس لي حق التعبير عن ان « براون » يغش مستخدمه الا اذا كنت قادرا على برهنة صحة ذلك اولا ، وكان لتعبيري عن ذلك اهمية عامة ثانيا ، كأن يكون « براون » مرشحا لمنصب عام مثلا . اذ ليس لي الحق في ان اسبب الما غير ضروري لشخص من الاشخاص الا اذا كان في ذلك مصلحة عامة .

— ٢ —

والان لانتقل لمناقشة حرية الرأي في الحقل السياسي. الى اي مدى يحق للفرد مهاجمة النظام الاجتماعي ؟ هل هناك فرق بين الكلمة المطبوعة والكلمة الملفوظة، وبين الاوقات العادية والازمة كاضراب عام او حرب مثلا ؟ ومتى يحق للسلطة ان تتدخل لتقوم بمهمتها الاولى وهي المحافظة على

الامن ؟

من المتفق عليه بصورة عامة ان نقد المؤسسات الاجتماعية متفاوت الدرجات . فالقانون يجب الا يستعمل ضد الشيوعي الانكليزي اذا كتب كتابا او طبع منشورا يدعو فيه الى الثورة، لان التاريخ ينبئنا بانه اذا منعت الحكومة الكتابة التي تبرهن ان الثورة مرغوبة ، فانه لا يستغرب ان تمنع كل ما لا يدعو الى تقديس النظام الاجتماعي . ولم تكن الصحافة تضطهد ايام موسوليني لانها كانت تنتقد نظامه بل لانها لم تكن تمدحه كما يجب . فانا اختلف مع لينين في تحليله لطبيعة الدولة الحديثة ، ولكني اعتقد بانه من الواجب ان نجعل نقده معلوما للمجتمع لانه يعبر عن تجربة سياسية . والحكومة التي لا تشعر بالنقد تضيع عليها الفرصة لارضاء الناقد .

فالاضطهاد لا يقنع احدا ، وكل ما يفعله هو انه يجبر الجماعة على اليأس ويملأ الجماهير كراهية . فالذين يمنعون من التفكير حسب خبرتهم يتوقفون عن التفكير بتاتا ، ويصبحون مجرد آلات تتلقى الاوامر دون تفكير ، وهذا ما يجعل السلطة تخطيء فتظن سكوتهم رضى .

فالحكومة التي لا تنتقد تفشل في النهاية لانها عمياء عن حاجات المواطنين . والفكرة السياسية ، مهما تكن خاطئة ، لم تخلق من لا شيء وانما تعبر عن حاجة وتجربة .

ومن المناسب هنا ان اتعرض لمظهر خاص من مظاهر حرية الراي المطبوع وهو ما يتعلق بقوات الدولة المسلحة : فكثيرون ممن يؤمنون بالحرية يستثنون حرية المطبوعات الموجهة الى القوات المسلحة . ولمعظم الدول تشريع خاص يعاقب بقسوة كل من يحاول اثارة استيائها .

وانا اعتقد بانه ليس لهذا الاستثناء ما يبرره لان القوات المسلحة تتألف قبل كل شيء من مواطنين . فاذا أثار منشور مطبوع استياءهم فمعنى ذلك وجود ما يستاؤون منه ، وعلى الحكومة العمل على تلافي ذلك . لان من يقدر على زعزعة اخلاص من تعود على الطاعة ، يعتقد مسبقا بأن فلسفته توافق حاجة بشرية تتطلب التحقيق .

لا يمكننا ان ننكر وجود فرق بين حرية الراي المكتوب وحرية الراي الملفوظ . ففي الحالة الاولى يحاول الفرد اقناع غيره باللجوء الى مناقشة عقلية تتطلبها مقتضيات الكتابة . اما في الحالة الثانية فالامر مختلف تماما . فالخطيب الماهر في جماهير غفيرة قادر ببساطة على أحداث الفوضى اذا رغب ذلك . ولا يجب ان نترك الحكومة تحت رحمة امثاله ، لهذا فيجب اعطاؤها الحق في حماية نفسها ضد كل ما يخلق الشغب عن هذا الطريق . ولكن لا يحق لها ان تزعم بان الشغب قد حدث نتيجة لاي اجتماع ما الا اذا قدم البرهان لسلطة مستقلة على ان الخطاب الذي القي في الوقت المعين وفي الظروف المعينة انتهى حتما باحداث الشغب . والحد الاقصى للمنع الذي يسمح للحكومة بمزاولته ، هو معاقبة المتهم اذا وجدت صلة مباشرة بين خطابه والشغب الناتج .

– ٣ –

ينظر البعض الى هذه الاراء التي وضعتها على انها معقولة اذا كان تطبيقها يقتصر فقط على الظروف العادية . اما خلال الازمات ، حين تكون سلامة الدولة معرضة للخطر ، فاعتبارات اخرى يجب ان توضع تحت النظر . اذ للدولة الحق في اتخاذ جميع الوسائل لازالة الازمة .

وانا لست قادرا على المشاركة في وجهة النظر هذه ، اذ علينا في الحقيقة ، ان نعالج موقفين مختلفين . فهناك، اولا مسألة المبادىء التي يجب تطبيقها خلال فترة من العنف الداخلي ، وثانيا مسألة تقييد حرية التعبير زمن الحرب . وأنا اوافق دون تردد على انه من غير المعقول ان نطالب بحرية التعبير اثناء حرب اهلية لسبب بسيط وهو عدم وجود احد يسمع لهذا الطلب . فالحرية والعنف متعارضان بطبعهما. واحب هنا ان ابين ان الثورات تفشل ، بصورة عامة ، لان القائمين بها يمنعون الحرية عن اخصامهم . فعندما لا يطلعون على النقد ، يجهلون الحدود التي يجب ان يمارسوا ضمنها سلطتهم ، وهكذا يفقدون قوتهم لانه لم يوجد احد يخبرهم عن اساءتهم لاستعمالها . فالثورات ، كما يخبرنا التاريخ ، لم تكسب شيئا من اضطهادها لمعارضيها .

وعندما يستقر الامر بعد الثورة او الحرب الاهلية ، تواجهنا اسئلة على غاية من الاهمية . وهي ما اذا كان سيتبع اعادة الاستقرار جو من المناقشة الحرة ، عن طبيعة السلطة التي يحق للعسكريين ممارستها بالنسبة للافراد العاديين الذين لم يشتركوا في الثورة المسلحة .

وعندي انه يجب ان يتبع اعادة النظام ، عودة الامور حالا الى حالتها الطبيعية وان يطبق مبدأ الاشراف القضائي ، والا يجب على السلطات العسكرية ، اللهم الا حيث يعجز القضاء العادي عن تطبيق تشريعه ، ان تمارس اي سلطة بالنسبة للمواطن العادي . ولست اعرف حادثة — لم تسيء فيها الدولة استعمال سلطتها عندما مارستها بصورة استثنائية، خارج حدود القانون . فلقد أسيء استعمالها في الحرب الاهلية الامريكية رغم اشراف رجل انساني كلينكولن عليها. والحقيقة التي تواجهنا دائما هي ان السلطة يساء استعمالها دائما عندما تعهد مهمة السلطة القضائية التي هي الاشراف على صيانة العدالة ، الى فرع من فروع السلطة التنفيذية كالمحاكم الخاصة مثلا . « فعدالة » السلطة التنفيذية ليست الا انكارا للعدالة . والعمل على استتباب النظام بواسطة هذه الطريقة يكلف ثمنا غاليا .

اما حالة الحرب ، فتشكل نوعا خاصا من انواع الاضطراب ولهذا فهي تثير اعتبارات جد مختلفة . فكونك ضمن ساحة القتال يلغي فرديتك ، ويلغي كونك مواطنا ، فلا ينظر اليك في تلك الحالة الا كمجرد وحدة من وحدات الهجوم او الدفاع ، فلا امل لك اذن في الحرية .

ولكن دعنا نأخذ موقف مواطن اشتركت دولته في الحرب. ما هي حقوقه وواجباته ؟ وعندي ان اشتراك دولته في الحرب لا يغي صفته كمواطن ، وبالتالي فحقوقه وواجباته لا تتغير بل تزداد اهمية . فاذا كانت الحرب قد اعلنت لغرض نبيل فمن واجبي ان اؤيدها ، واذا كانت خلاف ذلك فمن واجبي ان اعارضها . وليست معارضة مستتر

رمزي مكدونالد لحرب ١٩١٤ الا تأدية لواجبه كمواطن . كما انه ليس من حق الحكومة اضطهاد الرأي في وقت هي في اشد الحاجة اليه .

ويتعلل معارضو الحرية اثناء الحرب ، قائلين بان الرأي المعادي يعرقل نجاح العمليات الحربية ، لذلك يجب منعه . ولكن ماذا تعني كلمة « الرأي المعادي ؟ هل تعني الرأي المعادي لفكرة اعلان الحرب ، لطريقة اعلانها ، ام للغرض من اعلانها ؟ اليس من الافضل ترك من يعتقدون مثلا بان السلم عن طريق المفاوضة اجدى بكثير منه عن طريق النصر،أحرارا يعبرون عن آرائهم . والتجربة تعلمنا ان كبت الحرية اثناء الحرب يعني اعطاء السلطة التنفيذية سلطة مطلقة ، وهذا ما يجعلها تقترف جميع الاخطاء الطبيعية للديكتاتورية . فهي تمنع عن الشعب المعلومات الضرورية ليحكم على سياستها ، وتستعمل فن الدعاية لتعطيه صورة غير صحيحة عن مركز جيوشه مثلا ، وهذا ما يجعلها قادرة على خداع اصدقائها دون اعدائها . فتصوير المانيا في حرب ١٩١٤ لشعوب الدولة المعادية عن طريق الدعاية بانها الدولة المعتدية المسؤولة عن الحرب ، رغم معرفة سياسيي هذه الدول المسؤولة لا تقع فقط على المانيا ، بل ان مسؤولية بعضهم كروسيا مثلا لا تقل عن مسؤولية المانيا ، جعل هذه الشعوب تمتليء كراهية لالمانيا مما جعل توقيع صلح عادل مستحيلا لان ذلك يجعل شعوب الدولة المحاربة لالمانيا تعتقد بأنها قد خدعت . وكانت معاهدة « فرساي » .

واخيرا يمكننا ان نقول انه اذا لم تكن سياسة الدولة التي تعمل على اعلان الحرب ، تحوز رضى المواطنين ، فليس لها الحق في اعلانه ، وعلى الدولة ان تعيد النظر في سياستها اذا كان المعارضون يشكلون قسما كبيرا ، اما اذا كانوا اقلاء ، فلا يوجد داع لكبت آرائهم اذ لا فائدة للمجتمع من ذلك . لقد ناقشت حتى الان الحرية السياسية بالنسبة للفرد مواجها المجتمع والدولة ، ولكن الفرد لا يعيش منعزلا ، وانما يلتحق بجماعات يشترك معها في نفس الاراء والمباديء ، فيعملون على اقناع المجتمع بصحتها ، بل على فرضها عليه في بعض الاحيان . والمسألة التي يجب معالجتها هي مدى السلطة التي يحق للدولة ممارستها بالنسبة لهذه الجماعات . ماهي حقوقها (١) مثلا اذا اعلن مؤتمر النقابات الاضراب العام ؟ وهل تتغير هذه الحقوق اذا كان غرض الاضراب صناعيا او سياسيا ؟ وما هي حقوق الجماعات التي تؤدي عملا اساسيا بالنسبة للمجتمع ؟ وماذا يجب ان يكون موقف الدولة بالنسبة لجماعة تدعوك الى الثورة بواسطة القوة ، وهل هناك فرق بين جماعة يعملون على احداث ثورة بالقوة واخرى تكتب مرغبة في ذلك ؟

ولعلك ترى ان هذه الاسئلة ليست سهلة الاجابة ، بل انني لا اعرف ان علم السياسة قد عالج اسئلة اصعب منها .

هل هناك ما يبرر موقف الحكومة في تقييد حرية الاضراب ؟ وقبل الاجابة سأضع الجانب الفقهي من المسألة جانبا ، وسأحاول اكتشاف عدالة المباديء العامة التي تكمن خلف القضية . وهذه المباديء ، كما اعتقد ، اربعة :

المبدأ الاول يعطي للدولة الحق في ان تمنع اي اضراب عام لانه ليس الا محاولة اجبار الدولة ، بصورة مباشرة بجعلها تسن بعض القوانين التي لم تكن لتسن دون ذلك ، وبصورة غير مباشرة باجبار الرأي العام الذي يتحمل المتاعب ، على التأثير على الدولة . فالطريق للحصول على بعض المطالب ليس استعمال القوة الصناعية بل استعمال صندوق الاقتراع . وبما ان واجب الدولة هو العمل على تحقيق السعادة للمجتمع، فعليها ان تمنح كل ما يعرقل ذلك .

ولكني لا اعتقد بان المشكلة بهذه البساطة . فانا اوافق مثلا على انه ليس لمؤتمر العمال الانكليز الحق في ان يدعو الى اضراب لجعل بريطانيا دولة أتحادية ، وبما انه لا يوجد احد يعتقد بان ذلك ممكن الحدوث ، فالمنع لا مبرر له اذن . ولكني لا اوافق على ان اضرابا عاما لا مبرر له اذا كان يهدف الى ثماني ساعات عمل في اليوم . والمطلع على طبيعة نقابات العمال يعلم بانهم لا يستعملون سلاحا خطيرا كالاضراب العام ، الا عند الحاجة القصوى . فنزعه منهم ليس الا تدخلا في حريتهم وفرض العبودية الصناعية عليهم ، ولا يحولني عن رأيي هذا الاعتراض بان ذلك يتضمن اجبارا للحكومة ، لان هناك ظروفا تجعل اجبارها ضروريا . ولم يكن اضراب ١٩٢٦ ليحدث في بريطانيا لو ان نقابات العمال لمست روح العدالة في حكومة مستر بلدوين .

وانا لا انكر ان الاضراب العام يسبب ضررا للمجتمع ، ولكن سلاح العمال عندما يفتشون عما يعتقدونه عدلا هو احداث الضرر للجمهور كي يحس بمسؤولياته . فعندما يشعر بانقطاع التيار الكهربائي ، وبتوقف القاطرات يطالب بالعمل على تلافي ذلك ، وليس هناك طريق اخر لدى العمال لاشعار الشعب بمطالبهم .

ويمكننا ان نجيب اولئك الذين يوافقون على حق العمال في الاضراب لاجل غرض صناعي وينكرونه لاجل غرض سياسي ، بقولنا انه لا توجد طريقة ناجعة تمكننا من الفصل بين ما هو صناعي وما هو سياسي . فالمسائل المتطرفة سهلة الفصل ولكن هناك عددا لا يحصى من المسائل المتشابكة التي لا يمكننا ان نفصل ما يمت الى الصناعة عما يمت الى السياسة فيها . واي منع للنقابات من مزاولة حقوقها فيما يتعلق بهذه المسائل ، هو اعتداء على حريتها . فسر تجنب الاضرابات العامة لا يوجد في منعها بل في ايجاد تلك الشروط التي تجعلها غير ضرورية . وانا لا انكر هنا ان حق الاضراب يمكن ان يساء استعماله ، ولكن هذه طبيعة الحرية . فالبرلمان مثلا قادر على ان يسيء استعمال سلطته ، اذ له القدرة القانونية على حل النقابات ، وتحديد عضوية البرلمان للمالكين . ولكننا نعلم انه من غير المرجح ان يفعل ذلك . ونفس الحقيقة تنطبق على حرية اعلان اضراب عام .

والمبدأ الثاني هو ان للحكومة الحق في منع موظفيها من الاضراب او الانتماء الى اي حزب سياسي يجعل حيادهم الضروري غير ممكن . لهذا فاني اعتقد بصورة عامة بان لها الحق في تقييد حريتهم ، وخاصة حرية القوات المسلحة من جيش وبحرية وبوليس ، لانه اذا اعطي لهذه القوات الحق في ان يستنكفوا عن العمل متى يريدون فان ذلك سيضع الدولة في مركز حرج . ومن المهم بالنسبة للحكومة حين

(١) الضمير يرجع للدولة

تقيد حرية موظفيها ، ان تجعل شروط عملهم عادلة . ولكي تكون كذلك يجب ان يتحقق شرطان : اولا يجب على الحكومة ان تضع في عين الاعتبار عند تطبيق القيود على حرية موظفيها حالة هؤلاء بينها وبين موظفيها بل يجب ان يكون هناك مرجع اعلى يلجأ اليه عند الحاجة . فكون السلطة التنفيذية الحكم النهائي في قضية هي طرف فيها ، يجعل من العسير الوصول الى تسوية عادلة .

واعتقد هنا ــ اذا وضعنا قوات الدولة المسلحة التي تشكل حالة خاصة ، جانبا ــ ان اعتبارات مختلفة تظهر بالنسبة لموظفي الدولة سواء المركزية او المحلية . فاية حكومة تتألف من ثلاث طبقات من الموظفين : ــ اولا جماعة قليلة تهتم برسم سياسة الدولة العامة ، ويلي هذه الطبقات في الرتبة ، ثانيا ، طبقة اخرى تبلغ ثلاثة اضعاف الطبقة الاولى تقريبا ، كما في انكلترا ، مهمتها جمع المعلومات والمواد اللازمة لتصميم السياسة العامة ، اما الطبقة الثالثة فتتألف من جيش جرار من الموظفين يزاول مهمة رتيبة شبه ميكانيكية . والحكومة بالنسبة لهذه الطبقة الثالثة لا تختلف عن صاحب العمل اذ ان حالة السوق تتحكم في مستوى اجورهم . فمصالحهم اذن تتحد مع اولئك الذين يزاولون نفس اعمالهم خارج نطاق الحكومة . لهذا فلا ارى مبررا في منعهم من الاتحاد مع غيرهم ، بل انني ارى انه يحق لهم الاضراب عندما يستنفدون جميع وسائل التسوية . فعندما تحدد شروط عمل هذه الطبقة من الموظفين بواسطة سلطة مستقلة ، يجدون انه لا داعي لاستعمال حقهم الاخير وهو الاضراب .

هل يحق للموظف مزاولة اي نشاط سياسي ، اي ان يتمتع بجميع حقوق الموظفين في منشئات خاصة ؟ ان معظم الدول الحديثة كانكلترا او كندا تحظر على موظفيها ذلك بينما لا تكاد فرنسا تحد من حرية موظفيها في هذا المجال . اما انا فاعتقد بان هناك حلا معقدا للقضية وذلك لوجود طبقة من الموظفين تقتضيهم طبيعة عملهم البعد عن الحياة السياسية . فمزاولتهم لاي نشاط سياسي تلزمهم الاستقالة من خدمة الحكومة . فوزير الخارجية مثلا لا يمكنه التعامل مع وكيل وزارته المعتنق لمبدأ حزب المعارضة . على اننا يجب ان نضع هنا خطا فاصلا ، اذ لا أرى مبررا لمنع الطبقة الثالثة من الموظفين من مزاولة حقوقها المدنية اذا روعي الاعتدال والتعقل في ذلك . وهذا لا ينطبق ، بالطبع ، مع اولئك الموظفين الذين يصممون سياسة الدولة . فاذا لم تكن الحكومة واثقة من ان موظفيها الكبار بعيدون عن الروابط السياسية ، لا يمكنها ان تثق بهم ، وهذا ما يخلق نظام المحسوبية السياسية . لهذا فللحكومة الحق في تقييد حريتهم ، وبصورة اشد بالنسبة لقواتها المسلحة . فكون حرية القوات المسلحة غير مقيدة ، يجعل ولاءها يتجه الى حزب من الاحزاب ، لهذا فلا يمكنها تأدية تلك الخدمة الحيادية التي هي المبدأ الاساسي لوجودها . ومن الواضح ان التوجيه الصحيح للحياة السياسية يصبح مستحيلا اذا كان لقوات الدولة المسلحة حق الاشتراك في تكوينه . فأية علاقة بين السياسة والجيش ، تجعل الجيش هو الذي يقرر شخصية الدولة . وعندما يحصل هذا ، لا يأمل احد في الاستمتاع بالحرية السياسية .

والمبدأ الثالث يبرر تقييد حرية اولئك الذين يشتغلون في صناعات حيوية بالنسبة للمجتمع ، كصناعة النقل والتنوير . فبعض الكتاب يجادلون بان هذه الصناعات تستمد اهميتها من استمرارها ، فاي عرقلة لها تحطيم لقانون وجودها .

وتتلخص وجهة نظري حول هذا المبدأ بما يلي : ــ اذا كانت الصناعة الحيوية تدار من قبل الدولة فالظروف التي يجب تطبيقها هي التي تطبق على موظفي الدولة بصورة عامة ، اما اذا كانت تدار من قبل افراد فللحكومة الحق في التدخل لتقلل من فرص الاضراب ، ولكن ليس لها الحق ، في حالة حدوث اختلاف ، في ان تجبر العمال على قبول التسوية . لان المجتمع لا يكسب شيئا في المدة الطويلة من عمل يؤدى من قبل عمال يشعرون بالظلم . فالشعور النفساني بالاضطهاد مسمم للشخصية المتجانسة . لهذا فواجب الحكومة ليس المنع ، وانما ايجاد احسن الحلول التي تجعل سلاح الاضراب آخر ما يستعمل في نزاع . وهذا يمكن تحقيقه بالحد من ارباح اصحاب العمل ، اذ يجعل العمال ، اذا بينا لهم الظروف التي يمكن للمؤسسة ان تعمل فيها ، يفكرون كثيرا قبل ان يقدموا على استعمال حقهم الاخير . لهذا فنحن نحترم حرية النقابات بان نترك لها حرية اعتبار الحلول المقترحة غير عادلة ، بينما نصون المصلحة العامة بان نصر على ان حق الاضراب يجب الا يستعمل الا عندما تستنفد جميع موارد التسوية .

والمبدأ الرابع والاخير هو انه يجب على النقابات الا تعالج وتتخذ قرارات عن مشاكل ليست ضمن اختصاصها . لهذا فللدولة الحق في تحديد نطاق عملها ومنعها من ممارسة اي نشاط خارجه.

لقد برهنت من قبل على ان تحديد مجال نشاط النقابات مستحيل . فلا يمكننا مثلا منعها من الاهتمام بسياسة الدولة الخارجية لان هذه الاخيرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بسياسة الدولة الاقتصادية التي تحدد ظروف العمالة . وانا اوافق مثلا على انه يجب على النقابات الا تهتم بمسألة ما اذا كان البابا محقا في جعله الايمان بتحرر العذراء من الخطيئة الابدية من عقائد الكنيسة الكاثوليكية ، ولكن امكانية اهتمام النقابات بهذه المسألة ضئيلة جدا كامكانية اهتمام ناد لكرة القدم بسياسة الدول الخارجية . ونحن لا يمكننا وضع تشريع للحالات النادرة ، لان ذلك سيظهر عجز القانون . فالنقابات مؤسسات نامية ولم ينجح اي قانون في منع نموها . فهي لم تكن تعتقد سنة ١٩١٤ بان من واجبها الاهتمام بفائدة الحسم وسياسة الاعتمادات ، اما الان فهي تدرك بأن امورا كهذه من اهم ما يجب ان تعنى به. فأي تحديد لمجال نشاطها ، اذن ، هو اعتداء على الحرية .

والسؤال الاخير الذي اود مناقشته هو السلطة التي يحق للدولة ممارستها بالنسبة لجمعيات غرضها قلب النظام الإجتماعي. ما هي القوى التي يجب ان تملكها الدولة، ومتى يحق لها التدخل، وهل للدولة الحق في منع الجمعيات التي تعمل على قلب نظام الحكم بالقوة؟ ومن الواضح ان طبيعة الحرية تعتمد اعتمادا كبيرا على السلطات التي نمنحها للدولة في هذا المجال.

اعتقد بصورة مبدئية ان للدولة كل الحق في حماية نفسها من الهجوم. اذ يجب عليها كدولة ان تفترض ان حياتها تستحق الدوام، وان تطلب بان تكون التغيرات الاجتماعية نتيجة للاقناع السلمي لا للعنف. لهذا فعليها ان تعتقد بان اساس وجودها هو المحافظة على الامن والنظام ولكننايجب ان نفرقبين الجمعياتالتي تحاول سواء بالكتابة او الكلام اقناع الشعب بقلب النظام الاجتماعي بالقوة، وبين الجمعيات التي تحاولذلك. اذ ليس للحكومة الحق في اضطهاد الجمعيات التي تعتقد بان قلب نظام الحكم بالقوة مستحب، لان اضطهاد هذه الجمعيات لن يبنىعلى محاولة عنف قامت بها، وانما على الظن بان محاولة كهذه ستحدث يوما ما. اما متى يحق للحكومة التدخل فهو عندما تتحرك هذه الجمعيات للعمل الذي لا يمكننا تفسيره الا بانه تصميم لقلب النظام القائم. فانا اوافق الحكومة مثلا على ان تعتبر محاولة الحزب الشيوعي تدريب اعضائه على حمل السلاح، تهديدا للامن، ولكني لا اوافقها على منعه من التعبير عن عقيدته سواء بواسطة الكلام او النشر. اما اذا قدم للمحاكمة فيجب ان تبرهن الحكومة عن قيامه بعمل علني من شأنه احداث ثورة بصورة مباشرة. اذ لا يكفي قولها بان لحزب معين آراءه التي تدعو الى الثورة وبأنه قام بالثورة في بلاد اخرى، لكي تبرر اضطهاده. ومن المهم جدا ان تجري المحاكمة في محاكم عادية ويطبق القانون العادي، لان التجارب الاليمة علمتنا ان المحاكم الخاصة ليست الا وسائل للحصول على قرار بالادانة. فمجرد خلق محكمة خاصة يقنع المواطن العادي بان هناك اعتقادا مسبقا بادانة المتهم.

ان اي عمل نقوم به كي نحمي المحاكمة من سيطرة العواطف، هو دين علينا نؤديه للحرية، لان كل نظام اجتماعي مخاط بحماية من المتعصبين الذين يجعلون اية مخالفة لوجهة نظرهم، جريمة. واخر ما يرغب فيه هو ان نترك لهم مجالا لتعصبهم.

ـ الخاتمة ـ

ان كل دراسة للحرية هي دعوة للمسامحة وعدم التعصب Toleration وكل دعوة للمسامحة هي دفاع عن حقوق العقل. فالخطر الاكبر الذي يواجه المجتمع هو رغبة اولئك الذين يملكون السلطة في منع الاراء التي لا ترضي حب احتكارهم لها. فهم يعملون على ابقاء المجتمع ثابتا لا يتطور لان ذلك يمكنهم من تنفيذ مآربهم. وليست آراؤهم عما هو خطأ او صواب الا وسيلة للوصول الى تلك المآرب.

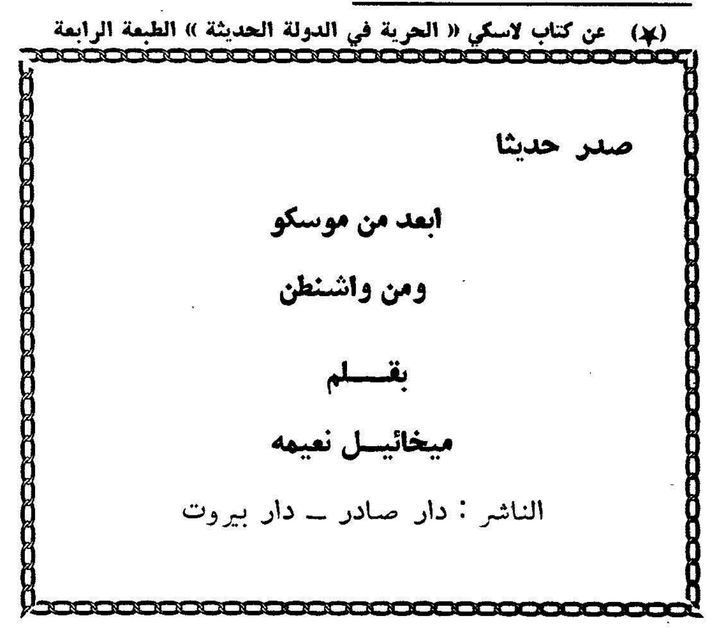
ولكن العالم ليس ثابتا، بل لا توجد وسيلة لجعله كذلك فنتائج الفضول والاكتشاف والاختراع، من طبيعتها وضع اي مجتمع لا يقبل بها في موقف حرج. لهذا فالمسامحة ليست مرغوبة لذاتها بل لانها تمكن اي مجتمع من تكييف نفسه بصورة سلمية لدوافع التطور. وهذا، بالطبع، طلب للكمال، فرضاء الذين يمارسون السلطة بوجود الاختلاف في الراي، والشجاعة للاعتقاد بان الحقيقة الخاصة ليست الحقيقة المطلقة، من اندر الصفات الانسانية. وهذا هو سبب كون اصدقاء الحرية اقلاء في كل مجتمع، وسبب كون المحافظة على الحرية شيئا يجب ان يحارب لاجلهدائما.

ان التعصب لم يتغير، وانما لبس اثوابا جديدة. فنحن ندعو الى المسامحة في حقل من الحقول كالدين مثلا، لننكرها في حقل آخر كالسياسة والاقتصاد. والاعتداء على الحرية لسبب اقتصادي او سياسي كالاعتداء عليها لسبب ديني، ولم يتغير الا الدافع على الاعتداء. فلكل عصر صنمه المعبود الذي يضحي على مذبحه حرية من يرفضون عبادته. والمتعصبون لموسكو كالمتعصبين لروما لا يختلفون الا في نوع معبودهم. ان المخلصين للماركسية في شكلها المتطرف لم يشكوا ابدا في حقهم ان يفرضوا اراءهم على الذين يرفضونها، حتى ولو كان الدم ثمنا لذلك. فاضطهاد الراي بحجة انه كفر كاضطهاده بحجة انه تعبير عن آراء بورجوازية خاطئة.

ان الراي الذي تؤيده جماعة معتبرة لا يمكن ان يضمحل. فهو سيحارب لاجل حقه في الانتشار مهما كان ثمن الصراع. وهذا الصراع غير ضروري بل انه في غالب الاحيان خطر، لان العقل وحده قادر على ارساء قواعد الحقيقة. وكل تنكب عن طريقه كسبيل للاقناع، محاولة لحماية الظلم. فحيثما يوجد احترام للعقل، يوجد احترام للحرية واحترام الحرية فقط هو الذي يعطي لحياة الانسان جمالا (*)

تلخيص: محمد السيد الاطرش

(*) عن كتاب لاسكي «الحرية في الدولة الحديثة» الطبعة الرابعة



أغنية نوبيّة

على بوابة البيوت
ورغم عتمة الظلال لن اموت
ففي فؤادي غفوة جناحها الذهيب
يهيب بي يهيب
أطير في شفافها لعالم رحيب
« يا اسمر الخدود »
ما اجمل الحياة حين نكسر القيود
يا أسمر الخدود
ويرجع الصدى جبال
بنفسجية الصخور والظلال
وموجة تحضن في ساعدها تلال
ويرجع الصدى نخيل
يا أسمر الخدود

***

يا غنوتي الذهيبة الجناح
مال الصدى على يديك ناح
ام ان هذى الحشرجات انة الرياح
ويرجع الصدى دموع
وبومة تغني في خرائب الربوع
ويرجع الصدى عجائز يشحن للبعيد
يرمقن عائدا من عالم سعيد
شواطيء الحقول المزهرات بالحفيف
الان يستملن وجه عالم مخيف
احترقت ظلاله ودوحه الوريف
وانَّ قلب عود
« ما اجمل الحياة حين نكسر القيود
يا اسمر الخدود »

***

جناحك الظليل
يا غنوتي يجري على يديه نيل
وموكب الصبايا والجرار في الاصيل
لكنما الجبال
على رؤوسها أكواخنا تصرخ في ابتهال
يا نيل يا آلهة النماء والجمال
يا اخوة الشمال
يا ذهبا تحضنه في جوفها الرمال
يا جنة الظلال
وشَّى على حقولنا الجديبةِ الربيع
لا تتركينا وحدنا نموت في الصقيع

***

أغنيتي ذهيبة يا اخوة الشمال
تضيء في بوابة معتمة الظلال
يا اسمر الخدود
ما اجمل الحياة حين نكسر القيود
ونبتني على انهارنا السدود
فلتورقى يا اوجه الصخور
ولتضحك الحياة بالافراح والحبور
ويهتف الجميع
عاشت بلادنا يا اخوة الشمال
عاش لنا جمال
ويرجع الصدى البعيد
يا اسمر الخدود
ما اجمل الحياة حين نكسر القيود
يا اسمر الخدود .

***

القاهرة — **تاج السر الحسن**

على هامش العروبة والمذاهب المعاصرة

الثورة بين النظرية والواقع

بقلم علي بدور

مشكلة الحياة العربية ، وحياة شعبها على الوجه الاخص ، انهـا حياة تتجسم فيها الآمال ، وينسحق الواقع تحت تحذير القرون الغابرة . ولا يقوم مثل هذه الحياة المعوجة في نظر بعضهم ، الا ذلك الخليط من الاخطار والآراء . وما دام الميت لم يدفن بعد .. فلماذا نجزم انه لن يعود حيا ؟! هذه هي المشكلة !!

والاستاذ ناجي علوش (1) لا ترضيه نوعا ما ، نظرتنا الى واقعنا العربي وعلاجاتنا المقترحة للنهوض به . انه يريدها ثورة على كل شي .. وثورته هذه ليست كثورة الشيوعيين او التحرريين او الاخوان او القوميين العرب . ويسرنا ان نعلن للاستاذ علوش اننا مبدئيا معه ، لاننا لا نريـدها كثورة الشيوعيين التي تنتهيبانتصار الماركسية . ولا كثورة التحرريين التي تبدأ بحرب صليبية .. وتنتهي بالدمار ، ولا ثورة الاخوان المفضية الى الخلافة .. ولا ثورة العروبيين هواة الالفاظ العاطفية التي تبدأ ثورة وتنتهي نكسة .. واذا كنا قد سايرناه ، ومشينا معه ضد هذه الانـواع من الثورات .. فاننا نامل ان يسايرنا وينذرنا اذا ابينا ان نمشي معـه في ثورته الخلاقة الفنية ، تلك التي هي انقلاب على كل شيء ، لانه ان كان قد لاحظ ان ثورتنا ضائعة في خضم الارتجال ، مجردة من النظرية ، فاننا نعتقد ان ثورته ان كان لها نظرية ، فهي مجردة من الواقع الذي تحيا فيه النظريات . هو يريد ان يثور . هذا مفهوم . وثورته هذه على كل شيء ، هذا مفهوم ايضا .. ولكن كيف تكون هذه الثورة ، وهذا هو العالم العربي مبسوط امامه باوضاعه المختلفة والاستعمار جاثم على اراضيه ؟ انه خيال ذلك غامض ، شديد الغموض . وانا ان كنت سوف اتعرض لذلك كله ، فانني اشكر للاستاذ علوش مبادهته ايانا بالارتجال .. فقد اشعرنا ان تذهيب العروبة لا يزال امرا غامضا لدى البعض ، وانـه لـدى الكثيرين فكرة ممكنة في ظل الاوضاع التي تسود عالمنا العربي الامر الذي يخالف الواقع ... والنظرية .. وكل ما هو جدير بالاحترام من الآراء والافكار .

ان الواقع شيء ، والنظرية شيء آخر ، مهما كان الواقع ، ومهما كانت النظرية . والناجحون في الحياة ــ افرادا وجماعات ــ ليسوا من انصار الواقع فحسب ، او النظرية فحسب ، انما هم الذين يستطيعون ان ينظروا في وقت معا الى واقعهم من خلال النظرية التي يؤمنون بها ، لتطوير هذا الواقع او لتغييره ، عندها تصبح العملية ، عملية خلق وابداع ، عملية بعث جذري عميق .

ان العالم العربي مجزأ ، هذا واقع . بعض دوله مستقلة استقلالا كاملا هذا واقع، وبعضها مستقلة استقلالا جزئيا ، هذا واقع . وبعضها مستعمرة استعمارا جزئيا ، وبعضها وهذا الباقي مستعمرة استعمارا كليا ، وهذا هو الواقع الاخير . وهذه البلدان كلها من الاطلسي حتى الخليج العربي، تؤلف وحدة عاطفية وفكرية وتاريخية بل واقتصادية ، ويدفعها شعورها بانها امة واحدة تطلب الوحدة بل الالحاح في طلب الوحدة .

هذا .. هو كل الواقع .

اما النظرية .. فكيف ينبغي ان تتحقق هذه الآمال كلها .. هذه الاحلام كلها ؟ كيف نستطيع ان نعجل باستقلال بعض الدول العـربية ، وكيف نحرر المستعمرة منها ، وكيف نجمعها في دولة واحدة او دولة اتحادية ، وكيف ننهض بشعوبها ، ونحارب اعداءها من ابنائها ، واعـداء ابنائها المخلصين ، من الاجانب . اننا لا نستطيع ان نضع النظرية قبل ان نستعرض بعض الاوضاع الخاصة في بلاد العروبة . لنعـرف امراضنـا بالدقة الواجبة ، وعندها نستطيع ان نضع النظرية لقلب هذه الاوضاع قلبا شاملا .

يوجد في قطر عربي ــ على شيء من التمايز لا يذكر ــ جماعة تنادي بالمعاداة لكل نظرية ينادي بها جماعة الشيوعيين او التحرريين او الاخوان، او القوميين العرب الاشتراكيين العرب . سواء اكانت هذه الجماعات منفردة او مجتمعة ، بالاضافة الى ان هذه الجماعات تعادي بعضها بعضا ، ولا تزال تلح في المعاداة ، كل منها يعتقد انه وحده المصيب ، وان الآخرين وحدهم هم المخطئون .

هذه حقيقة اولى !!

وعلى الصعيد الدولي ــ وما دامت بعض دول الاستعمار موطدة الاقدام في بعض بلادنا ــ دول استعمارية متعددة لها في كل بقعة مواطيء لقدم ، هذه الدول الاستعمارية توحدها المصلحة المشتركة اذا مسها في ارضنا الخيرة تيار الوطنية اللاهب . تأميم القناة كلها ضده . استقلال الجزائر كلها تعارضه ، وكلها بداهة مع اسرائيل وترسيخ اقدامها بين دول الشرق الاوسط ، وان كانت هذه الدول الاستعمارية اشبه بثلاثة رجال يجلسون على كرسي مشترك ليس ملكا لاحدهم . قد يحاول اثنان منهم طرح الثالث ارضا او يحاول احدهم طرح الاثنين الآخرين ، اذا سنحت لـه الظروف ، ما دام الوضع الداخلي في كل من هذه البلدان الثلاثة يهدف الى الاستقلال وحده بخيرات العالم وتسخيره لرفاهيته ومجده ، عـلى حساب العالم .. وحساب الزملاء الجالسين معه !!

هذه الدول الاستعمارية ، وقد بينا اوضاعها ، مشتركة ومنفردة ، لها في بلادنا ركائز من شعبنا ، هذه الركائز يتمثل بعضها في الحكومات او الهيئات او الاشخاص ذوي النفوذ ، حتى اننا من ناحية الفكرة القومية المجردة من كلا المذهبين ، نجد لبعض الدول الاخرى ، انصارا بين جماهير شعبنا كالمؤمنين بالماركسية .

هذه حقيقة ثانية !!

تصوروا امة تمتد من الاطلسي حتى الخليج العربي ، منها هذه الدول المجزأة . بعضها ملكي بحت . وبعضها ملكي دستوري . وبعضها جمهوري

1 ــ الثورة بين النظرية والارتجال ــ صفحة ٤٥ العدد الثامن .

نيابي ، وبعضها جمهوري رئاسي ، وبعضها امارات تحت الحماية ، وبعضها تحت الحماية المباشرة ، وفيها متفاوتة بعضها صناعية ، وبعضها زراعية، وبعضها عصبية ، والحضارة الحديثة ، منتشرة فيها بصورة متفاوتة ، بعضها تجمع حاضر القرن الحالي بل ابهى ما فيه كالتلفزيون ، ويجاوره - ولو على مبعدة عدة كيلومترات - محراث عصر حمورابي .. مجردا من تشريعه !!

هذه حقيقة ثالثة !!

الحقيقة الاولى تتصل بواقع الجماعات المتصدية لقيادة الراي العام وتناقض هذه الجماعات القيادية فيما بينها ، ونستطيع ان نسميها امراض القيادة !

والحقيقة الثانية تتصل بواقع الدول الاستعمارية على بلادنا ، وتناحر هذه الدول فيما بينها من اجلنا حينا ، واتفاقها علينا ، حينا آخر ، ونستطيع ان نسميها : امراض السيادة القومية !!

والحقيقة الثالثة تتصل بواقع تطورنا الاجتماعي غير المنسجم ، ونستطيع ان نسميها امراض التطور !!

بعد هذا كله ، كيف نستطيع ان نجابه امراض القيادة (وهذا اخطرها) وامراض السيادة - التي تقوى وتحافظ على بقائها ما دام مرض القيادة موجودا - وامراض التطور . كيف تكون معركتنا من اجل الوحدة والحرية والاشتراكية كما يريد الاستاذ علوش - وهذه الامراض الثلاثة لا تزال قائمة ، لا تزال تسعى ، بعضها من صنع الاستعمار ، وبعضها من صنع ايدينا ، وبعضها ناتج من كلا الامرين ؟ سوف نجيب عن هذه الاسئلة . علنا نرضي الواقع .. والنظرية ، والحقيقة اول كل شيء .. وآخر كل شيء .

قلنا ان النظرية اذا وضعت مجردة من امراض واقعنا وهي امراض القيادة والسيادة والتطور ، تصبح غثاء . والواقع بدون نظرية ، بدون فكرة ، بدون هدف ما ، يظل واقعا لا يتطور ، لا يناله البعث الجذري العميق . فاذا استعرضنا القيادات الفكرية في العالم العربي .. كلها ، بالاضافة الى عوامل نشوئها ... وتطورها ، مدها وجزرها ، وقعدنا ، مخلصين ، لنتأمل حركتها الفاعلة بالكيان العربي والمنفعلة به ، هالنا ان نجد تخطيطا مضطربا لهذه الافكار المتصارعة فيما بينها ، والتي تسعى للغلبة ، بعضها على بعض مع تسفيه قائم ولا يزال فيما بينها . عدا عن ظاهرتين لا يمكن اغفالهما ، هو ان كل هذه الافكار القائمة والتي يؤمن بها الافراد .. الذين ينضوون في جماعات - ان الظاهرة الاولى هي اقليمية المنشأ لهذه الفكرة ، مع آمال ضبابية بان تعم هذه الفكرة العالم العربي كله . والظاهرة الثانية ، نتيجة لهذه الاقليمية وهي ان كل فكرة مهما كانت رفيعة الاهداف ، نبيلة المقاصد ، فان رقعة موطنها الاول يجب ان تعادل اكثر من نصف الوطن الاكبر في مجموعه كي تتمكن في المستقبل من دخول زحمة الصراع ، عدا عن ان هذه الفكرة قد تفقد قيمتها اذا لم يؤمن انصارها بغير الوسيلة الديمقراطية لتحقيق فكرة الاتحاد بين الدول العربية . لعلها تفقد انصارها ، اعتبارهم في وطنهم الصغير ، بالاضافة الى تقويض كل اتعابهم السابقة لمجد هذه الفكرة وتخليدها .

اننا الان لا نريد ان ندافع عن احدى هذه الافكار .. او كلها . ولا نريد كذلك ان نهاجم احدى هذه الافكار او كلها ، لان ذلك ليس طريقنا البتة ، بل كل ما نريد ان نصنعه ، هو تخطيط سير هذه الافكار لنترك فرصة للقراء نرجو ان تكون ماتعة ، ليروا اذا كان عن طريق هذه الافكار المتنافرة كلها او بعضها يمكن تحقيق وحدة عربية . او حتى شبه وحدة عربية .

ان كل الافكار المتناقضة التي تدعو الى وحدة عربية - سواء اكانت جديدة بذلك في نظر الاستاذ علوش ام لم تكن - وكذلك كل الاحزاب والجمعيات المؤمنة بهذه الافكار ، انما جاء ذلك كله تكملة لامر غير ناقص . باديءالامر قامت هذه الاحزاب لتعمل على اساس التجزئة . وفي ادعائها انها لا تستطيع ان تتخطى الحدود لان التجزئة كانت ولا تزال قائمة بالفعل . ولكن تطور هذه الاحزاب كلها في العالم العربي يدل على انها تحجرت ضمن حدودها الصغيرة ، ولذلك فقد اضحت عاجزة كلية عن القيام بدور ايجابي في معركة التحرير الكبرى ، بعد ان شغلتها مصائر الفكرة التي تدعو اليها، وكذلك جزئيات هذه الفكرة ، والخلافات الحزبية الداخلية ضمن هذه الاجزاء المصطنعة من عالمنا الكبير .

والعالم العربي ، اشبه ببركة ماء . هذه البركة لو كانت تمثل دولة واحد قائمة بالفعل ، متخلصة من امراض القيادة ، ومرض القيـــادة هذا ناتج من مرض التجزئة ، لكان من الميسور ان تلقى الحصاة البسيطة التي تمثل الفكرة مهما كانت بسيطة ، لتشكل في الحال حلقة ، قد تشمل البركة كلها - الدولة كلها . ولكن هذه البركة مقسمة الى مربعات ، ومستطيلات ومثلثات ، وما عرف وما لم يعرف من الاشكال الهندسية - الممالك والجمهوريات والامارات العربية - وفي مثل هذه الحال مهما تكن الحصاة كبيرة .. حتى ولو كانت صخرة ، فان دائرة هذه الصخرة التي تحدثها في البركة لن تتعدى مركز سقوطها .. ان سقطت في مثلث ، اهتزت صفحة المثلث ، وان سقطت في مستطيل اهتز المستطيل .. وان سقطت في زاوية ، انفراجها على ضلعي البركة الخارجي ، فلن تهتز سوى هذه الزاوية ، ولكي تجعل فكرتك التي تدعو لها ان كنت من الشيوعيين العرب او القوميين العرب او الاخوان العرب او التحرريين العرب او الاشتراكيين العرب ، او العرب فحسب يجب ان تزيل مرض السيادة - وهو الاستعمار - ولكي تزيل مرض السيادة يجب ان تبدأ بمرض القيادة - وبعض هذه القيادات ضالع مع الاستعمار وخلاف هذه القيادات فيما بينها يخدم الاستعمار خدمات جلى - ومرض السيادة او مرضى السيادة - ان صح التعبير - ومرض القيادة او مرضى القيادة - ما دام التعبير قد صح - قد احتموا باكثر العروش .. والجمهوريات .. والامارات ، والمجالس النيابية في هذا الشرق العربي . وهذه الحتمية في النضال لا بد من ان تقودنا الى المناداة بعملية تنظيف كاملة ، تنسف هذه المؤسسات نسفا تاما ، كما حدث في مصر الثورة مؤخرا . اطاحة بالملك . حل مجلس النواب . تطهير واسع في الداخل ، تصفية كل اوكار الرجعية ، ثم الالتفات الى مرض السيادة بعد ان فقد اعوانه في الداخل ، فحمل عصاه ورحل . ولعلنا الان نستطيع ان نلتقي مع سيادة الرئيس جمال عبد الناصر في خطابه الذي القاه في افتتاح مجلس الامة المصري . لم تستطع ثورة مصر ان توجد ديمقراطية موجهة - او في مراتب الديمقراطية - الا بعد ان قضت على مرض القيادة - على الاحزاب القائمة كلها وهـذه الاحزاب بعضها عقائدي لا نشاط له .. وبعضها كله نشاط مجرد من العقيدة - وبذلك رفعت الحواجز الثانوية التي كانت ضمن حدود مصر . ولم تبدأ معركتها مع الاستعمار - مرض السيادة - الا بعد ان قطعت خطوط تموينه التي كان يجدها في الاحزاب المختلفة فيما بنيها ، وفي تعاون بعض هذه الاحزاب او الجمعيات او بعض من في هذه الاحـزاب والجمعيات ، معه .. حتى الانتخابات النيابية لم تجرها ثورة مصر الا بعد ان حررت - نوعـا ما - العامل والفلاح والموظف والتاجر الصغير ، من طغيان رب العمل ومالك الارض ورئيس الدائرة وسيطرة راس المال على

الحكم . والثورة ، اية ثورة ، لها هدف ، لا تلغى الاحزاب لانها تضيق بالمعارضة ، هذا تعليل سطحي بالقياس الى ثورة مصر واحزاب مصر . انها تلغي الاحزاب لانها جزء من مرض القيادة ، وجزء من مرض السيادة ، وجزء يعيق تقدم هذه الثورة خارج حدودها ، ما دامت تؤمن بالوحدة العربية والقومية العربية . ان حل الاحزاب من صميم نهجها في رفع الحواجز المصطنعة ليغدو الوطن حوضا واسعا ، وتطبيق مشاريعها واصلاحاتها وفق الحد الادنى الذي يجب ان يرفع .. والحد الاوسط الذي يجب ان يعمق ، ومراقبة تقدم الحد الاعلى من ذروة النشاط العام، وذلك كله السبيل الوحيدة لايجاد رأي عام موحد ، او شبه موحد ، لا يختلف بحيث لا تتنازعه عدة احزاب ودون ان تتنازعه عدة شخصيات متناقضة ، مضطربة ، لا ضابط لنشاطها ولا غاية من وجودها ، الا الاعلان عن الفراغ – والعقم ... والجمود !!

حتى الان تحدثنا عن الواقع الواقعي – ان صح التعبير – اما الواقع النظري – ما دام التعبير قد صح مرة اخرى – فانني قانع قناعة لا يداخلها الشك في ان العالم العربي لا يمكن ان يخطو به نحو الوحدة او الاتحاد، سوى نظام كنظام ثورة مصر . وانا قد ناديت بذلك في شتاء ١٩٥٤ لا في عام ١٩٥٧ ، يوم لم يكن لمصر هذه الانتصارات في مصر .. ولا هذه المفاخر في دنيا العروبة ، يوم كانت الثورة منقسمة على نفسها بين عبد الناصر وبين نجيب ، بين الواقع.. وبين النظرية ، بين من يقول بعودة الاحزاب المنحلة وعودة الثورة الى الثكنات (النظرية) وبين من يقول بابقاء الاحزاب في السجن وابقاء الثورة في غرفة الربان (الواقع) .. واليوم وغدا لن تنجح اية فكرة ديمقراطية في رفع حاجز واحد من الحواجز القائمة على الارض العربية بلا ديكتاتورية مبرمجة .. حتى ثورة مصر بالذات لو صارت اكثر ديمقراطية في داخل مصر .. قبل ان تعمل للاتحاد او الوحدة مع الاقطار العربية الاخرى ، فلن تستطيع ان تخطو خارج حدودها خطوة واحدة . اذ لو كانت مصر او سوريا او العراق او مراكش ، هي الدولة العربية الواحدة ، لكان امر الديمقراطية واجبا .. داخل هذه الدولة .. اما وان كل دولة عربية هي عضو من الشخصية العربية الكاملة ، فان عليها ان تعد نفسها ليوم موعود ... قد لا ينفع فيه منبر البرلمان .. بقدر ما ينفع المدفع الصاخب والسيف المسلول ، وفي ظل اوضاعنا الاجتماعية وتألب الاستعمار علينا وفوضى القيادات لدينا ، فانه ليس من المعقول ان نثق باعداء الشعب من ابنائه البرلمانيين الذين تحجروا في ديمقراطيتهم وماعوا ، في تحقيق اتحاد عربي .. هم اول وقوده ، لانه من غير المعقول ان لا يكون لاي اتحاد صحيح بين الدول العربية ، مظهر داخلي هو تنظيف هذه القيادات المريضة ، واخر خارجي هو السعي بقوة السياسة وسياسة القوة نحو هذه الغاية النبيلة : الحرب من اجل الوحدة .

وبعد .. لماذا يخشى الديكتاتورية المبرمجة بعض دعاة التحرر والوحدة والاشتراكية ؟ ان بعض الحزبيين في البلاد العربية يحفظون ذكريات سوداء عن بعض الديكتاتوريات ، سجون ومنافي . واعتقالات كيفية وتعذيب بالسياط واحتقار عميق لكرامة الانسان الشامخة ، ولكن هذا لا يحول دوننا واحترام الديكتاتورية المبرمجة ، تلك التي سوف تؤدي الى اتحاد في الداخل وعدم الانحياز على الصعيد الدولي ، والدعوة للقومية والوحدة العربيتين لتوسيع جبهة العدوان على المعتدي. انما يجري اليوم على الارض العربية في مصر ، هو الذي رفع رؤوس العرب عاليا ، وجعل املهم في الوحدة الشاملة يتجاوب مع هدير الحديد في اوسع الميادين ، هو الذي اشعرهم ان آمالهم وافكارهم، انما هي ذات قيمة . انما هي الارادة الحية المعبرة عن رغبة لا تقاوم في البقاء ، وفرض هذا البقاء الحر على العالم .

ان الديمقراطية عدوة الاستمرار . ومعركتنا من اجل الوحدة معركة طويلة ، ولا يقوى على تحقيقها سوى الاستقرار والدوام . والديكتاتورية المخلصة ، هي التي تدوم اكثر . تصوروا لو ان بسمارك خضع لديكتاتورية سطحية هي والديمقراطية سواء ، من حيث التعبير عن ارادة البقاء ، اكان ثمة اتحاد يتحقق ؟ انا لا اقصد ان بسمارك وحده هو الذي قاد المانيا نحو الاتحاد . بل اريد ان اقول ان بقاء بسمارك في الحكم طيلة هذه المدة جعل للرجل هذه الميزة .. تلك التي تجعلنا ان ذكرنا الوسام الرفيع ، ان نذكر الاعمال الجليلة التي مهدت اليه .

والثورة – اية ثورة – عندما تتحجر تبدأ تؤمن بالوسائل .

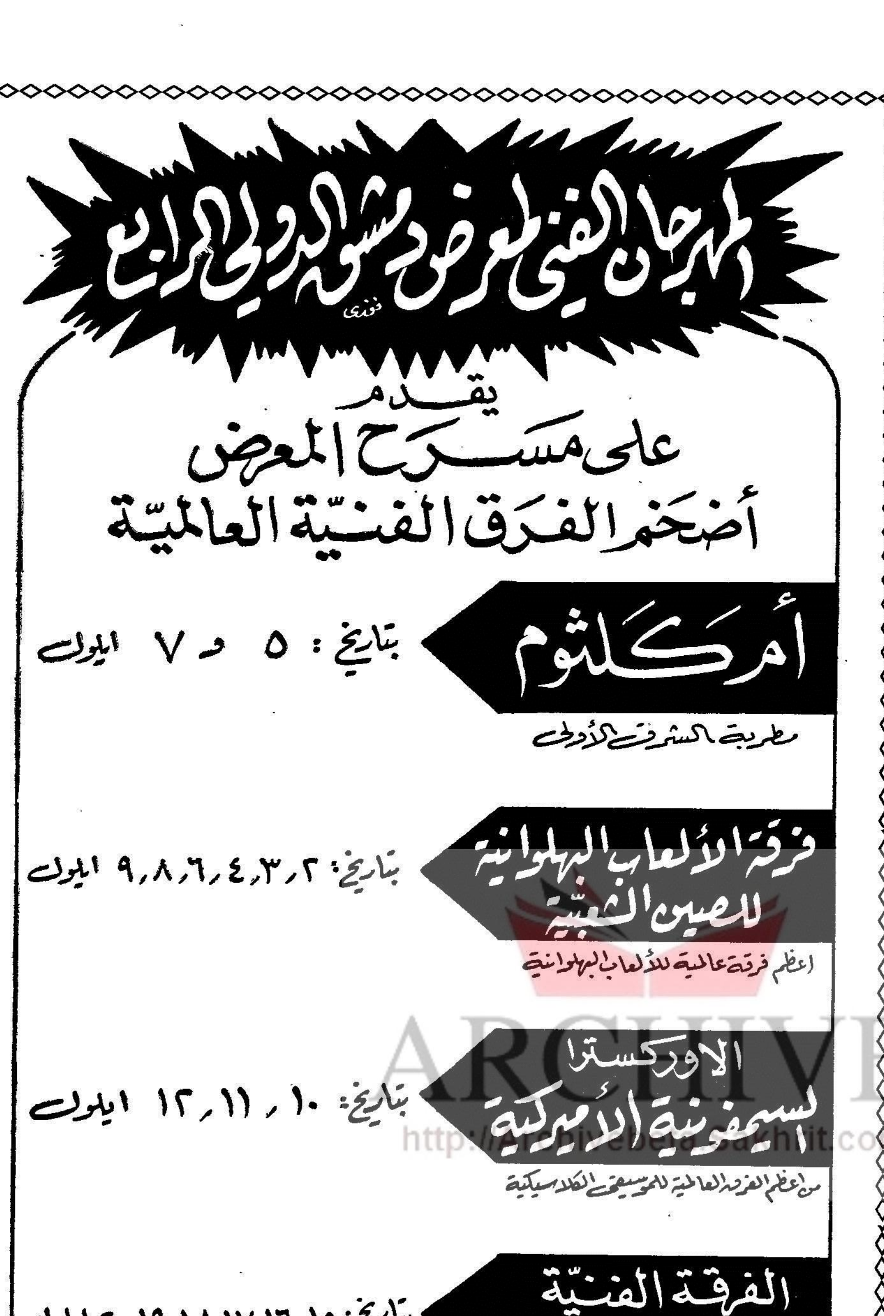
وايماننا بجدوى الديكتاتورية ليس نظريا ، انه ينبع من صميم حاجتنا للوحدة ومن صميم هذه الوحدة المنشودة لنظام لا يمكن ان يكون ديمقراطيا دائما بحال من الاحوال ، والحرية ليست مرادفة للديمقراطية حتما ، وبخاصة الديمقراطية القائمة على تعدد الاحزاب والبرلمان المسؤول عن مصالح الشعب والحكومة المسؤولة امام البرلمان، ورئيس الجمهورية غير المسؤول تجاه احد، في ظل امراض السيادة والقيادة والتطور . ان الحرية مرادفة للكفاية القصوى من الغذاء والكساء والبيت الصحي والثقافة الواعية والمشاركة الوجدانية في القضايا الوطنية بروح المواطن المنصف العادل الطامح بالفضيلة والخير، ومن اي الطرق انت هذه المثل الرفيعة ، كانت الديمقراطية في ابسط معانيها وفي

اعمق معانيها وسيلة شريفة نحو غاية شريفة ، ولا ادري اذا كان المواطن المصري الآن يلقي من الحرية اكثر ام انه ايام الملكية والاحزاب ، والدستور ، وحرية الصحافة ... حيث كل شي مباح .. ولكن بالثمن !! اننا نؤمن بالشعب المجرد من امراض القيادة والسيادة والتطور . ونـؤمن بالنظام الهادف الى تصفية مرض القيـادة والسيادة والتطور . واعطاء كل مواطن حقه من الحرية . ونؤمن ان العروبة جديرة بكل المكاسب التي نالتها على يد الديكتاتوريـة الستنيرة المبرمجة ، المؤمنة بالقومية العربية وبتصفية امراض الشعب العربي الثلاثـة (القيادة - والسيادة - والتطور) الساعية الى اتحاد في الداخل ، وعدم الانحياز في الخارج والمناداة بالقومية العربية من الاطلسي حتى الخليج العربي لتوضيع جبهة العدوان على المعتدي ان فكر بالاعتداء على اي قطر عربي . وما دمنا مقبلين على عملية واحـدة وبوجود اسرائيل بين ظهرانينا فاننا بحـاجة الى سيف بسمارك اكثر من فصاحة ميرابو ، والى رهط من ضباط الاركان مؤمنين بالعروبة، اكثر من شلة من ادعياء الثقافة اولئـك البرلمانيين ، هواة الكلام ... ولا شـيء سواه .

بقيت فكرة اخيرة ، هي هذا الالحاح الـذي نشهده للبحث عن مذهب للعروبة . عـن منهبة العروبة . قد يحاول اصحاب الفكـرة ما داموا يستطيعون الكلام .. والكتابة ... ولكنهم سوف يفشلون . لانهم يسـتبقون الاحداث ، ويرصدون الحوادث بعين مغمضة . اننا ما دمنا دولا مجزأة ... كالشخصيـة المجزأة لا يمكن ان نشعر شعور الامة الواحدة قبل ان نتوحد . ومذهب خاص للعروبة لايمكن ان يأتي قبل هذا الشعور المستقيم باننـا امة واحدة من المحيط الى الخليج .. واننا دولة واحدة . لنا مطامح واحدة . ونسلك في علاقاتنا مع الشعوب الاخرى والدول الاخـرى مسلكا واحدا ، قد تحررنا من مرض التطور ، وعندها فان اي مذهب جديد للعروبة يضحي ضرورة لا غنى عنه ، يضحي عملية خلق جديدة، ليس فيها تكلف ولا استباق للاحداث .

كل ما في الامر ان السماء ملبدة بالغيوم ، ولسوف تمطر لا محالة !!

حلب علي بدور



سر الطفل المدلل

قصة بقلم محمد شحادة كردون

بالرغم من انني افرغت في جوفي الكأس الرابعة اجدني اعي كل شيء تماما ، ولن اثمل حتى ولو قدموا لي كل ما في النادي من كؤوس ... بيد انني احب ان اهذي.. ان احدث انسانا ما والمكان خال . والهذيان صفة تلازم السكارى ومع ذلك فانا اصر ان حالي جيدة : فانا اعرف مثلا انني في النادي الملحق بقيادة الرقابة الدولية . ومنذ ساعة كنت احقق في حادث اطلاق .. وعما قريب قد احقق في حادث آخر . نحن هكذا دائما ، نلبي الاشارات . وكأن اليهود العرب اطفال يلعبون ونحن كبار نفض خصوماتهم !.. الامر لا يتعدى لعب الصغار : يطلقون النار ، وتسيل دماء ، وتمر سياراتنا وسط المعركة ، فيهدأ كل شيء ، ويخرس الرصاص، ونضيف حادثا جديدا الى السجل الضخم ، وينتهي التحقيق .. ليستمر من جديد في اي وقت اخر ، ومن صفات خصومات الاطفال ان المعتدي يكون قويا ، او مدللا ، يستغل قوته او تدليله ومكانته ليقاتل ضعيفا منبوذا ... كذلك الامر بالنسبة للعرب واليهود !!..

ما من مرة قمت بتحقيق الا وكان اليهود فيه هم الطفل المدلل ، والعرب هم الطفل الضعيف .. ودلال اليهود ينقلب احيانا الى غطرسة يظنون معها ان الامم المتحدة بعثتنا عبيدا لهم ! ولذا فهم يتعجرفون . وقد يطردوننا في اي تحقيق نقوم به ولا يرضيهم !.. مرات كثيرة اطلقوا النار على سياراتنا ... ومرة حاولوا ضربي ..

ومما يثير الحنق انهم يستطيعون ان يلعبوا بنا كيف يشاؤون : لم يعجبهم مسلك (الكوماندرجف) رئيسي السابق . واتهموه بالتحيز للعرب لانه قوي . ولانه صريح . ولانه يرفض محاباتهم . فشكوا امره الى الرئاسة ونقلته الامم المتحدة من فلسطين الى كوريا مراقبا هناك .

*

في الاشهر الاولى لقدومي الى فلسطين تبينت انني لن استطيع الاستمرار في عملي . وانا عندما عزمت على السفر الى هنا اعتبرت الامر دواء شافيا لي ينسيني فشلي وينسيني (آلينا) ويتيح لي ان اغير جذريا حياتي واطلع على انماط جديدة من العيش ، ولكني كنت مخطئا .

نسيت (الينا) حقا ، فاصبحت مجرد امرأة عادية كهؤلاء اللواتي يرتمين في اي وقت بين احضان زملائي الضباط . رأت من اهو احسن مني - في نظرها - فاختارته وخانتني .. ومع ذلك لا احب ان اسمي الامر خيانة لاني لم ارتبط معها بشيء في السابق ... على العموم رأت من يقدم لها برادا وبيتا انيقا وسيارة جميلة فاختارته ، وكانت على حق لان دخلي آنذاك كرجل بوليسي عادي لن يؤمن لها كل ما تريد .

واما الانماط الجديدة من الحياة التي اطلعت عليها منذ التحقت بسلك المراقبين الدوليين فكانت عجيبة تثير الحنق والاشمئزاز ، وتثير ، الى جانب هذا وذاك ، زحمة من الانفعالات المتباينة !..

شاهدت في السابق بحكم عملي في البوليس حوادث مثيرة : قتل . وجرح . ودهس . واصطدام . وكانت الحوادث تترك آثارها في نفسي الا ان الحوادث اليومية التي اشاهدها هنا فظيعة جدا : في القريتين « قبيه » و « غالين » شاهدت القتلى اكواما من مختلف الاعمار : اطفال مهروسة رؤوسهم ! نساء مبعوجة بطونهن !.. رجال مهشمة اعضاؤهم .. تحت الانقاض ! وفي اطراف البيوت .

الحقيقة انها مناظر فظيعة ، ولكني اعتدت عليها حتى لم تعد تثير في الان شيئا حتى ولا قشعريرة كتلك التي كانت تهزني عند رؤيتي للدماء .

انا اعرف ان اليهود - في مدينتي وفي كل مدينة شاهدتها في بلادنا - محتقرون . لا يجرؤون على رفع رؤوسهم أبدا . فكيف بهم هنا يفعلون كل هذه الامور ؟! وكيف يستطيعون ان يملوا ارادتهم علينا - على الرئاسة - بل على المكتب الكبير في نيويورك ؟! والاغرب من ذلك كيف يستطع هؤلاء العرب ان يصبروا عليهم وهم كثيرون .. كثيرون كالجراد ؟!..

لن يستطيع احد .. ولن تستطيع كأسي الخامسة ان تفسر لي سر دلال هذا الطفل المتغطرس : اليهود ! وسر خنوع هذا الطفل العملاق : العرب !..

ولن تستطيع كأسي الالف !.. ان تفسر لي لماذا يأتمر المكتب الكبير في المدينة الكبيرة بأمر هؤلاء ؟! ..

ولذا فاني أعد مغامرتي فشلا على فشل . سببت لي متاعب جديدة .. وانني اتطلع الى انتهاء مدة خدمتي لاعود الى بلدي .

على انها - وظيفتي - زودتني بكثير من الحوادث والذكريات العجيبة كالاساطير .. بل اساطير تناسب عقلية الانسان الجديد !

*

اول عهدي بالعمل طلبني (الكوماندر) كي اغادر القيادة الى القطاع الاسرائيلي حيث اذهب من هناك الى مقابلة اليهود بناء على طلبهم في بعض شؤون الهدنة . وكنت قد سمعت الكثير عن العرب واليهود ، ومآسي العرب ، وكان يتصل بي احيانا فلسطيني يعمل كاتبا ملحقا بالجانب الاردني في لجنة الهدنة . حدثني كثيرا عنهم . وعن حياتهم التي يحيونها وعن ارضهم التي كانت لهم !.. وعن ابيه الشيخ الذي تركه ينزف في يافا .. واخته التي اضاعها هناك فلا هو يعرفها ميتة او حية ! ظلت في فلسطين ام غادرتها .. قصته مؤثرة .. واجدني اعطف عليه . كثيرا ما اتصل به بحكم عمله في اللجنة

لما وردت الاشارة بالتوجه الى القطاع الاسرائيلي - لاول مرة - شعرت بشيء لا احب ان اسميه خوفا حاولت ان اداريه امام الرئيس.

وخطرت لرأسي فكرة طارئة : اصطحب هذا الفلسطيني معي يؤنسني ويقتل هذا الشعور الذي احسسته ساعة تسلمت الاشارة . ومن ناحية

ثانية فهو يتهلف ـ ولا بد ـ لتحقيق مثل هذا الحلم ولن يفوته ابدا .

عندما تخطر في رأسنا فكرة ما فان عاملا خفيا ، دافعا لا نعرفه ، يتولى ترتيب الامور وحلها حلا معقولا ..

وهذا ما حدث عندما راودتني فكرة اصطحابي للفلسطيني : مجرد فكرة لم ابحث لها عن حل .. لم يكن ثمة حل عندما ولجت غرفة الرئيس كي آخذ تصريح المرور ومهمات ضرورية اخرى . وعند انتهاء المقابلة قلت للرئيس فورا ، وكان ذلك هو الحل للمشكلة الطارئة :

ـ سيدي . اريد بطاقة صحفية وشارة مرور

ـ لمن ؟ هل من الصحفيين من سيرافقك ؟. ثم انك ستنام هناك اذا اقتضى الامر .

ـ اجل يا سيدي هناك صحفي عربي سيرافقني .

كذبة كبيرة لا ادري كيف دبرتها !..

ـ عربي !... ان هذا مخالف للاوامر .. الا تعرف انهم ممنوعون من دخول فلسطين ؟

ولم اجب انا فقد احرجت،بل اجاب عني هذا العامل الخفي الذي اتحدث عنه .. هذا الشيء الذي يتولى تقديم الحلول المناسبة لفكرة ما تطرا لانسان :

ـ اجل يا سيدي . ولكنه مراسل دولي لصحيفة فرنسية .. انا ادخله بصفته مراسلا لا بصفته عربيا .

وبدا انه أراد ان يقتنع .

ـ ليكن ما تريد ...

ثم اضاف وهو يسلمني البطاقة وشارة المرور : « أرجو الا يسبب الامر بعض المتاعب . على كل حال انا اثق بك ..»

وادرت السيارة باتجاه القطاع الاسرائيلي بعد ان اصطحبت معي (سعيد).

لم يصدق اول الامر . ظنها مزحة . ولما لمس الجدية في قولي تغيرت نظرته .. وفغرفاه أراد ان يقول لي شيئا لكنه لم يفه بكلمة واحدة .

وقرأت في قسماته معاني الامتنان واللهفة .. ظل صامتا . وعند النقطة الاسرائيلية فتحوا لنا الطريق وقادتنا «سيارة جيب» الى الفندق الذي ساقابل فيه ضابطا اسرائيليا .

وفي الفندق اعتذر الضابط عن اصطحاب (الصحفي) ! الى حيث سنذهب ولما افهمته انه دخل بعلم القيادة وامرها زعق في وجهي :

ـ طلبناك انت ولم نطلب صحفيين . طلبنا مراقبا دوليا .. سيبقى في الفندق ريثما نعود

قلت يائسا : « لا بأس . دعني احادثه قليلا » .

الواقع انني خفت من شيء ما وتذكرت كلمات الرئيس « ارجو الا يسبب الامر بعض المتاعب .. على كل حال انا اثق بك » .

يثق بي . ان الثقة مسؤولية جسيمة ، وهؤلاء اليهود اوباش لا يوثق بهم ، قد يفعلون كل شيء . الا تراه الان يزعق في وجهي ، هذا النذل ! بودي لو كنت اصادفه في بلدي اذن لدست رقبته . وعندما انتحيت بسعيد جانبا قلت له :

ـ ستبقى هنا في الفندق . أرجوك : لا تحاول ان تفعل شيئا وقدر موقفي . على العموم هم لا يعرفون عنك الا انك صحفي تابع لنا . هذه الصفة تعطيك ضمانا ممتازا .

وابتسمت له وانا اشد على يده بسمة باهتة صفراء.

✶

عندما كانت السيارة تنطلق بنا ـ أنا والضابط اليهودي ـ في الصحراء كنت نهبا للمخاوف فأنا وحيد وهؤلاء غدارون . واذا قتلوني فماذا تفيدني هيئة الرقابة ؟ هل يضمون الى سجلهم الكبير شكوى على غرار الشكاوى العربية ، ام احتجاجا شديد اللهجة ؟.. ثمة أمر ثان كان يشغلني : سعيد ومشكلة قد تحدث . ولمت نفسي كثيرا وحاولت ان اهون الامر او انساه فقطعت الصمت الثقيل بسؤالي اليهودي :

ـ ما الحادث ؟ لماذا استدعيتموني ؟

ـ ستتسلم جثتي متسللين عربيين قتلا البارحة .

ولعنت اليهود والعرب في سري . هل يعتقد هذا الحيوان انني خادم ابيه لانقل له جثث القتلى : كالقصاب تماما ؟ وماذا أفعل بها ؟ وماذا يفعل بها الرئيس ؟ انا العن حظي والشيطان الذي سول لي ان اقذف بنفسي الى مهنة قذرة كهذه !

لا ادري بالضبط ما الذي جعلني أشعر انني مغلوب : قهرني الحظ . وقهرتني (البينا) وقهرني اليهود . والمغلوب يترك لافكاره العنان لتعوض له خسارته وتظهره بمظهر اليق، على الاقل ليرضي نفسه . لذلك رحت أتصور انني رئيس للمراقبين كي افهم هؤلاء الكلاب حقيقة أمرهم . والمغلوب يحن الى المغلوب دائما . ولذلك شعرت بعطف نحو العرب هؤلاء الحانقين على حثالة البشر : تصورت ان اصطداما قد وقع ، وانني تدخلت ، وان العرب رفضوا الانصياع لاوامري ، ولم يتوقف الاطلاق من جانبهم، وانني انسحبت مسرورا بالرغم من ان في الامر تحديا لاوامري . وان اليهود سحقوا تماما .

لما تسلمت الجثتين وعدنا الى القدس شعرت بارتياح نسبي ، الا انني بقيت مشغولا من ناحية سعيد . ارتحت نسبيا لان احلامي ـ احلام المغلوب ـ قد تحققت على شكل ما : هذان المتسللان خربا جسرا كبيرا . وعملهم هذا دليل على انهم لم يسكتوا . ودليل على انهم لن يسكتوا ، لن يظلوا خانعين ـ اعني العرب ـ واذن فاحلامي تتحقق على صورة ما ، ترضيني ، ولا يستبعد ان اصبح رئيسا لهيئة الرقابة .

وكما ان احلامي قد تحققت على صورة ما ، فان مخاوفي من ناحية سعيد قد تحققت ايضا : دخلنا الفندق فهرع مديره اليهودي المكرش يعوي :

ـ سيدي ، لقد انتحر الرجل .

وحملقت في لا شيء . لا اصدق . لماذا انتحر ؟! انهم قتلوه .. أين هو . وانتابني اعياء مفاجيء وارتميت على اقرب مقعد لاستمع الى المدير يشرح للضابط اليهودي في خوف .. اجل لقد كان خائفا :

– لقد طلب ان يرتاح في غرفة فأخذته الى الدور الاعلى وطلبت من «سمر» ان تسهر على راحته .وانقضت مدة سمعتهابعدهاتولول وتصيح. وصعدت لاجد (الرجل) قد انتحر . قد قطع وريده .

بقيت تلك الليلة هناك. وتذكرت كلمة المدير ثانية « انك ستنام هناك اذا اقتضى الامر » والكلمة الاخرى « أرجو الا يسبب الامر بعض المتاعب .. على العموم انا اثق بك » اردت ان اضحك . واردت ان ابكي .. ولكنني نسيت كل شيء : تماما . وفي الصباح سمحوا لي بالذهاب بعد ان استكملوا التحقيق .. لا الوم أحدا . انا السبب في كل ذلك .

وحملت معي ثلاث جثث – المتسللين وسعيد – . كل ما علمته ان سعيد انتحر عقب دخول الفتاة (سمر) اليه . وان (سمر) هذه فتاة (عربية) تعمل في فندقهم ، يقدمونها للزبائن كما تقدم الخمرة – عامل لذة فقط – وانهم كانوا يريدون ادخال السرور الى قلبه ... وحملوني أسفهم للحادث .

وفي مكتب الرئيس استقبلني بعاصفة شديدة من التقريع واللوم والتعنيف وانا لا احير جوابا .

– هذا ما اجنيه من وراء رغباتك : تعب ووجع رأس! كيف وافقتك ؟ لست ملاما ... أنا السبب . انني لا اطيق سكوتك . ومع ذلك فاني لا احب ان الحق بك ضررا بامكاني فعله ولكنني ساتلافى الامر .

وعندما فتح سجله الضخم قيد اسم سعيد مع المتسللين . عده متسللا آخر ! ما أهون تعداد القتلى في سجلنا الضخم ، وما اهون تلافي الامور المعقدة !!...

ونظرت الى الرئيس وفي عيني كلام :

– متسلل . هل هذا ما ستقوله لهم ؟

وكان جوابه نظرة حازمة من عينيه الحادتين :

– دع الامر لي . هذا ما اريد ...

وعندما سحبت شارة المرور والبطاقة الصحفية من جيب سعيد الفارغ قبل ان يسلم مع المتسللين الى السلطات العربية وقفت على السر الرهيب الذي كلف سعيد حياته :

كانت صورة لشيخ وطفلة في حوالي العاشرة شديدة الشبه بالفتاة (سمر) وعلى ظهرها كان قد كتب عبارات مؤثرة عرفت منها اسم (سميره) !!..

واذن سمر اخته ! يا للشيطان !.. لقد قتل نفسه!.. من الاسرار ما تكلف غاليا !.. قال الكومندر وهو يقلب الصورة أسفا :

– انت المسؤول حقيقة عن مصرعه .. هل تشعر بذلك ؟!

والواقع ان تقريع (الكوماندر) انتهى ليبدأ تقريع الضمير : لقد اتيت من مدينتي البعيدة لاشارك في قتل الابرياء !...

ومضى زمن . وبدأت وطأة الامر تخف تحت ضغط الصور والمشاهد الوافدة : ان سعيد يشكل واحدا من مئات يصرعها رصاص (المتقاتلين !..) في كل يوم تبزغ شمسه .. وأنا لم اقصد قتله ابدا . ثم ان هناك حالات عنيفة ومؤلمة اكثر واكثر

الجميع يعرف . والرئيس يعرف انني اشد المراقبين ضيقا بمهنتي : انا لست خادما لنقل الضحايا ولست قصابا كذلك !.. ولا جئت لالبي رغبة قذرة (لطفل مدلل متعجرف !) ولم احضر الى هنا لاسجل في السجل الضخم عدد الضحايا في كل يوم .

متى تنتهي خدمتي ؟!

احد امرين احب ان يتحققا : ان تنتهي خدمتي غدا !

أو ان ينهمر الرصاص ولو مرة واحدة من جانب العرب ولا يتوقف ابدا ! ولا ينصاعوا لاوامرنا ! انا لا اهذي .. وامنياتي قد تتحقق .. كاسي السابعة في يدي واشارة من المكتب تنطلق . أجل اسمعها ولكنني لا آبه للامر . الليلة ليست نوبتي .. الصوت يستمر . الاشارة تنعق .. الزعيق يتعاظم . هل هو استنفار ؟

آلو .. آلو .. جميع مراقبي الهدنة الى سياراتهم .

اسمع .. انه نداء من المكتب .

آلو .. آلو .. جميع مراقبي الهدنة الى سياراتهم . ستتجه نحو القطاع المصري. فتح العرب النار منذ نصف ساعة ورفضوا التوقف .

آلو ... آلو ....

النشوة تعمر رأسي .. ليست نشوة الخمر على كل حال .

هي نشوة الذي يتمنى وتتحقق امنياته على صورة ما .

يبدو ان الطفل العملاق لم يعد خنوعا .

حلب محمد شحاده كرزون

انغام المساء

بقلم الدوس هكسلي

ما هي العلة الموجودة بين الظواهر الكونية والانغام الموسيقية ؟ هل هناك ظروف معينة وحالات ، نكون فيها اكثر استعدادا لسماع الموسيقى ؟ كأن نستمع اليها في الليل مثلا ؟ يحاول الكاتب الكبيرالدوس هكسلي الاجابة على هذه الاسئلة في مقالته « انغام المساء » . ثم ينتقل الى مشكلة اكثر اهمية ، الا وهي مشكلة التعبير الفنـي ،سواء أكان هذا التعبير ممثلا في أبيات من شعر شكسبير ، او لحـن من الحان بيتهوفن . يقول هكسلي اننا لا نستطيع ان « نشرح » العملالفني وان الشرح بمثابة « تشويه » لهذا العمل .

وتثير مقالته في نفوس البعض مشكلة لها دلالتها واهميتها الا وهيمشكلة « المعاناة » معاناة العمل الفني (قصيدة ـ لوحة ـ قطعة موسيقية). ان معنى القصيدة يمكن في تعبيرها وموسيقاها والروحالتي بثها الشاعر في جنباتها . وانطباع اللوحة يكمن في الوانهـا وملامحها وطريقة الرسام في وضع الخطوط. علينا ان نمر بتجربةالعمل الفني : كأن نقرأ القصيدة لا ان نقرأ عنها ، وان نشاهد صورة الرسام بدلا من السماع عنها من فم الناقد الفني، وان نستمع الىالقطعة الموسيقية دون التردي في مهاوي تفسيرات الشارحـين وتأويلاتهم .

هذه هي الازمة التي تواجهنا في عصرنا الحاضر : نسمع بالاديبونقرأ تاريخ حياته ونطلع على نقد النقاد لمؤلفاته ولا ننسى ان نستوعب الملخصات التي تنشرها الصحف والمجلات لكتبه . ثم نتوقف ولا نذهبالى ابعد من هذا . يجب ان نمر بتجربة المؤلف عن طريق العيش معه ، مع عمله الفني الذي صهر روحه وروح شعبه وجيله ، او روحالانسانية جمعاء .

لقد اطلقها الدوس هكسلي صيحة مدوية « ان كلماتنا نـحن لا تستطيع ان تعبر تعبيرا ملائما عن معاني كلمات الآخرين » .

المترجم

تلكم أمسية من أمسيات شهر يونيو ... غاب عنها القمر ... بيد ان النجوم قد اكسبتها مزيدا من الحيويـة ، وتعطرت الظلمة من اللفحات الوانية التي تصدر عن براعم أشجار الزيزفون .. وتعطرت برائحة التربة الرطبـة والخضرة التي لا ترى من أشجار الكروم. الصمت يسود ، غير انه صمت تتردد فيه أنفاس البحر الناعمة . ومن بعيد يسمع صوت قطار يعبر كيان الليل الدافيء النابض ، برقة ولـطف .

تقول ان هذا الليل تستحب فيه الموسيقى . بيد ان معي موسيقى في صندوق ، قد اقفل دونها الغطاء، فكأنها جني في زجاجة مما سمعنا عنه في « الف ليلة » . وسرعـان ما تنفلت هذه الموسيقى من سجنها بلمسة من يدك . واقوم بالاجراءات السحرية اللازمة ، وفجأة .. تتصاعد الـى السماء اللاقمرية مقدمة بينيديكتوس Benedictus من Missa Solemnis لبيتهوفن . مصادفة معجزة ! لقـد اخترت الاسطوانة في الظلام ولم اكن اعرف القطعة التي سيعزفها الجرامفون .

بنيديكتوس... موسيقى مباركة ومباركة ، تشبه الى حد ما هذا المساء ، وهذه الظلمة العميقة النابضة التـي تتدفق فيها الالحان ، تارة في انبثاق ، وتارة في ايقاعات متشابكة . هذه الموسيقى تعادل الليل كما تعادل خلاصة الرائحة عطر الزهرة .

في قلب الاشياء غبطة ما ، دفينة لا ندركها ، لا نلمسها الا في فترات عرضية « هذا المساء بالنسبة الى احدى هذه الفترات . » نلمسها في غموض ، او في عمق ـ ولكن ! واأسفاه ! انها تولي بسرعة . وفي بينيديكتوس يعبر بيتهوفن عن ادراكه لهذه الغبطة . وموسيقاه صورة لهذه الامسية على شاطيء البحر الابيض ، او على الارجح هي صـورة للغبطة التي ينبض بها قلب هذا المساء . انها غبطة شفافة .

« بنيديكتوس .. بنيديكتوس .. »وتتبادل الاصوات التقاط هذا اللحن الذي مهدت له الاوركسترا وتناوله صوت منفرد في ابداع وروعة ، انه صوت الكمان (ذلك لان الغبطة تميط عن نفسها اللثام للروح المنفردة .) « بنيديكتوس .. بنيديكتوس » .. وفجأة تخرس الموسيقى ويأوى الجني الهارب الى قمقمه ، ويخدش صمت الظلام صوت ابرة الجرامفون وهي تدور وتدور في اصرار كاصرار الذبابة الهائمـة .

وحينما كنا نتعلم اللغة الانجليزية بالمدرسة كانوا يقولون لنا ان علينا ان نشرح « بعبارة من عندنا » فقرة من مسرحية لشيكسبير ! وهكذا نجلس نحن الصبية الذين لوثهم المـداد لنترجم قولة شكسبير : « وفي خزانة الثياب تعانقت أردية الحرير » نترجمها الى عبارة من عندنا لنقول : تستقـر الملابس الحريرية الانيقة في الدولاب » . ونترجم قوله في هاملت : « لان تكون او لا تكون » الى قولنا : « اني أفكر فيما اذا كان من الواجب ان انتحر ام لا » . وحين ننتهي مـن ذلك كله نسلم أوراقنا ، ويمنحنا استاذنا الدرجات بقـدر ما عبرنا في « كلمات من عندنا » عن معنى اشعار شكسبير المجيد .

اننا لا نستحق اية درجة على هذا المجهود حتى لو قمنا بشرح مئة بيت . لا يستطيع التعبير عن معاني شكسبير الا كلمات شكسبير نفسها . ان مضمون اي عمل فني لا يمكن ان ينفصل عن شكاله . ان حقيقة العمل الفني شيء وجماله شيء آخر ، بيد انهما يمتزجان بطريقة غريبة غامضة . بل ان التعبير اللفظي عن منهج ميتافيزيقي ا واخلاقي يكاد يكون عملا فنيا ، مثله في ذلك مثل قصيدة حب . وحين يعبر جويت Jowett عن فلسفة افلاطون « في عبارات من عنده » فليست هذه فلسفة افلاطون . كما ان تعاليم سانت بول ليست بتعاليمه اذا ما عبر عنها « بيلي ساندي »

ان كلماتنا نحن لا تستطيع ان تعبر تعبيرا ملائما عن معاني كلمات الاخرين ، فكيف بنا اذا اردنا التعبير عن معاني موسيقية او فنون تشكيلية ؟ وعلى سبيل المثال نتساءل : ماذا (تقول) هذه الموسيقى ؟ في استطاعتك وانت تستمع الى كونشرتو ان تشتري برنامجا تحليليا يخبرك بما تريد بدقة .. بدقة متناهية .. وهذه المشكلة ! ستجد لكل محلل تفسيره الخاص . تصور حلم فرعون يقوم بتفسيره يوسف الصديق ، ثم سحرة مصر ، ثم فرويد وريفرز وادلر ويونج ووهل جيموث : سيقول الحلم حينئذ اشياء كثيرة مختلفة . بيد انها لن تفوق في اختلافها ما دار حول السيمفونية الخامسة من جدال في التحليل .

لقد تضايق بعض النقاد من هذه التلال التي تألفت من جراء المعاني والتفسيرات المزعومة ، ومن ثم قالوا محتجين ان الموسيقى والرسم لا يمثلان ألا كيانهما — وان هذه الفنون اذا (قالت) شيئا فانما تتحدث على سبيل المثال عن الايقاع ، وقيم الالوان ، والاجسام ذات الابعاد الثلاثة ، ويعتقد هؤلاء النقاد المدققون ان من العبث ان نقول ان هذه الفنون تتحدث لنا عن المصير البشري او العلم بأكمله .

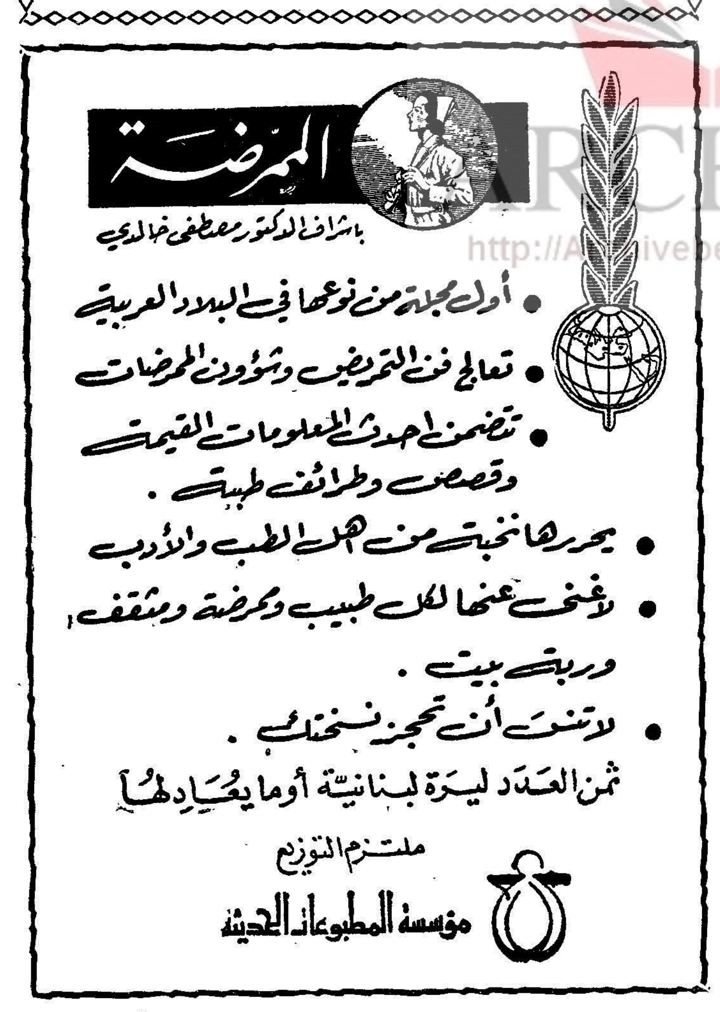
واذا ما سلمنا بما يقوله هؤلاء النقاد لنظرنا الى الرسامين والموسيقيين على انهم وحوش وليسوا بشرا . ذلك لانه من المستحيل ان تكون انسانا بشريا دون ان تكون لك آراء ما ازاء هذا العالم العريض . كما ان من الغريب ان تكون انسانا بشريا ولا تعبر عن هذه الآراء ، ولو كان ذلك عن طريق الايماء .

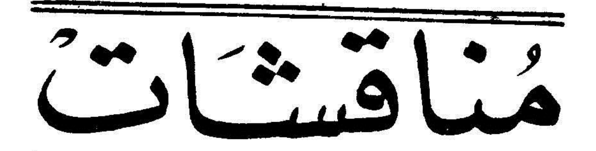
ان الموسيقى (تتحدث) عن اشياء في هذا العالم ، لكنها تتحدث بصورة موسيقية خاصة . وان اية محاولة تبذل للتعبير عن مضمون الموسيقى في « عبارات من عندنا » مآلها الفشل . اننا لا نستطيع ان نفصل الحقيقة التي تتضمنها قطعة موسيقية، ذلك لانها حقيقة جمالية لا تنفصل عن الشكل الذي يحتويها . واقصى ما نستطيع القيام به هو ان نشير عن طريق التعميم الى طبيعة الحقيقة الجمالية الموسيقية وان نرشد الذين يبحثون عن الحقيقة الى النص الموسيقي الاصلي .

ولهذا فان تمهيد بنيديكتوس يعبر عن الغبطة (او البركة) التي تكمن في قلب الاشياء . لكنا — بكلماتنا — لا نستطيع ان نذهب الى ابعد من هذا . فاذا ما بدأنا نشرح في « عبارات من عندنا » شعور بيتهوفن الحقيقي ازاء هذه الغبطة ، وكيف لمسها ، وما رأيه في طبيعتها ، فسرعان ما نجد اننا ندون هراء غنائيا على طريقة المحللين الموسيقيين للموسيقى البروجرامية . واذا ما اردنا ان نعرف بدقة مفهوم بيتهوفن لهذه الغبطة التي تكمن في قلب الاشياء فلا شيء يسعفنا غير الموسيقى ، وغير موسيقى بيتهوفن نفسه، وغير هذه القطعة بالذات .

اذا ما اردنا ان نعرف ، فعلينا ان ننصت . وافضل ان يتم ذلك في امسية من امسيات شهر يونيو .

القاهرة ترجمة : محمد عبدالله الشفقي





رد على نقد

بقلم الفت عمر باشا الادلبي

الى الاديب الكبير الاستاذ خليل هنداوي

تحية طيبة . وبعد قرأت نقدك لقصتي (العودة) في العدد الماضي من الآداب وعجبت لقولك : - ان القصة ذات وجهين مقطوع بينهما ، قصة الفتي وما انتابه من هواجس انتهت به الى التكفير . وقصة الخليلين اللذين تركتهما الكاتبة في زاوية السيارة - . فهل فات الاستاذ هنداوي ان القصة مروية بلسان الفتى بطل القصة الذي سمع حوار الخليلين في السيارة ، ذلك الحوار الذي كان يدور حوله فسبب له يقظة الضمير وهذا الانقلاب المفاجيء الذي احاله من لاجيء مستكين خانع الى فدائي مناضل ؟ وفي ثورات النفس التي لا يمكن كبحها في مثل هذا الموقف القاسي الذي وقفه بطل القصة خفق باب السيارة التي كان يقودها على الخليلين وتركهما في الظلام وانطلق ليلتحق بالفدائيين على حدود بلاده .

ولا يعقل بعد ذلك كله ان يقرر لنا مصير الخليلين اللذين لم يكونا في القصة الا اداة تمهيد لا يعني القصة منهما الا هذا الحوار الذي دار بينهما وسبب انقلاب البطل . ولا اظن ان الاستاذ هنداوي كان يرضى عني لو اقحمت نفسي في القصة وبينت له مصير الخليلين وطمأنته عليهما . وما ايسر ذلك لو ان الفن القصصي يسمح به .

وعجبت ايضا كيف يقول : - ان قصة « العودة » تكاد تلتصق بالواقع على توفيق بالوصف والتحليل - ثم يعود ويقول : - ان الحوار لم يكن واقعيا حقيقيا بالروح الواقعية - . مع ان الحوار يحتل الجزء الاوفى من القصة . ثم يقول عن الحوار انه ثقيل على النفس . وهذه قضية ذوق لا أتعرض لها أبدا ، فهي تختلف باختلاف الاشخاص واذواقهم . فمن يدري لعل الحوار جاء خفيفا على غيره من النقاد والقراء .

هذا ولا أستطيع ان احدد موقف الاستاذ هنداوي مني عندما يقول : وكان الحوار جاء منقولا عن غير لغة . هل يتهمني - سامحه الله - بشر ما يتهم به الكاتب وهو النقل والاقتباس؟ . وفي مثل هذه الحال يتحتم على الناقد ان يشير بوضوح الى الاصل الذي يرى ان الكاتب اقتبسه او نقل عنه . ام ان الاستاذ هنداوي يظن بي فقط ؟ وهنا ابيح لنفسي ان اذكره بان بعض الظن اثم . وانا اعيذ الاستاذ من الوقوع في مثل هذا الاثم . واخيرا تحية مملوءة بالاعجاب والتقدير للاستاذ هنداوي الذي عرفناه ناقدا حرا ومشجعا للناشئين

الفت عمرباشا الادلبي

حقيقة الادب في العراق

بقلم المحامي محمود العبطة

الدافع على كتابة هذه (الكلمة) للآداب بالذات ، هو محاولة رسم صورة واضحة جلية للادب العراقي في السنين الثلاث الاخيرة ،ذلك ان ادبنا الذي « انماز بالانطلاق والتحرر ، والطيران في آفاق جديدة ... لم يعرفها ادب الضاد عند غير ادباء العراق !! . » ان هذا الادب قد انحرف عن طريق انطلاقه ومنهج سيره . واسباب انحرافه كثيرة لا تحصيها كلمة صغيرة كهذه الكلمة ... ونحن هنا لسنا بمحللين ولا بمعللين ولكننا نذكر حقيقة واقعة ماثلة للعيان واضحة للاذهان ، يشعر بها كل مراقب لسير الادب في العراق وفي اخواته البلاد العربية .

كانت اسباب نضرب صفحا عن ذكرها ادت الى تعطيل الحريات العامة في البلد ، وكان من اجلى تلك الامور غلق الصحف والمجلات سوى عدد محدود منها ، وان هذا العدد المحدود قد انصرف عن رسالة الصحافة في البلاد المتقدمة الى نشر الاخبار والاعلانات وجمع الارباح الهائلة من هذين المصدرين ، وادى ذلك بطبيعة الحال الى الانصراف عن معالجة قضايا الادب ونشر الموضوع والمترجم منه ، وادى اخيرا الى انزواء الادباء عن تقديم نتاجهم الى المطابع ، والمستهلكون - بدورهم - انصرفوا الى مطالعة مطبوعات البلاد العربية ، عندما لم يجدوا في صحف بلدهم شيئا وعندما انقطع (المؤلف) عنهم !! تصدر في العراق اليوم خمس صحف يوميـــــة هي « البلاد » و « الاخبار » و « الحرية » و « الشعب » و ج الزمان » وهذه الجرائد (اخبارية) بالدرجة الاولى ، لانه لا توجد في العراق احزاب سياسية تنطق باسمها الصحف . وقد سرت في هذه الصحف (مودة) الصفحات للمرأة والعلم والمال والصناعة والزهور .. الخ وهذه الصفحات يحررها واحد من محرري الجريدة وليس اخصائيا كما يتطلب الامر و (صفحة) الادب من تلك الصفحات التي تطلع في (واحد) من ايام الاسبوع على قراء كل جريدة من تلكم الجرائد . ولكن - ليت شعري - اي اشباع لنهم القاريء من اخبار مقطعة ونتف متناثرة وابيات من هنا وهناك ؟.. وفوق ذلك ، فان (صفحات الجرائد) لا تهتم بذوق القاريء ونتاج الكاتب بل تقوم بنشر المنشور (المأخوذ) من اية صحيفة عربية لا تصدر في العراق .. وقد اخذت دار الاذاعة العراقية تهتم اهتماما شكليا بالادب باشراف احد الادباء ، وظهر زيف هذا الاهتمام المفتعل ، لانه لم يتجاوب مع رغبات الادباء والمثقفين في العراق ولم يعتن بآثار العراقيين ، عنايته باثار كتاب اوربا ولبنان والمهجر ... وقد فاتني ان اذكر عند اشارتي الى (صفحات الصحف) ان الطابع التجـــاري و (الاعلاني) غلب على كل شيء فكاتب كحسن مردان يقرض الكتب ثم يختم كلمته (القصيرة) بطلب من المكتبة الفلانية !! وفاتني ايضا ان اذكر كتابا اثبتوا وجودا في صحف العراق منهم الدكتور الوردي وسلوى زكو وعبد الرحمن الدايني .. والقاريء يجد في آثار هؤلاء اشباعا لرغبته وغذاء لفكره بعكس غيرهم من الكتاب .

وبعد ان ذكرنا الصحافة ، او صفحات الصحافة ، والاذاعة ، نذكر انه لا تصدر في العراق (بعرضه وبطوله) سوى (مجلة واحدة) هي مجلة « الفنون » وان هذه المجلة تعالج انفاسها الاخيرة لانها فقيرة في الاعلانات الحكومية والتجارية ، وكانت تصدر اسبوعيا وقد اعلن انها ستصدر مرتين في الشهر والحبل على الجرار ... وختاما نشير الى ان المجمع العلمي العراقي اخذ يمد يد المساعدة للادباء ، ولكن هذه المساعدة (حقيرة) بشروط تفل الادب المتحرر وتشجع الادب الرجعي العتيق ... فكل ما صدر من مطبوعات امدها المجمع ، كتب تاريخية وتراجم شخصية وديوان شعري هو ديوان الشيخ اليعقوبي النجفي

بغداد **محمود العبطة**

حول النتاج الشعري في العراق

بقلم سالم علوان الجلبي

عجيب والله امر هؤلاء الذين ينصبون من انفسهم حكاما ويروحون يصدرون الاحكام على النتاج الادبي اعتباطا دون ما ركيزة من بينة ولا سند من دليل !!

من هذه الفئة السيد عبد الحسين الحسيني الكاتب في العدد الفائت (آب) من الآداب الغراء عن النتاج الشعري في العراق الذي راح ينعت فلانا بالكبير وعلانا بالرائد وترنانا بالمبدع . ويصف كتابا بالرائع وآخر بالانساني وثالثا بالكاسد فنيا ، وما الى ذلك من هذه القوالب الجاهزة التي شد ما ابلاها التكرار منذ زمن ليس بالقليل فافقدها لدى الواقع قيمتها الحقيقية .

ولما كنت ممن تعرض لهم هذا الكاتب فقد دفعت مكرها الى ان اصحح ما ذكره عني ، لانه لم يقرر فيما يتعلق بي واقعا قط ، فمن ذلك انه ذكر انني صاحب مجموعة « روعة الذكرى ـ ١٩٥٢ »وروعة الذكرى ليست مجموعة وانما هي قصيدة طويلة واحدة تفضل متذوق فطبعها على حسابه الخاص .

ومن ذلك ايضا انه ذكر انني اصدرت مجموعة اخرى ـ ١٩٥٦ (من شعره التقليدي) ولا ادري ، والحق اقول ، ماذا كان يقصد ب « شعره التقليدي » !! أكان يعني ان لي شعرا خاصا بي هو شعري التقليدي ؟! ام انه كان يقصد الشعر الموزون المقفى .. وهذا حق فانا لا اعتبر « المسطرة » مقياسا للشعر .

ثم يذكر (ان معظم شعر هذه المجموعة تناول غرضين ، المدح والمناسبات) ؟!!

وهذه المجموعة التي لا يعرف الكاتب عنها حتى اسمها ، وهو لا شك يعني مجموعتي الاخيرة « احاسيس ثائرة » تضم « ٣٤ » قصيدة في « ١٦٤ » صفحة كلها في الوطنية ، والمرأة ، والاجتماع . وليس فيها من قصائد المدح سوى قصيدتين في الاستاذين محمد رضا الشبيبي وعلي ممتاز الدفتري . وكلتا القصيدتين كانتا في الرجلين من ناحية خدمتهما العامة كما احسست بها انا ، وهما تنضحان بالروح الوطني الوثاب . فهما من هذه الناحية يمكن اعتبارهما في الوطنيات . فاين هاتان القصيدتان من « معظم » شعر هذه المجموعة ؟!!

اما المناسبات ، فالشعر هو نفسه انتفاضة شعورية دافقة توحيها مناسبة خاصة او عامة ، ولا يضير الشعر ذلك ، فالقيمة للنتاج ذاته وليست للمناسبة ومع هذا فهل الشعر في الوطنية ، والمرأة ، والاجتماع شعر مناسبات ؟!

ويستوى الكاتب بعد هذا كله على المنبر ليتفضل بالوعظ والارشاد في قوله : (ونود ان نقول للاستاذ .. ان الغرضين ـ المدح والمناسبة ـ قد فاتهما الركب منذ زمن ليس بالقليل ؟)

وانا حين اشكره في الختام على نصيحته الغاليه ! التي ارجو ان يعمل هو بها ، لا يسعني الا ان اترحم على ذلك الركب الذي اناخ عليه الذل بكلكله حتى راح الكل يدعي بانه حامل رايته !

بصره ـ عراق **سالم علوان الجلبي**

كلمة في النقد

بقلم احمد حسن راشد

يشير الاستاذ صلاح كامل الناقد لقصص العدد السادس من الآداب الى كثرة النقد في المجلة كما يشير الى تحير الكتاب والنقاد والقراء بين ابواب (قرأت العدد الماضي) (مناقشات) ، (صندوق البريد) .

ويبدو ان الكاتب الكريم كان يتوقع رؤية نقد لنقده من احد هذه الابواب وذلك حين يتساءل : (فهل بيد قراء الاداب ونقادها من يكشف لي السر المحير ؟) وذلك في نهاية نقده لقصة (هذه ليست خطيئة) .

وما احب ان اقوله اولا ان ظاهرة كثرة النقد في ذاتها ليست بعيب او خطر وانما الخطر يكمن في هذه الروح التي يخرج بها النقد والتي يستعملها بعض النقاد والمنقودين فيخرجون عن الحد ويحيدون عن القصد . وانا هنا لا احب ان اكرر ما يقال وقيل دائما على صفحات الآداب عن هدف النقد والغاية السامية منه هذا الكلام الذي يتكرر في كلام كل ناقد وفي اول كل مقال نقدي .

فالنقد عملية بنائية مقومة وليس عملية هدم وتقويض وهذا هو الهدف الصحيح للنقد . والذي نجده متمثلا في الاستاذ صلاح كامل الذي اتبع طريقة مثالية فاضلة فعلا في ميدان النقد انبه السادة النقاد اليها لعلهم يتعظون . فالناقد يبدأ ولا بتحليل العمل الادبي مظهرا ما فيه من محاسن ومميزات اولا معقبا ذلك بالعيوب التي يشير اليها اشارة موحية في عبارة مؤدبة وصيغة ليست نابية او قاسية . ومن امثلة ذلك ما يقوله في خاتمة نقده لقصة « ثوار » انها اقصوصة واحدةمن الاقاصيص القومية

القلائل التي تنبع من وجدان كاتبها) . ويقول عن قصة « عندما يستيقظ الخريف » (ان الشريقي مع انه طرق موضوعا صعبا طرقه غيره كثيرون استطاع في نهاية الاقصوصة ان يأتي بنكهة جديدة في تحليل نفسية امرأة في الخريف على عتبة التجربة)

وهكذا وبهذا النقد النزيه المبرأ يسير الناقد الفاضل ، هذا عن المشكلة الاولى اما المشكلة الثانية التي اثارها حول قصة : « هذه ليست خطيئة » فسأناقش الناقد لهذه القصة في نقطتين اثارهما اولاهما حين قال عن القصة انها (اعتراف اصطنعه المؤلف للسخرية من قشور الدين ...) فنحن نجد ان الناقد قد ركز نقده على هذه النقطة وفسر القصة حسبما ارتآه هو لخدمة هذه الفكرة ، في حين ان هناك جانبا آخر في القصة . وفي رأيي ان هدف القصة الاصلي لم يعطه الناقد حقه من الابانة والتوضيح ، ذلك الجانب هو المغزى الوطني في القصة الذي ظهر في ذلك الموقف الرائع الذي قامت به المرأة القروية من تضحية بنذرها لله ان شفى ولدها فنجدها تعطي هذا المبلغ الذي خصص للنذر لابنها من اجل بدلة الفتوة حتى يصبح مقاتلا يعرف كيف يحمل السلاح ويستعمل البارودة .

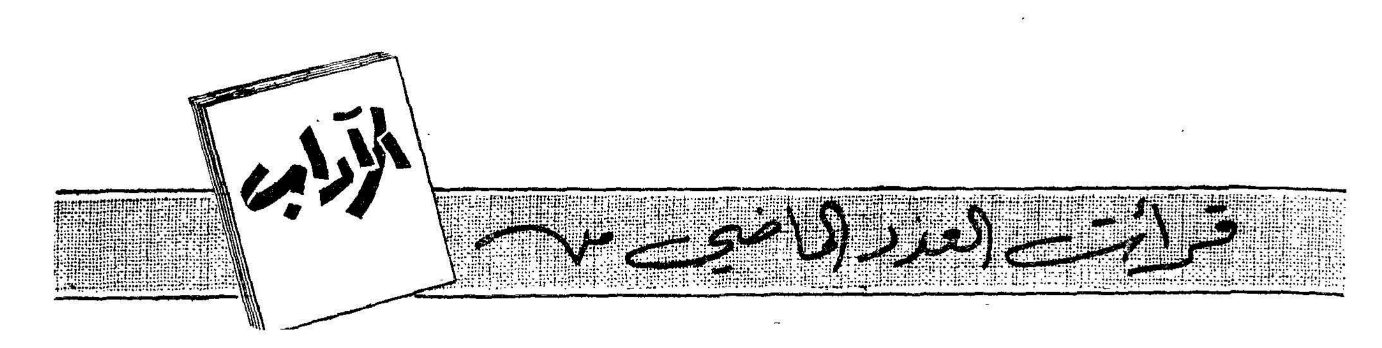
وثمت نقطة ثانية يثيرها الناقد الفاضل وهي ان القصة غير تامة الشروط وعدم اعتقاده في وجود مثل هذه الدينية التي تنطق بهاتيك الافكار والكلمات وانما هي صادرة - في رأيه - من لدن كاتب القصة الاستاذ جورج جبور .

ورأيي في هذا الموضوع ان القصة تامة الشروط من حيث البناء الفني ، اعني التكنيك الخاص بها ، وذلك لانها سرد لافكار متسلسلة قد تكون مونولوجا داخليا او مخاطبة لابيها مثلا . وفي الوقت نفسه في أفكار وكلمات عادية تراود ذهن كل انسان عادي وتتوفر هذه الحساسية والخوف من الخطيئة فعلا عند امثال هذه القروية والمتدينين والبسطاء .

ولذا فنحن نجدها تناقش خطاياها خطيئة خطيئة وتعترف بها واحدة اثر واحدة حتى تصل الى فعلها الاخير وعدم ايفائها بالنذر - الذي تكلمنا عنه آنفا - فلا تعتبره خطيئة (هذه ليست خطيئة يا أبونا) . حقا ان تلبية دافع الوطنية والواجب لهو اسمى الفضائل وامس ما يقربنا الى الله .

والخلاصة ان قصة الاديب جورج جبور قصة تامة الشروط من حيث كل العناصر القصصية فهي اقصوصة بمعنى الكلمة .

القاهرة — احمد حسن راشد



القصائد

بقلم الدكتور علي سعد

من يقرأ قصائد العدد الماضي من «الآداب» لا يسعه الا ان يكتشف فيها مواد جديدة تحمل على الثقة بمستقبل الشعر العربي وعلى اطراح الكثير من الشكوك التي تثار بين الفينة والفينة حول قيمة نتاجنا الشعري الحاضر . فمن خلال هذه القصائد ، لا اتردد في التصريح بان الشعر في عافية ، وان الشعر العربي بالف خير .

قد اتهم بالتسرع في الحكم ، بمثل هذا التعميم ، واستنادا الى بضع قصائد يضمها عدد من مجلة بمستوى « الآداب » تخضع الشعر الذي يردها لعملية غربلة قاسية .

ولكن تنوع هذه القصائد ، في مصادرها ، ومواطن قائليها ، وتنوعها في ينابيع الهامها ، وفي اساليبها ، يجعل منها نماذج اخذت على سبيل الصدفة (على حد قول الاحصائيين) وبالتالي صالحة لتمثيل حقيقة الشعر العربي اليوم .

لقد اشرت الى تنوع مصادر هذه القصائد . فمنها لشعراء اردنيين وسوريين ، ومنها لعراقيين وسودانيين ، ولتونسيين ، واكثرها لمصريين . وليس ذلك بالجديد على « الآداب »وعلى مجلاتنا الادبية وخاصة اللبنانية التي تستمد غذاءها الابداعي من نتاج الاقلام المبثوثة في كل الاقطار العربية .

ولكن ما اود ان الفت الانظار اليه هو غياب الشعر اللبناني من هذه المجموعة . وهذا الغياب لا يقتصر فقط على هذا العدد ولا على مجلة « الآداب » . بل يؤسفني ان اقرر انه ظاهرة لواقع اصبح ثابتا منذ سنين . فأنا اعتقد ان الشعر مفقود في لبنان ، الذي ظل يحمل لواءه حتى الحرب الاخيرة . لقد خمد صوت الشعر العربي في لبنان منذ عشر سنين على الاقل . وبين عشرات الوجوه التي تألقت في سماء الشعر العربي الجديد ، لا نجد اي وجه لبناني يطل بصورة واضحة ويفرض مكانته الى جانب البياتي والسياب والملائكة ويوسف الخطيب وعبد الصبور والعنتيل ومحي الدين فارس والفيتوري ، ونزار القباني والبغدادي .

ولست اجد المجال متسعا الان لبحث اسباب هذا التخلف اللبناني في ميدان العمل الشعري . ولكنني اكتفي بتسجيل هذه الظاهرة ، تاركا « للاداب » مهمة طرح هذه القضية على قرائها لمعالجتها بما تستحقه من العناية .

ووجه آخر من تنوع قصائد العدد ، تباين اجوائها ومحتواها . فهي تمتد من حدود الشعر الوجداني والغزلي الى لهب الشعر النضالي . وبذلك اصبحنا بعيدين عن الايام التي كانت فيها اعداد « الآداب » ومجلاتنا العربية زاخرة بالشعر الحماسي الخطابي،او الواقع المليء بالتفاهات. فشعر العدد الماضي لا يخلو من اتصال بواقع الحياة العربية والقضايا الوطنية التي تضطرب فيها . ولكن هذا الاتصال لم يعد يجبه القارىء بصورة مفتعلة لا تمده بحرارة الاندفاع الوطني الا على حساب الاحساس الجمالي ، وانما يبدو تلويحا خفيا وحييا بحيث تبدو العاطفة الوطنية اطارا لا يحجب الدفق الشعري ولا يعطله ، بل يكمله ويزينه ويغنيه ، لان هذه العاطفة تبدو انبجاسا طبيعيا متداخلا مع الخلجات المتولدة في ينابيع القلب وفلذات الروح .

لقد ازداد الشعر النضالي شفافية وصفاء وغنى وغناء . وازداد الشعر الوجداني كثافة وعمقا واحساسا بالمسؤولية والتصاقا بواقع الامة وحياتها . فتلاقى النوعان على منتصف الطريق ، لخير قضية الشعر عامة .

يستهل العدد بخمس قصائد ليوسف الخطيب تحت اسم « أغان من فلسطين » .

ويبدو شاعرنا ، هنا ، في اكمل حالاته وعدته الشعرية . وانني احيي وثبته البادية في هذه القصائد بالنسبة لاكثر شعره السابق . فهو ، على ما يظهر ، لم يستنفد بعد كل قدرته على التجدد والتطور . فقد استطاع في « أغان من فلسطين » ان يحقق جهدا محمودا في تكثيف شعره وضبط فيضه المتدفق ، وان يجرده من الطابع الخطابي الذي كان يؤخذ على الكثير من قصائده السابقة .

وشعره ، هنا ، يبدو ملموما اكثر ومركزا اكثر ، انه اقرب الى اللون المهموس . وفي هذه القصائد آثر الاستعانة بالاوزان الخفيفة .

ويوسف الخطيب ذو اداة شعرية طيعة تعينه على التصرف بالمواضيع التي تشغله ــ والتي تدور بأكثرها حول النكبة الفلسطينية ، والمآسي التي تفرعت عنها ــ تصرف القدير ، دون ان يعيقه اطار العمود الشعري التقليدي ــ الذي ظل يؤثر البقاء ضمنه ــ او يحد من رغبته في التجدد واغناء المحتوى .

وان كان لا بد من التخصيص ، فاني أشير الى قصيدته « رثاء عبد النور » . فهي تتحلى بالنبض الانساني المؤثر ، وبطرافة اللفتة وبالطريقة غير المباشرة التي يبرز بها الشاعر المأساة الانسانية ــ مأساة الموت من خلال مصرع فتى من فلسطين ــ بتصوير المآسي الفرعية ، والمظاهر

الجانبية من حياة شعبنا ومن الحياة الكبرى في الطبيعة . ونلمح في هذه القصيدة بعض سمات من رومنطيقية لوركا التي تشد الانسان الى الطبيعة الام وتجعل من هذا الهيكل الكوني شاهدا وشريكا في كل فواجعنا وصرخاتنا وملاذا اخيرا لنا في جراحاتنا وعذاباتنا واستشهادنا .

شهود موته براعم الاقاح
والسنديان والنسائم السماح
وشاح جبهة مريرة الكفاح

وانني ادعو القراء لاعادة قراءة ترجمة سعدي يوسف لرائعة الشاعر الاسباني ، مرثية اجناسيو سانشو ميخاس ، التي شاءت الصدف ان تنشر في العدد الماضي من « الآداب » . فهي تدور حول موضوع واقعي مماثل : مصرع فتى من اسبانيا الاندلسية . انني اطلب قراءة القصيدتين العربية والاسبانية فقط ، للتدليل على بعض السمات المشتركة بينها لا للمقارنة بين شاعرتين . على كل حال ، فلا ضير على شاعرنا العربي ، لو خرج خاسرا من هذه المقارنة . فاننا نقيسه بشاعر يعتبر اليوم من ارفع القمم الشعرية التي عرفتها الانسانية .

وفي قصيدة « موال الراعي الصغير » يحاول يوسف الخطيب ان ينقل الى الشعر الفصيح بساطة هذا الفن الشعبي الاصيل، فن المواويل، فنجح في تجربته اذ استطاع ان يدخل الى نطاق الفصحى بعض الصيغ التعبيرية العامية التي تدور في خيال العامة وعلى السنتها ، والتي تستهوينا بساطتها وبراءتها وعفويتها . وكذلك فهو قد نجح في ان ينقل بأمانة ايقاع البحر الذي تنظم به المواويل .

واذا كانت قصيدة « اغنية الى نهاد » تنقلنا الى جو ربيعي حالم من الغزل الذي يذكرنا باسلوب المدرسة اللبنانية التي دعيت « المدرسة الرمزية » فان القصيدة الاخيرة «نشور الخيام» تحملنا بتعابيرها وانغامها الحادة كشفرات السكاكين ، وبصورها الجهمة الى ادغال المأساة الفلسطينية التي تسد منافذ الطريق على حياتنا وضمائرنا .

قصيدة « دعوة الى العزوف » لسلمى الخضراء الجيوسي لا تصل الى مستوى القصائد السابقة التي قرأتها لها . فعنصر القصة فيها يغلب على عنصر الشعر . وقد اضاعت الشاعرة جهدها في سرد قصة بطلتها ووصف مختلف المواقف التي مرت بها وصفا يعتمد كثيرا على المنطق المتسلسل الذي هو اعدى اعداء الشعر . فأخمدت بمحاولاتها استنفاد جوانب الفكرة او الصورة التي كانت نقطة انطلاق القصيدة ، حرارة الطاقة الشعورية التي تقوم في اساس كل عمل شعري .

ولعل السهولة التي يجدها شاعرنا الحديث ، الذي يمارس طريقة الشعر الحر والطليق من قيود القافية والاوزان العسيرة ، هي التي تدفعه الى الانسياق مع اغراءات التعبير عن كل ما يجول في ذهنه من صور وافكار ومع محاولات تنسيقها تنسيقا منطقيا وبنائها بصورة هندسية منظمة لا تتفق دائما مع مقتضيات الشعر الذي يتطلب الاصطفاء والبلورة الى الحد الاقصى ، والذي يتميز عن بقية الفنون الكلامية بأنه يكتفي بالتلويح والايماء واللفتة ويعتمد على زخم المفاجاة وطرافة التنوع . اقول ذلك وانا اعلم ان شاعرتنا اخبر مني بهذه القيم . فقد سبق لها كثيرا ان ابدت تعلقها بها ، عمليا ، في قصائدها السابقة .

وننتقل بعد ذلك الى القضية التي احبت « الآداب » اثارتها بنشرها قصيدة « ساقان » لنزار قباني في صيغتها الاولى التي وردت في الطبعة الاولى لديوانه « قالت لي السمراء » وفي صيغتها الجديدة كما ستظهر في الطبعة القادمة .

والقضية الاساسية التي احسبها تهم « الآداب » هي معرفة ما اذا كان من حق الشاعر او المؤلف ان يتناول آثاره التي نشرت ، بالتعديل والتحوير بعد نشرها .

وانا اعتقد انه اذا كان يجوز لاي مؤلف ان يدخل تعديلات على كتبه ، في كل طبعة جديدة تصدر عنها ، تعديلات يقتضيها تقدم المعرفة ونموها ، واذا كان لكل شاعر ان يغير في بعض قصائده ، الكلمات او العبارات التي لا تمس جوهرها وطابعها العام ، فانه لا يحق لاي شاعر ان يدخل تعديلا جذريا على قصائده المنشورة ، بالمدى الذي تطالعنا فيه تجربة نزار قباني.

فالاثر الشعري والفني عندما يصبح في ايدي الجمهور ، يخرج من ملكية صاحبه ويصبح ملكا للجمهور والمجتمع . وان كل تعديل اساسي في هيكل الاثر ، وفي ملامحه المميزة ، لا يعدو ان يكون عملية تزييف للحقيقة ، حقيقة الاثر وحقيقة صاحبه ، كما تقومان في اذهان الناس ، بمجرد معرفتهم به . فاطلاع الناس على الاثر وتجاوبهم مع صاحبه وحمله في وجدانهم وفي وجودهم يجعل منه جزءا من تراثهم الفكري والذهني ويبيح لهم من الحقوق عليه مثلما للشاعر والفنان .

وما يصح عن التعديل يصح اكثر عن التجربة التي قام بها نزار قباني، والتي لا يمكن بأي حال تسميتها تنقيحا . فالاثران الموضوعان امامنا ليسا صيغتين متقاربتين لقصيدة واحدة ، وانما هما قصيدتان مختلفتان تمام الاختلاف . ولا شيء مشتركا بينهما الا العنوان والبيتان الاولان . ولا ادري سببا لاصرار نزار على تسمية القصيدة الجديدة نسخة منقحة عن النسخة القديمة . فقد كان بامكانه ان يعطي القصيدة الجديدة عنوانا اخر ، انها تختلف عن الاولى نصا وروحا واسلوبا ومحتوى واطارا وجوا.

انا اعلم ان كل قصيدة لا تخرج ابدا من نفس الشاعر وانه يظل مشدودا اليها بألف وتر وبألف رغبة لصقلها ولمدها كل يوم بحياة جديدة .

ولكنني لا افهم محاولة للذهاب الى مثل ما ذهب اليه نزار قباني ، في تغييره معالم القصيدة وطراز بنائها ومواد بنائها ، ثم تقديمها الينا على انها الولود القديم نفسه . ان لم يكن هذا تزييفا فأين هو التزييف (✱)؟

هذا من جهة المبدأ . اما اذا حاولنا مقارنة القصيدتين المعروضتين فاننا نرى انهما تعطياننا مقياسا لمدى تطور النهج الشعري عند نزار قباني .

فالقصيدة القديمة تمثل اسلوبه الاول عندما كان لا يواجه العالم الا بحواس نهمة وعندما كان شعره صورة عن عالم لا مكان فيه الا للموجودات الحسية : الشفاه والعيون والنهود والانامل ، والحرير والعطور واصابع الحمرة والشبابيك والقمر ، أي عندما كان شعره كما شبهه احد قرائه : مخزن « نوفوته » او صالون تجميل .

اما القصيدة الجديدة فتمثل النزعة الجديدة التي بدأ يتجه اليها شعر نزار حيث اخذت معاني الاشياء تبدو اكثر اهمية من الاشياء نفسها ، وحيث بدأت كلماته تعري الواقع من اشكاله المحسوسة الخارجية لتنفذ الى روحه وقلبه ، وحيث الرعشة الانفعالية ، والانطباعات والاصداء الداخلية تحتل مكانا مساويا الى جانب الصور والتشابيه الملونة التي تعكس اعضاء المرأة وعالمها المعطر . هذا مع اعتقادي ان القصيدة الجديدة لا تخلو من تفكك في قسمها الاخير ومن عدم تجانس بين مختلف اجزائها.

واخيرا فان في القصيدة الجديدة اقداما على فك الطوق الشكلي الذي اراد الشاعر في محاولته الاولى ، ان يقيد نفسه به ، حين نظم قصيدته

(✱) نحب ان نذكر القراء بان الناقد الكريم الدكتور علي سعد قد خاض مؤخرا معركة الانتخابات النيابية في لبنان !.. (الآداب)

على روي واحد لا يتنوع ، في كل مقاطعها ، على طريقة الرجز (وعلى النسق الذي اتبعه يوسف الخطيب في قصيدة ((نازحون))).

واذا كانت العودة الى القافية الواحدة في عجز البيت فقط ، قد حررت الشاعر بعض الشيء واتاحت له التعبير بطلاقة اكثر عن مادته الشعرية ، فانها افقدته الاثر المخدر ، المدوم الذي يحدثه الايقاع الرتيب المنبثق من الروي الواحد .

وقصيدة ((الذي مزق الاسطورة)) التي يهديها هاشم الطعان للفدائي الجزائري محمد بن صادق من الشعر الثوري الذي ينبع من اغوار واقعنا الثوري في الجزائر . فهي تتوهج بكل حرارة الملحمة الجزائرية ولهبها وجلبتها وتنبض بكل صرخات الدم والموت الصعدة منها . هذه القصيدة تتسم اذن بطابع العنف الجدير بوحشية الصراع في تلك الارض التي تبدو وكأنها خلت من رحمة الله ونسم الانسانية . فالانفعالات والافكار والصور تتلاحق فيها ، وتنمو وتلتف وتشتجر كما تنمو الاشجار في الادغال البكر . ويتعالى النشيد الفاجع كما يتعالى وقع الاقدام ودوي الطبول التي ترافق المحكوم بالاعدام . كل ذلك ليضعنا الشاعر في جو من التوتر النفسي الملائم لتقبل الحدث الدامي الذي يهيئنا لمشاهدته . واذا بكل هذه الهياكل من الاشياء والشخوص والجلبة التي جسدتها الكلمات تنهار عندما ينطلق المسدس في يد الفدائي الكبير .

ان قصيدة هاشم الطعان ، في مستوى الملحمة الجزائرية التي تفتح كوة عن جانب صغير منها .

ويقدم لنا حسن فتح الباب ، في قصيدة ((حكاية من الصبا)) لونا من الشعر النضالي الذي يقيم الجسور بين حياة الناس العاديين ، في افراحهم واعيادهم وحنينهم وحبهم ، والقضية الوطنية الكبرى التي تجمع هذه العواطف والحيوات .

ولكن هذه القصيدة تمتاز بنداوة خاصة وبحلاوة في القص والنقلة من جو الى جو ، ببراعة لا نجد لها مثيلا الا في جو حكايات الاطفال . والشاعر لا يخاف اللجوء الى الاستعارات الغريبة والصور الجريئة التي تلقي على قصيدته مسحة من السوريالية المحببة وتجعل من شعره اداة سحرية وتتضاءل امامها الحدود بين الموجودات التي تصنفها معرفتنا :

كفي عن السؤال
عيناك تشعلان حولي السكون
تطوقان خيمة المساء
يداك في يدي طائران يطعمان
من حبة الفؤاد
فراشنا الصغير .
.. ويصنع الطغاة من اعوادنا مشانق
ومن رقابنا مناجل
ليحصدوا في ارضنا الربيع ..
ويحجبوا وجه الصباح

((حكاية من الصبا)) حكاية الشباب الذي ايقظته الحقيقة الفاجعة من حلم الصبا الجميل .

يؤسفني الا اجد في قصيدة ((البعد الخامس)) للطيب الشريف غير عملية تنجيم ، بمحاولاتها لكشف رموز لا تزيدنا الا غوصا في المبهم .

اما قصيدة ((عشاق المدينة)) ففي مستوى الفيض الغزير من الشعر الذي يرفدنا به دوما مجاهد عبد المنعم مجاهد . ويشفع لها النغم الراقص المنبعث منها والذي يؤهلها لعملية تلحين تنقلها الى عالم الاغنيات .

ويحافظ جيلي عبد الرحمن في قصيدته ((قطرات الصيف)) على الطابع الطفولي والعفوية واللعب البريء الذي احببناه في شعره الرصين الذي قدمته لنا دار الفكر في مجموعة ((قصائد من السودان)) .

وكما في تلك القصائد ، نراه ، هنا ، يجمع الى واقعيته المتمثلة بوصف حياة الناس وهمومهم ولعبهم في الريف وفي المدينة ، وباستعارة كلماتهم واندفاعاتهم واشواقهم ، قدرته على استخدام الشطحات التعبيرية الغريبة التي تقربه من السوريالية :

يا ظل الصفصاف .. ايا حب
مد فروعك .. واطرد كل غيوم الصيف
وافرش هذا الشارع بالعشب
واسق الحيطان من النور ..
فاركض يا حب ..
مد الى الغيم ذراعك
وابذر كالشمس شعاعك
وتضرع للسحب !
((هناك وراء الصخر ، على الارض الجهمه
تنساب قلوب الناس .. يا سحب الرحمه !

وماذا نقول في عبق التراب الذي يفوح كله في شعر جيلي عبد الرحمن وماذا نقول في الظمأ الذي لا يرتوي عند الشاعر ، المضيع في شوارع المدينة الكبيرة ، الى نداء الارض البعيدة ؟ هذا العبق وهذا الظمأ يطلان ايضا في قصيدة ((قطرات الصيف)) ويفيضان عليها نداوة الذكريات في القلب الذي لا ينفك طفلا ، كما يقول :

قلبي يبتل على الشارع
الطفل المذعور ... القلب
يستاف الى الحب الفارغ

علي سعد



الأبحاث

بقلم عبد اللطيف شراره

تدور ابحاث العدد الماضي من الاداب ، جملة وتفصيلا ، حول الجانب القومي من حياة العرب الفكرية . ويحتل المغرب العربي منها القسم الاوفى . وانك لتجد ، حتى في مقالة الانسة نازك الملائكة ، وهي التي تعرض لما يجول في الاغاني العراقية من افكار وصور واحاسيس ، حديثا قوميا شائقا .

غير اني لاحظت ، في جميع هذه الدراسات الفكرية القومية ، ان منشئيها ينسون ((الرابطة)) بين الماضي والحاضر ، او يغفلون العلاقة بين الجو العام الذي يجري فيه التاريخ العربي ، والاحداث الخاصة التي تجري في عصرنا هذا .. واليكم البيان بالتفصيل :

وجوه وشؤون مغربية

تحدث الاستاذ محمد النقاش – وهو الباحث السياسي – عن رحلته

الى القطر المراكشي . ويمكن تلخيص حديثه عن تلك الرحلة في ثلاث نقاط اساسية : ١ ـ الاتجاهات الوطنية في المغرب . ٢ ـ السياسة الفرنسية الراهنة هناك . ٣ ـ مواقف اميركا في تلك الديار .

لم يحاول الاستاذ النقاش ان يربط في انطباعاته بين مختلف النقاط التي عرض لها ، ولا اوضح العوامل الكامنة وراء الواقع الذي وصفه ، ومع انه ذكر « الاطلسية » ـ وهي حجر الزاوية في سياسة اميركا الراهنة ـ فانه لم يوضح تمثلاتها في تلك البلاد ، ولا بين المسالك التي تسلكهـا لتحقيق اغراضها ، وهي الابقاء على النفوذ الغربي ، وحلول امريكا محل اوربا في آخر جولة بين المغاربة والاوروبيين .

« مجندون يشهدون »

هذه هي المرة الثانية التي يعرض فيها جان ـ بول سارتر لمشكلة فرنسا في الجزائر ، ومن زاوية خاصة ، هي « الموقف الاخلاقي » الذي تقفه فرنسا من هذه المشكلة . وفي كل مرة ، يحاول سارتر ان يوقظ ضمائر مواطنيه ، ان يكشف لهم « الخفايا » ، ان يوجههم نحو السير في الطريق الذي يراه مستقيما .

لا بد من الاشارة الى هذه الروح النبيلة السامية في كتابات سارتر حول قضية الجزائر ، ولا بد من القول : ان سارتر وحده ، ينهض بالبرهان على ان اوربا لم تخل بعد من رجال يقيلون عثرتها ، ويهدونها سواء السبيل في تخبطها الراهن ، وعجزها عن مقاومة الانحلال ..

الا ان هناك جانبا يضرب عنه سارتر صفحا ، في درسه لواقع المشكلة الجزائرية ، وهو « العلاقة » بين ما يجري في داخل فرنسا ازاء الجزائر، وما يجري خارج فرنسا ازاء فرنسا ، من اجل الجزائر . اي ان سارتر لم يحاول بتعبير آخر ، ان يتلمس ما يراد بفرنسا من سوء ، حين يساعدها الاجانب على عمل ما تعمله في الجزائر ، فالمشكلة ليست اخلاقية وحسب ليحلها الضمير الفرنسي ، حين يستيقظ ، او يخلص من اجرامه ، او يصبح « نظيفا » ، وانما هي سياسية ، دولية ، حضارية ، ولا تحل الا بتصميم الافرنسيين على التحرر الكامل المطلق من النزعة الاطلسية .

المشكلة هي ان فرنسا فقدت حرية العمل حين تعلقت بالجزائر ، واستثمر غيرها تعلقها هذا في خدمة اغراضه الاطلسية . فأصبحت في موقفها السياسي الحرج غريبة عن نفسها ، معادية للانسانية ، مخالفة لحقوق الانسان ، مضطرة الى نقض ميثاق الامم المتحدة في كل ما تقدم عليه ، وما هي ، في الوقت نفسه ، بقادرة على الاستغناء عن الامم المتحدة والسير حتى النهاية ، على نهج هتلر ، والنسج على منواله .

المشكلة ان فرنسا غي مولليه غير المانيا هتلر ، ان في الداخل وان في الخارج ، ان في الثقافة وان في الاتجاه الحضاري . ولكنها تضطر الى الاقتداء بهتلر ، واتباع مناهجه ، للابقاء على وجودها في الجزائر .. والمقارنة التي يعقدها سارتر بين مسؤولية فرنسا بمجموعها عما يجري في الجزائر من فظاعات وفضائح ، ومسؤولية المانيا بمجموعها عما كان يجري في عهد هتلر من تعذيب واضطهاد وتنكيل ، صحيحة لا يرقى اليك الشك . ولكن صحتها لا تمنع من ان يكون « الاطلسيون » بمجموعهم يشتركون مع فرنسا في الجريمة ، ويحملون معها المسؤولية نفسها . ولا يبعد ان تكون فرنسا قد ظهرت على هذا الشكل ، بأوضح مما كانت عليه من قبل ، لانها انساقت في الجو الاطلسي ، واصبحت عضوا في الاسرة الاطلسية .

هذا يعني في التحليل الاخير ان مبدأ الاطلنتي الذي يقرر « ان امتلاك سواحل الاطلنتي في اوربا وافريقيا وجزر الاطلنتي ، ومختلف منافذ الاطلنتي ـ بحر الشمال ، والمانش ، ومضيق جبل طارق ـ من قبل دولة يمكن ان تكون معادية للولايات المتحدة ، يشكل خطرا على السلم ، وعلى امن الولايات المتحدة الامريكية » ، هذا المبدأ هو المسؤول عن البلاء الذي تعانيه فرنسا ، ويعانيه الجزائريون ـ والمغاربة اجمع ـ بفرنسا .

يقول سارتر : « انه لم يفت الاوان بعد لاحباط عمل ملتزمي الهدم القومي، وما زال ممكنا تحطيم الدائرة الجهنمية لهذه المسؤولية اللامسؤولة هذه البراءة المجرمة ، هذا الجهل الذي هو معرفة ، فلننظر الى الحقيقة فهي ستتيح لكل منا، اما ان نشجب علنا الجرائم المقترفة ، واما ان نتبناها ونحن واعون » .

كيف يمكن ان تحبط « الحقيقة » عمل ملتزمي الهدم القومي في فرنسا ؟ وما هي سبلها الى مثل هذا الاحباط ، والقول بأسرة اطلسية، فضلا عن العمل من اجلها ، يؤدي حتما الى هدم القومية الفرنسية ؟ اين هي الحقيقة في فكرة « الاسرة الاطلسية » ، واعمال فرنسا في الجزائر نابعة من تلك الفكرة ؟

المشكلة كما يراها سارتر ، او كما يطرحها على الاصح ، تظل مغلقة ، ومفتاحها الحقيقي في استقلال فرنسا الصحيح ، وحريتها الكاملة ، وتخلصها من القوى الخارجية والداخلية التي تريد ربطها بمصير غير مصيرها .

شخصية الاخرين في الاغاني العراقية

لا تمسك الانسة نازك الملائكةبالقلملتكتب نثرا، الا اذا كان لديها « شيء جديد » او موضوع طريف ، فهي اذ تنثر تتناول ما بفكرها من طرائف حية، وخواطر يانعة حلوة ، تستقيها مما تلاحظه في مجرى الحياة من حولها ، او مما ينهيه اليها ذهنها الفني المترف بعد التأمل في صفحات الحياة والكتب .

هكذا .. وبهذه الروح تتناول مثلا موضوع « الشعر والموت » او «النقد وفضله عن التحليل النفسي » . واليوم تحدثنا عن « ظاهرة » يعرفها الادب العربي ولا نعرفها في غيره هي حكاية « الواشي » و « العذول » و « النمام » في الاغاني العراقية .

ولي على حديثها هذا اعتراض اراه مهما ، هو انها لم تلاحظ الجذور التاريخية للواقع العراقي الذي تصفه ، فهي اذ تربط ما يجري فيالمجتمع العراقي من شكاوى المحبين ونقمتهم على الوشاة والعذال بحكاية اسطورية ساذجة ، تسهو عن هذه الحقيقة الكبرى ، وهي ان الاسطورة ذات دلالة تعبيرية عن البناء العقلي في المجتمع الذي تنشأ به ، وتنتشر فيه .

المجتمع العراقي الراهن يضرب في اعراقه الثقافية الى العرب الاقدمين، وجذوره التاريخية قائمة في سيرة القدامى ، وهنا ، في هذا الباب ، نجدها عند مجنون ليلى ، عند قيس ابن ذريح ، عند ليلى الاخيلية وذي الرمة والعباس بن الاحنف وغيرهم من ابطال « مصارع العشاق » .

اذا عدنا الى هؤلاء ، ندرس ما لديهم من شؤون الحياة العاطفية ، ونتحرى ما كانوا يمرون به من مشاكل ، وقعنا على « العذال » في اول درجة ، ومن ثمة على الوشاة والنمامين ، واخيرا على « شخصية » الاخرين في كل ما يقولون وينظمون .

تلك هي مأساة لبنى وابن ذريح من اولها الى اخرها . وهي هي مأساة المجنون . وهي هي التي تطل في « غراميات » الشريف الرضي القائل :

وكم سرقنا، على الايام ، من قبل   خوف الرقيب ، كشرب الطائر الوجل

وبيت المجنون ، اشهر من ان نذكره :

ولو ان واش باليمامة داره وداري باقصى الرقمتين ، أتانيا

والمشكلة في جوهرها ، اجتماعية ، اي ان حلها متوقف على تربية العواطف ، واحترام المرأة ، والاخذ بمبدأ الحرية والالتزام بالمسؤولية .

هذه امور لا يمكن ان تتحقق في مجتمع بدوي . وتحقيقها يحتاج الى جهود ، واستمرار في تثقيف الناس ، وصرفهم الى آفاق ارحب ان في الاحساس ، وان في التفكير .

ولن « يفطن الامير النائم الى المؤامرة ، ويذهب باحثا عن فتاته التي انقذته من سباته .. » ما دام ثمة مجتمع ينام ، ولا يفطن الى ما يراد به من سوء ..

في الترابط الاجتماعي والقومي

يعرض هذا المقال افكارا حول التجمع القومي تكاد تكون في جملتها موضع جدل ، بمعنى انها غير نهائية ، وبالتالي غير اكيدة ولا ثابتة ، من جهة علمية ، وان كانت موضع ايمان عند اناس ، ومحل شك لدى الآخرين.

منها « ان كل ما نرى على وجه الارض من مخلوقات بشرية ، على اختلاف الوانهم واشكالهم يرجعون الى اب واحد » . فهذه قضية لا تصح الا من وجهة النظر الديني ، ولدى الاديان السماوية .

ومنها « ان الموجات السامية المعروفة خرجت من الجزيرة العربية » والنظرة العلمية اليوم تنفي هذا القول ، وتؤكد ان « السامية » وصف ثقافي ، وليس له ادنى دلالة سلالية او عنصرية . ولا يمكن من ثمة اعطاء الهجرات عاملا وحيدا ، او سببا واحدا ، يحتمها ، كجدب الارض مثلا او ازدياد عدد السكان .

ومنها « ان بداية التحول في تاريخ الانسان البدائي هو الاستقرار وما تبعه من تكون الانظمة البدائية » . وفي هذا التقرير تشوش ظاهر ، فالتحول الذي بدأ ، انما كان من عدم استقرار الى استقرار ، وفي الاستقرار تحولت الانظمة من بدائية الى غير بدائية . لا بد لايضاح ما هو غامض في هذه الفكرة من ترتيب الاسس ووضع القواعد لمعاني التحول والاستقرار ، والانظمة البدائية .

ومنها « ان اول دولة توحدت على اساس قومي في التاريخ الحديث هي انكلترا » . وهذا غير صحيح ، فانكلترا لم تتوحد على اساس قومي وانما استطاعت جزيرة « انجلند » ان تخضع اسكتلندا وبلاد الوايلز لسلطة ملكها بالقوة المسلحة ، والضغط والارهاب ، وحين حاولت ان تضم اليها جزيرة ارلندا لقيت من المقاومة ما لم يلقه بلد . ولا تزال المعركة القومية مستعرة الى اليوم بين انكلترا وارلندا .

اما نشأة الشعور القومي عند العرب ، فانه ابعد في التاريخ من العهود الحديثة . واقدم عهدا من السلطنة العثمانية ، ونشوء المسألة الشرقية . انه يرقى الى ايام الشعوبية الاولى التي ساءها تفوق العرب فعمدت الى التشنيع والازدراء واتخذت من بعض الكتاب والشعراء السنة لها ودعاة ثم تمثلت في حركات سياسية كان من جرائها نكبة البرامكة ، ونزاع الامين والمأمون . واستعانة المتوكل بالاتراك فيما بعد ..

بدأ الشعور القومي يظهر في اطار العروبة ، منذ ذلك الحين ، واخذت الشعوبيات المتنوعة تقاوم هذاك الشعور ، ولا يزال امره يضعف ويقوى الى ان ظهرت القوميات الاوربية في شكلها السياسي . وقد جاءت متأخرة عن العرب باثني عشر قرنا وما ينيف ..

طاقة الحياة ام ارادة البقاء ؟

يقول الاستاذ عبد الله القصيمي في مقدمة موضوعه هذا : « هذا مقال قدرت انه قد يطلق فينا قلقا فكريا وقلق الفكر هو دائما الالم الذي يبشر بميلاد شيء ما » .

اخشى ان يعد الاستاذ في مقاله هذا واحدا من اولئك المفكرين الاقدمين الذين يطلق عليهم الفلاسفة نعت « الاسميين » Nominalistes وهم فئة تضيع عن الوقائع ازاء الالفاظ والكلمات ، فأنا لا اجد فرقا بين طاقة الحياة وارادة البقاء حين اواجه كلمة « ارادة » من زاوية مضمونها الحيوي الاصيل . فالذي يريد البقاء ، ويعزم على ما يريد ، ويمضي فيما يريد ، ويسعى سعيا حثيثا الى تحقيق ما يريد ، يعبر ، ولكن بعزمه ومضيه وسعيه ، عند طاقة حيوية تتمثل في ارادته . وبذلك يظل الواقع موضعه سواء عبرنا عنه بقولنا طاقة حياة او ارادة بقاء.

وقد سبق شوبنهور الفيلسوف الالماني الشهير الى تسمية العواطف والانفعالات والرغبات والاشواق والاماني والاحلام ، وكل ما يصدر عن الحياة العاطفية بقول مختصر ، « ارادة » ووضع نظرته الشهيرة « العالم ارادة وتمثيل » . وبهذا ترجع القضية الى مفهوم الارادة ، والى مفهوم الطاقة ، وما يتضمن هذان المفهومان في ذهن المفكر ، من فروق بينهما ووجوه شبه .

نعم ! هناك قضية المساواة بين الافراد والشعوب والامم التي يثيرها الاستاذ القصيمي ، على صعيد جديد ، من خلال تأملاته في نشاط المادة ونشاط الحياة ، وفي ظني ان البيولوجيا والجينيتيك (علم الانسال) وتجارب الوراثة ، كفيلة برد هذه القضية الى اصولها ، ووضعها في قرارها الذي يصح اليه الاطمئنان . وليس للفلسفة هنا مجال .

وانا في هذا الموضوع من رأي برغسون الذي قال : « علينا ان لا نشمخ في النظر الى الشعوب التي نصفها بقولنا : همجية . لنقل فقط انهم لم يتعلموا ما تعلمناه » !

الادب الشعبي والمقاومة الجزائرية

هذا بحث يشكر عليه الاستاذ عثمان سعدي ، فقد استطاع ان يوجه ادباء العربية نحو افق جديد ، وان يحرك فيهم النخوة الى « ولوج معركة الحياة في صميمها . » واذا كنا هنا ، في لبنان ، لا نعرف شيئا عن الادب الشعبي في نضال الجزائر ، فكثيرون هم الذين يعرفون هذا الادب في ثورة فلسطين ، في ثورات سوريا ، في انتفاضات العراق ، في نهضات مصر المتوالية .

اذكر اني تعرفت الى شاعر شعبي كان كل عمله ان يلقي ما ينظم على ثوار فلسطين ابان احتدام المعركة في عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ، وكانوا ينادونه « الشيخ نوح » وقد قتل شهيدا في احدى المعارك . اذكر انه قرأ علينا بعض منظوماته الشعبية فالب الحضور حماسة ، ومدهم بطاقة « معنوية » هائلة .

هذا الشاعر الفلسطيني الشعبي الذي يشبه قدور الحدبي الجزائري ، اصبح الان ـ وهو الذي قضى شهيدا ـ مغمورا ، فهل من يكتب سيرته؟.. وهل من يروي اشعاره ؟..

ان ما يتحدث به الاستاذ سعدي عن اثر الادب الشعبي في كفاح الجزائر من الناحيتين : السياسية والعسكرية ، خليق ان يهيب بكل اديب عربي ، في كل قطر ، ان يضع الاسفار في هذا الموضوع وان يجلو الغامض من حياة الشعب الذي يعبر بادبه الخاص عما لم يستطع ادباء الفصحى ان يقولوه ، ولا سبق لهم ان انتبهوا له .

الثورة بين النظرية والارتجال

الاستاذ ناجي علوش مشوش في مقاله هذا ، ولا ارى من سبيل الى ايضاح جانب « التشوش » فيه ، فمن اراد ان يصور الفوضى ، جاءت الصورة حتما فوضى .

تراه يتحدث عن « الثورة » التي يعيشها المجتمع العربي ، فلا تعرف اي مجتمع عربي ، ولا اي ثورة ! اهو يتحدث عن العراق ام عن سوريا ام عن الجزائر ام عن اليمن ؟ ثم هو يقارن بين مختلف الآراء والنظرات الفكرية السائدة في العالم ، وفي البلاد العربية ، ويقرر تقريرات خطيرة لا تستند الى وقائع ، ولا تقوم على درس منظم ، ويردد ، ويكرر ما يقول : « الثورة لم يعشها الشعب على هدى » و « طبيعة المعركة هي التي تحدد حاجتنا الى النظرية » و « الاشتراكيون العرب يرون ان هذه المعركة هي معركة القومية الآخذة في التبلور والنمو » .

وخلاصة ما يريد الاستاذ علوش « نظرية » تحدد موقف الثورة العربية الراهنة من كل المبادىء والنظريات .

هنا .. يجب ان نتفاهم ! كان من رأي الاستاذ عبد الدائم ان الفكرة العربية انتهت من صراعها مع الاستعمار ، واصبح من واجبها ان «تفلسف» وجودها .

وكان من رأي الاستاذ سعدون حمادي ان النهضة العربية كملت ، ولم يبق عليها الا ان تتحول الى فلسفة او نظرية . وها هو الاستاذ علوش يرسم حدود « النظرية » المرجوة ، بعد ان يحدد وجوبها ، او الاسباب التي تدعو الى انشائها .

ورأيي كان ـ ولا يزال ـ ان الفكرة العربية لم تخلص بعد من الشعوبيات ولا من الضغط الاجنبي ، فلا يمكن ان تحقق نفسها في فلسفة.

ورأيي ان النهضة العربية ليست واقعا متمثلا في مؤسسات علمية ، ومدنية ، وفنية ولا هي بارزة في مجتمع راق ، ولا في مظهر حضاري واضح ، فلا معنى للبناء على اساس واه من الجهل والاقطاع .

ورأيي اليوم ، اي مع الاستاذ علوش ، انه ليس هناك ثورة ، وليس هناك « مجتمع عربي واحد » .

هناك عدة مجتمعات عربية تتفاوت حظوظها من الرقي والتمدن ، وتتباين في مستوياتها الثقافية ، ولا يجمع بينها غير الاصول القومية والمطامح والمشاكل والاماني والآلام .

هذه المجتمعات ليست في حاجة الى فلسفة ، ولا الى نظرية . انها في حاجة الى غذاء وكساء ودواء. الى مدارس ومستشفيات وطرقات ومزارع . الى من يقاوم فيها البطالة ،ويمدهابمياهالريوالشفةويحميهامن الانتهازيين والمحترفين السياسيين والمتفلسفين .

هذا كل ما تحتاج اليه المجتمعات العربية ، ومتى اتيح لها ان تؤمن هذه الحاجات الاولية ، ـ ولا يتاح لها ذلك الا بالاستقلال السياسي في ـ اول درجة ـ ملات الدنيا فلسفة وكلاما حلوا ، واخترعت من النظريات ما لا نستطيع ان نتصوره الآن ...

عبد اللطيف شراره



بقلم عايدة مطرجي ادريس

١ ـ حذاء العيد ـ لجورج طرابيشي

تمتاز هذه القصة برقة ورهافة كبيرتين تنبعثان من هذا الحوار الذي يدور بين الاخوين الصغيرين حول اختيار حذاء للعيد كان الاخ الاكبر قد وعد بشرائه لهما . وهذه الرهافة ناتجة عن تصوير نفسية الولدين عبر كلامها وعيونهما تصويرا واقعيا يدركه كل من كانعلى صلة وثقى بالاطفال. فهذه اللامبالاة في حالة الاخ الاكبر المادية لا تهمهما ، ذاك ان العالم كله لا معنى له الا بقدر ماهومتصل بهما . وهنا تبرز ناحية الذاتية المتطرفة التي تميز الاطفال . ويصورها الكاتب هنا بهذا التناقض الذي ينتصب بين النفسيتين المتقابلتين: النفسية التي ترهقها المسؤولية والوعي والتفكير في اللحظة القادمة . والنفسية اللاهية التي لم يلونها الوعي ولا المسؤولية ولا التفكير فيما وراء اللحظة الحاضرة ، من اجل ذلك لا يستطيع الطفلان ان يعيا حالة اخيهما المادية ولا النفسية التي تحرقه بل ينهمكان في اختيار لون الحذاء وهما على اشد اليقين بانهما سوف يحصلان عليه .

ولعل جمال هذه القصة ناتج عن نزعة انسانية تتغلغل فيها باعثة في كلماتها حرارة الحياة المتدفقة . وهذه النزعة تتمثل في تصوير هذه المأساة التي يقع ضحيتها كثير من الاهل اذ يقبل العيد والجيوب خالية من النقود ، وعيون الاطفال حالمة بالهدايا الجميلة وشفاههم تتلمظ بطعم السكر الذي سيمتصونه والثياب الجميلة التي سيرتدونها والتي طالما وقفوا امام المرآة يحلمون بها . ان الاطفال لا يستطيعون ان يفكروا بشيء من دون ان يضيفوا عليه اشياء جديدة من خيالهم . ولعل اهم ما يمتاز به تفكيرهم هو طغيان الحاسة الخيالية عندهم على العقل . وفي القصة يتمثل الطفلان حذاءهما الجديد ثم ينتقلان الى لونه وشكله وخطوطه .

ان الاطفال يتخيلون الشيء ثم يصدقونه . وهذا ما عبر عنه الكاتب

اصدق تعبير اذ يقول : « انهما لم يعودا بحاجة الى التفكير بالحذاء اذ اصبح جزءا لا يتجزأ من كيانهما » وهذا ما جعل الطفلين يصدمان صدمة شديدة حين صرخ فيهما الاخ بانهما لن يحصلا على شيء ، فلم ، يصدقا بادىء الامر ، ولكن الواقع يفرض نفسه ، حتى على الاطفال الذين هم اشد من يرفض الواقع ولا يقر به .

ولا يهتم الكاتب بتصوير نفسية الطفلين الا ليكشف عن نفسية اخرى تهمة وتحز في نفسه تمثل فكرة الفقر التي تتأكل البطل ولا يستطيع ان يعبر عنها امام الطفلين ليقينه بانهما لن يفقها شيئا .

وقيمة القصة تقوم على هذا التحليل النفسي الداخلي بالذات يلجأ اليه الكاتب اذ يموضع البطل ضمن اطار خارجي معين يبتسم كل شيء حوله وينطق بالبهجة والسعادة والحب والاندفاع ويسري معين الحياة متدفقا في جميع العروق : عروق الاشجار وقلوب العذارى والشعراء وحتى الشيوخ والمرضى . اما هو فيحس هذه المأساة ويعيها حتى تستقطب همه كله : انه لا يريد ان يصدم اخويه ، وهو مع ذلك لا يملك ان يشتري لهما احذية . ان عالمه عالم قائم بذاته ، عالم يتأكله الغيظ والقرف والضيق لا يحيط به سوى اربع عيون تتراقص من الفرح .. ما كان الكاتب ليضعها لو لم تكن مأساة البطل تكمن في التحديق بها والخوف من الانهزام امامها ، وفي الاستماع الى تلك الشفاه تنثال الكلمات عبرها بعفوية وبساطة تشكل السلاح الحاد الذي سيطيح بقسوة فرضها التفكير في شراء احذية لن يمكنه الفقر من شرائها .

القصة اذن موفقة من الناحية التحليلية سواء كان ذلك في تحليل نفسية الطفلين ام في تحليل نفسية الاخ، ولكن التعرض لبعض التفاصيل في التحليل ، ان نجح من الناحية السيكولوجية ، فقد افقد القصة بعض جمالياتها . واعتقد انه يقتل عند القاريء اللذة التي تنبعث من استجلاء الغموض المستحب . فان تدخل الكاتب واضح مثلا في قوله : « انهما بعيدان جدا عن عالمه » ان سير القصة كله يدل على هذا الحاجز الفاغر فاه بين الطفلين والاخ ، ولم يكن الكاتب بحاجة الى هذا التدخل ، ولكان من الافضل ان يترك ذلك للقاريء يستخلصه . ان القصاص الفنان هو الذي يأسر القاريء ـ يأسر جميع ملكاته الحاسة منها والعقلية .

وتدخل المؤلف الذي يعيب فنية القصة واضح ايضا في قوله : « انهما لم يعودا بحاجة الى التفكير بالحذاء اذ اصبح جزءا لا يتجزأ من كيانهما » . ان الحوار كله الذي يجري بين الطفلين يدل على ذلك، ولكان من الافضل ان يعمق هذه الفكرة ويبسطها على شفاه الطفلين نفسيهما .

وبالرغم من تدخل المؤلف في اكثر من مقطع فان القصة تظل من القصص الانسانية الموفقة .

٢ ـ الابد الصغير ـ لخالد الشريقي

بقدر ما تمتاز به القصة الاولى من الوضوح والسهولة تمتاز هذه بالغموض الشديد . فانت تقرأها للمرة الاولى فلا تعي ما اراد كاتبها ان يقول، وقد تقرأها اكثر من مرة من دون ان تضفي عليها هذه القراءات انوارا كاشفة . وليس السر في الموضوع ، فانه موضوع بسيط قد عولج اكثر من مرة ، وقد عالج ما يقاربه في العدد الماضي من « الآداب » الاستاذ وجيه رضوان . وليس لنا ان نناقش في الموضوع . فالفنان حر في طرق اي موضوع يؤثر في نفسه وان كنا ممن يحبذون تناول مثل هذه المواضيع القومية . ولكن الشرط الاساسي والاول يكمن في ان تخرج هذه القضايا وهي مشبعة بنسغ فني يشد اليه القاريء شدا ، لما يحرك فيه من احاسيس وعواطف وافكار ..

وموضوع القصة يدور حول حراسة يقوم بها الراوي في بعض المخافر على الحدود السورية اليهودية ذاكرا الحماس الذي كان يبديه وهو حدث لتأييد القضايا القومية بالرغم من انه كان يتهم بالجبن في صغره ثم كيف ترك اهله باسطا روحه على كفه . واللحظة التي تدور فيها القصة هي وقت الحراسة التي انيطت به ، انتظارا لرد هجوم سيشن من قبل اليهود .

الموضوع بسيط اذن ، فما الذي يجعل القصة على غاية التعقيد ؟ اعتقد ان ذلك ناتج عن اضطراب التكنيك القصصي . فان الكاتب ينتقل فجأة من لحظة الى لحظة دون ان يمهد لهذا الانتقال او يجد له مبررا . فهو في اول القصة يصف مكان الحراسة ويذكر الحوار الذي يجري بينه وبين الرئيس ثم يأتي على ذكر ان اليهود هم الذين اعتدوا عليهم ، وهنا يعمد الى استطراد لا يزيد في شيء على جو القصة بل يأتي فيبتر الجو بترا . وليس في القصة مشهد يثير ، حتى في اكثر المواقف التي كان باستطاعته ان يحرك عاطفة القاريء : عندما غادر البطل مثلا منزله الى ساحة الحرب . فليس في قول الام لابنها « ان لم تدافع عن ارض اخوانك انت واخوانك ، من يقاتل ؟ انا ؟ ابوك ؟ .. أخوتك الصغار ؟ » ، ليس في هذه العبارات ما يجعل القاريء يهتز او ينفعل . وليس من الممكن ان تنطق ام بها وهي ترى فلذة كبدها يغادرها ولربما الى ما لا رجعة . ان في هذه الكلمات مثالية تفوق العاطفة البشرية الحقيقية التي تميز الام مهما بلغ بها حب الوطن والتضحية من اجله . انها تتشبث بابنها في لحظة الفراق على الاقل وبحركة لا شعورية تحول بينه وبين الفراق . كان هذا الخطأ البسيكولوجي وحده كافيا للحكم بان الكاتب لم يعش قصته وانه قد تخيل هذا الموقف فلم يسعفه الفن بان يؤديه على حقيقته بالرغم من عبارته تلك الجافة التي لا تهز « كنت احمل اغراضي القليلة عندما ضمتني اليها تقبلني وهي تبكي » .

٣ ـ الحياة التي وهبتها لك ـ لبيراندللو

مسرحية لفنان من اشهر كتاب المسرح العالميين نقلها الى العربية الاستاذ رفيق راتب الصبان . لا اريد هنا ان انقد هذه المسرحية ، ولكنني اريد ان ادل على صحة الترجمة فقط ، لان هذه الصحة هي الضمان الوحيد الذي يجعل قراء بيراندللو بالعربية يقفون على موهبته المسرحية

يبدو لي ، منذ اول مقطع استهله بان المترجم لا يملك موهبة الترجمة . فهو مثلا يحذف بعض الفاظ او عبارات لعلها استعصت عليه او لعله حكم بانها لا تفيد القاريء العربي شيئا . ثم هو يشوه النص الفرنسي اذ يضيف اليه احيانا عبارات من عنده ، او هو يتصرف به تصرفا يسيء الى الاصل ويطيح بالدقة والامانة التي هي في مباديء الترجمة من البديهيات .

ولكي أثبت ما أذهب اليه اود ان اقدم للقراء النص الفرنسي وما يقابله من النص العربي ، محاولة ان اورد ترجمة اعتقد انها اقرب ما تكون الى النص الاصلي ليقف القاريء على الاخطاء الواردة في ترجمة الاستاذ صبان والتي لا ادري كيف سمح رئيس التحرير فنشرها من دون ان يعمد الى مقابلة قصيرة بين النصين ، اذن لرحم بيراندللو من قلم يعمل به تجريحا ، ولاعفى القراء من قراءة مسرحية ليست امينة للاصل الحقيقي(✱)

هذا هو النص الفرنسي الذي جاء في مقدمة المسرحية :

(✱) تعليق « الاداب » : لا نظن من ان مهمات رئيس التحرير ان يقوم بمقارنة المواد المترجمة بنصوصها الاصلية ، فان ذلك يقتضيه من الوقت والجهد ما لا يترك له مجالا للمواد الاخرى . وعلى كل حال ، ما كانت تكون مهمة الناقدة الكريمة هنا لو وفر عليها رئيس التحرير هذا العمل ؟

Une pièce presque nue, froide, en pierre grise, dans la villa isolée de Donna Anna Luna. Un banc, une armoire, un bureau de travail, quelques autres meubles anciens d'où se dégage le sentiment d'une paix exilée du monde. La lumière qui entre par une haute fenêtre semble, elle-même, la lueur d'une très lointaine existence. Une porte au fond une autre à droite, plus près du fond que de la rampe.

Au lever du rideau, devant la porte de droite qui donne dans la chambre où l'on suppose que le fils de Donna Anna Luna est à l'agonie on voit quelques femmes du village, les unes à genoux, les autres debout, mais courbées dans une attitude de prières, les mains jointes devant la branche. Les premières, qui touchent presque la terre du front, récitent à mix-voix la litanie pour les agonisants, les autres guettent anxieusement la minute de la mort, et à un moment donné, elles feront signes aux femmes à genoux d'interrompe leur litanie, et après un bref silence angoissé, elles s'agenouilleront à leur tour et tantôt l'une, tantôt l'autre fera invocations suprêmes pour le défunt. (édition Gallimard)

وهذه هي الترجمة العربية كما وردت عند الاستاذ الصبان :

« غرفة باردة شبه عارية في دار آنا لونا المنعزلة ، مقعد وخزانة ومكتب صغير يحيطه شيء من الاثاث القديم يثير في نفس الناظر اليه شعورا عميقا بالسلام بل ان النور الوحيد الذي ينفذ من نافذة عالية من الغرفة يوحي بانه شعاع من عالم بعيد . بابان .

عندما ترفع الستارة نجد بعضا من النسوة قد تجمعن امام الباب الذي يبدو ان ابن الدونا آنا يحتضر وراءه . بعض من النسوة قد لزمن الوقوف ... بينما ركع القسم الاخر منهن على الارض يصلي . الكل ينشدن بصوت خافت نشيد الموت . تتخلل النشيد من حين الى آخر تغييرات في وضع النسوة .. فمن كانت تركع تعمدالىالوقوف.. بينما تركع من كانتواقفة.»

وفيما يلي الترجمة التي اعتقد انها اقرب ما تكون من النص الاصلي :

« غرفة شبه عارية ، باردة ، مصنوعة من الحجر الرمادي في مقصورة دونا آنا لونا المنعزلة ، مقعد ، وخزانة ومكتب عمل وبعض من الاثاث القديم ينبعث منه شعور بسلام منفي عن العالم . النور الذي ينفذ من نافذة عالية يبدو ، هو نفسه ، شعاعا من عالم متناه في البعد . باب في الداخل وآخر الى اليمين اقرب الى الداخل منه الى الدرج .

عندما يرفع الستار ، يرى بالقرب من الباب الايمن الذي يفضي الى الغرفة التي يفرض ان ابن الدونا آنا يحتضر فيها ، نساء قرويات ، بعضهن راكعات ، والبعض الاخر واقفات ولكنهن منحنيات في وضع صلاة وقد جمعن ايديهن قرب الفم . اما الراكعات ، اللواتي يكاد جبينهن ان يلامس الارض،فيتلون بصوت خافت نشيد المحتضرين.واما الواقفات فانهن يترقبن بقلق لحظة الموت ، وفي لحظة معينة سيشرن الى الراكعات ليقطعن نشيدهن وبعد برهة وجيزة من الصمت القلق سيركعن بدورهن ، وسيصعدن تارة هنوتارة الاخريات، الابتهالات العظمى من اجل الفقيد .»

عايدة مطرجي ادريس

ليسانس في الفلسفة

لبنان

اضطهاد الفكر في لبنان

لا شك في ان لبنان يجتاز الان عهدا جديدا تحاول فيه السلطات الحاكمة خنق حرية الفكر التي كان لبنان مضرب المثل في المحافظة عليها . ولا شك في ان هذه المحاولة لخنق حرية الفكر مرتبطة بالسياسة الجديدة التي تتبعها حكومة لبنان بالسير في ركاب الاستعمار والعمل على تحقيق مشاريعه في بلادنا .

وقد تنادى الادباء في لبنان الى المجاهرة باستنكارهم لهذه المحاولة ، فاصدروا عريضة وقعها عدد من المفكرين والادباء نثبتها فيما يلي :

اضطهاد الفكر المتمرد والاقلام الواعية الجريئة مؤامرة على الحريات العامة واستهتار بالقيم الانسانية في لبنان . وان في الاجراءات التعسفية لخنق اصوات الحق ، ولكبح الاندفاعات المخلصة الصاعدة من مختلف فئات الشعب اللبناني ظاهرة خطيرة من اللعب بمصائر لبنان ، للانحراف به عن طابعه الاصيل ، كبلد ديمقراطي وكمجال طبيعي لصرخات الحرية والنضال الوطني .

ولا يسع الادباء اللبنانيين ان يقفوا مكتوفي الايدي امام محنة الحرية والفكر والديمقراطية التي يجتازها لبنان ، اليوم على وجه لم يعرفه في احلك عهود الانتداب .

وهم يرون في الحملة الارهابية التي تشنها السلطات الحاكمة لتحطيم شوكة الاقلام المضيئة التي كانت دوما حربا مشرعة للذود عن استقلال هذا البلد وكرامته ، حركة لا تخدم مصلحة لبنان ، وتبعث المخاوف والشكوك حول المستقبل الذي يهيأ لابنائه .

واننا كادباء يعون الدور الحاسم الذي قدر للفكر الحر ان يلعبه في بناء الوطن اللبناني السليم ، نسجل على الحاكمين عدوانهم الخطير على الحريات اللبنانية وعبهثم بحرمة القوانين التي كفلت هذه الحريات .

ونستنكر محاولاتهم لتجريد الفكر المنعتق من قدرته على توجيه السلطات والمجتمع على السواء .

واننا نعتبر اضطهاد رواد الرأي الحر جزءا من خطة التعتيم الفكري ومحاولة لشل الوعي الشعبي النامي في بلادنا وللقضاء على المرتكزات الوطنية والقيم الاستقلالية التي تقف سدا منيعا دون اطماع الاستعمار .

بشارة الخوري (الاخطل الصغير) ، الشيخ عبد الله العلايلي ، يوسف غصوب ، رئيف خوري ، عبد الله لحود ، الدكتور جورج حنا ، حسن الامين ، جورج جرداق ، حسين مروه ، الدكتور علي سعد ، موريس صقر ، سهيل ادريس ، احمد سويد ، توفيق ابراهيم ، فؤاد كنعان ، بهيج عثمان ، منير بعلبكي ، احمد عويدات ، رضوان الشهال ، محمد عيتاني ، محمد دكروب ، هنري صعب الخوري ، صلاح كامل .

سوريا

نحو تركيب قومي وانساني اشمل

لمراسل « الآداب » الخاص

يمتاز التطور التاريخي ، في حياة القوميات المستجدة ، انه احفل بالفن الواقعي والتحولات المورفولوجية العميقة ، من اية نظرية سابقة تهدف الى تأطير متقدم لكل نمو مستقبل في المحتوى الحضاري . وفي الواقع ان كل فلسفة تريد تعقيل مجرى الحوادث التاريخية قد تنجح ، على عمقها وصدقها ، في تحليل منطق الماضي . ولكنها لا تنجح قط في رسم مخطط المستقبل . ان الماضي ، بحوادثه الفاصلة ، وتحولاته الكبرى ، ومادته الانسانية ، انما يصبح قابلا للعرض المكشوف . فهو كله موجود . ووجوده ساكن بارز . ولكن لنلاحظ ان الموجود من الماضي هو آثاره وليس روحه الخالقة . والحدس الملتزم الصحيح هو الذي يتمكن من ان يستشف هذه الروح من خلال انتاجها عبر الحقوب والظروف . ولكن العقل الطموح يأبى ان يقف عند حدود استشفاف الماضي وتعليل حوادثه ضمن منطق واضح ، كان هذا المنطق هو المحرك لهذه الحوادث . ويشرئب الى ضم المستقبل كذلك ضمن حركة تنبؤ ، تستمد معقوليتها من مجرد استمرار المنطق الماضي في الحاضر ، والى المستقبل . وتعتبر بعض الحوادث الماضية كنماذج يصح ان تتكرر في المستقبل . وبالطبع فليس الحادث كله هو الذي يتكرر . ان المحتوى لا يعاد مطلقا . ولكن الشكل ، اي هذا التتابع هو القابل للتفسير العقلي ، كأنه هو بذاته صادر عن عقل يعي ما يفعل . وذاك هو الخطأ الاكبر !

لجأت الى هذه القدمة المجردة لاصل الى موضوعنا مباشرة . فاقول ان الاحداث العالمية الكبرى المعاصرة ، وخاصة ما يتعلق منها بالتفتح الانساني للقوميات الشرقية المستعبدة ، قد اثبتت الى حد بعيد ، وبشكل لا جدال فيه ، ان الحادث يسبق منطقه ، وان الواقع يتجاوز معقله . وان الحقيقة كلها ترجع الى مدى اصالة الحادث ، اي الى مدى حريته . واقصد بهذه الحرية شدة ارتباط الحادث بخالقه ، اي شدة اتحاده بوعيه وامكانياته الحقيقية . وقد يعترض بالقول ان معرفتنا لامكانيات امة من الامم قد يجعلنا نلمح تحققات هذه الامكانيات في المستقبل. ولكن الاصح هو ان معرفتنا لامكانيات الامة لا تمنحنا نبوءة ومنطقا معقلا لكل آنات المستقبل وطفراته المفاجئة ، انما تغرس في نفوسنا بذرة ثقة بمستقبل الامة . وذلك لانه من الخطأ الادعاء ان باستطاعتنا حقا ان نعرف الامكانيات قبل ان يبدأ تحققها العياني وقبل ان تاخذ طريقها الى حياة الشعب الواقعية . وقد تكون هذه (الثقة) احيانا نوعا من الادراك ، انها رؤية تستطلع بخيالها الصادق الساحة الممتدة الى مشارف المستقبل ، ساحة الاعمال التحررية التي ستجتازها الامة . فهي اذن رؤية لا تدعي انها تعرف المستقبل ، ولكنها يحق لها ان تزعم انها تؤمن بهذا المستقبل . تؤمن بناء على بذرة الحاضر . ولكن الايمان بمستقبل الامة ، من حيث قدرتها على التفتح الانساني ، هو ايمان كذلك بالعصر ، بمعنى العصر . وفي الوقت الذي يظلم فيه واقع امة ، يمكن للقومي المؤمن ان يلجأ

النشاط الثقافي في الوطن العربي

الى العصر . فايمانه بان العصر ، هو عصر التفتح الانساني للقوميات الايجابية ، هو عصر التحرر للمبادهة القومية في انشائها شخصياتها ، وفي المساهمة بانشاء شخصية الانسانية حسب معطيات واقعية عن العدالة والمسؤولية العالمية المشتركة ، هذا الايمان يجعله يقف من واقع امته المظلم موقف المناضل ، لانه يؤمن ان هذا الظلم زائل حتما .

وهكذا فالوعي العالمي يشيد قيمه دائما ابتداء من نظريات ، لا يلبث هو ذاته ان يحطمها ،لانه ما من وعي يمكن ان يبقى اسيرا لرؤية من رؤاه . فكل نظرية ما ان يبدأ منطقها يحققه الواقع بواسطة النضال حتى يبتعد هذا التحقيق ذاته عن ارومته . انه ما ان يشم الهواء حتى يتغير ، وتغيره هو مبعث حقيقته ، وهو الذي يقسر الوعي الذي ابدعه على ان يعي مرة اخرى وثالثة ..

فاذا اعدنا النظر اليوم مرة ثانية لنكشف معنى التركيب القومي الذي يتشكل ضمنه واقع الامة العربية الانبعاثي، وجدنا عناصر تقويمية جديدة ، لم تدخل هذا التركيب القومي لتغنيه فحسب ، ولكن لتغير من ملامحه ، بل ومن معناه .

يلاحظ العربي الملتزم لقضية امته ، في اي بقعة من الوطن العربي ، صرامة الموقف الانقلابي الذي تتخذه سوريا في هذه الايام الفاصلة . وهو موقف بقدر ما يزيد من حدة الصراع العالمي على ارضنا ويفتح المستعمر على الخطر المستفحل الذي يهدد مصالحه الشاملة ، بقدر ما يضاعف من تفاؤل العرب ، اينما كانوا ، ويفجر الطاقات الخبيئة ، المدفونة منذ مئات السنين في اقبية الوجود العربي المستنقع .

ان صرامة هذا الموقف الانقلابي انما يعكس الوجهة الخارجية للسياسة السورية . هذه السياسة التي قامت على مباديء واضحة تتجاوب مع واقع الثورة .. ليس الثورة العربية فحسب ، ولكن الثورة الانسانية ضد كل اشكال التزمت السياسي الذي يهدد امكانية التقدم وجدوى الابداع والتفاهم الاممي في سبيل حرية حقيقية .

وخلف هذا التصرف العقائدي الحاسم للسياسة الخارجية انما يختفي تفاعل تركيبي قومي داخلي كبير وعميق .

فلقد كانت الطليعة العربية في سوريا تؤمن دوما بدورها النموذجي في احياء الوجدان القومي ، المنفتح باستمرار نحو اوسع شمول للحقيقة العربية . كان التركيب القومي يقومه ، بصورة متفاعلة بناءة ، نمو حس الشمول الذي يجسده دائما مظهر وحدة النضال العربي. ولكن هذا التركيب القومي تأخر طويلا عن ان يتبلور ضمن سياسة خارجية واضحة. وكان التعارض العنيف الذي عانته الطليعة العربية بين وعيها لضرورة الشمول ومعاناتها لالتزاماته ، وبين عدم قدرتها على الانتقال من المعاناة السجينة الى التاثير والتحقيق الايجابي. تعارضا ابتدأ منذتحرر سوريا من الحكم الاجنبي، واستمر تمزقه حتى عهدالحكومةالاشتراكية العربية الحاضرة. فلقدتتابعت عهود وسياسات حكومات مختلفة، منذ الجلاء، على سوريا، دون ان تستطيع ادراك الدور التاريخي الكبير الذي عليها ان تنفذه تحت داعي الشمول المخلص لجزئيات القضية العربية وطنيا وقوميا . كانت حكومات اقليمية . واقليمية ترادف معنى العقبة ، معنى التجزؤ المقوقع المجرم لانتشار الفعالية القومية . ومن هنا كان الانفصال المستمر بين شعب عربي يطفح عن قمقمه، وحكومات تمثل غطاء هذا القمقم ، سداده الاصم .

ولقد ادركت الثورة المصرية انه ليس من مبدأ تاريخي يمكنها ان تستند اليه ، وتستمد حقيقتها منه ، الا كونها جزءا طلائعيا معبرا عن مبدأ الانبعاث العربي ، هذا المبدأ الذي يلقى له تبريرا واضحا كذلك في وجدان الانسانية ، وهو ان الانسانية ذاتها تجتاز عصرا تتحرر فيه ايجابيا قوميات طافحة خلاقة كالقومية الصينية ، ضمن الشكل الاشتراكي ، والقومية الهندية ، ضمن اشتراكية تطورية ، والقومية العربية ، هذه التي عليها ان تكون تركيبا عاليا حاسما بين طبيعة القومية الشرقية القائمة على التزام الرسالة، وبين الشكل الاشتراكي الاكثر نجوعا وفعالية اقتصادية، وتنظيما واقعيا لقيم روحية مفرطة ،ولامكانيات عملية تتفاهم والعالم بلغته المعاصرة : الصناعة . في هذا الوقت كان يتحقق في مصر مظهران متعارضان ، من الخارج ، فعلى مستوى الحكومة الثورية برز مبدأ القومية العربية ، اي هذا الشمول الطبيعي ، التي على كل ثورة جزئية ان ترتكز اليه . وفي مستوى النهضة الداخلية ، برز مبدأ مصري كمحرض للفعاليات الشعبية . اي ان الحكومة ، على عكس اكثر الحكومات العربية المفروضة، سبقت الشعب المصري لوعي مبدأ نهضته الحقيقي في الشمول القومي . بينما كان الحال في سوريا ، قبل حكومتها الاشتراكية الحالية ، مقلوبا . فالوعي الشعبي يؤمن بان حل قضيته لا يكون الا على اساس معطيات عربية شاملة . واللاوعي الحكومي ، المقصود غالبا ، يصرف ايمان الشعب الى لا شيء في مقاومة بدائية ضارية . وجاء الحكم الحالي ، فكان عليه اولا ان يثبت الاتجاه العربي الواضح ، فيرتكز الى هذا الوعي في شمول القومية العربية ، الذي بلوره نضال مستمر عند شعب سوريا العربي . ومرت

النشاط الثقافي في الوطن العربي

مرحلة طويلة انشغل الحكام فيها بالتحقيق الرسمي في السياسة الخارجية للقومية العربية ، وفي التنظيف الداخلي السلبي ، مع تعبئة تجميعية للفعالية الشعبية .

ومن هنا كان مبدأ الاتحاد مع مصر نتيجة منطقية لتطور الوضعين القومي والتاريخي في كل من القطر السوري والمصري معا . كانت سوريا تشعر ان التحقيق الطبيعي لمبدأ الشمول القومي لا يكون بمجرد الدعم في السياسة الخارجية الرسمية ، للتطورات القومية الكبرى التي نمت فيها فعالية القومية العربية على يد الاحداث الانقلابية الفاصلة التي حققتها مصر والثورة. ان هذا الدعم المتبادل سيبقى عملا خارجيا باردا ، كدولة تسند دولة اخرى على الصعيد العالمي . بينما كان منطق المرحلة الحالية من التاريخ القومي الانقلابي الا يكون هناك تخارج عربي . فالتجويف الذي تشعر فيه سوريا من جراء عدم التعادل بين تطور سياسي خارجي مطرد وحاسم ، وبين بلبلة وشبه جمود داخلي في حقل تنظيم الشعب واجهزة الدولة تنظيما جديدا خلاقا ، لا مراوحة فوق رواسب الاستنقاع الماضي ، يجعل من المستحيل امداد الموقف الخارجي دائما بما يستحقه من تضحيات اقتصادية ، وقلق وانتظار نفسي ، وكف عن عمل انقلابي مباشر تتأزم له روحية الشعب دونما محصلة واقعية . ويحتم هذا اللا تعادل انفراغا داخليا خلف سياسة فاصلة تتطلب اكبر نمو ايجابي للشعب ، في جميع الحقول المطلوبة في نهضة اصيلة . ان عبء الدور التاريخي الفاتح بالنسبة للقومية العربية الذي تلعبه سوريا في صميم الجماهير العربية ، اكبر من ان تبقى تغذيته موقوفة على هذا الجزء الصغير من الامة العربية . ولهذا كانت النتيجة ان يبطل التخارج في الفعالية بين سياسة سورية واخرى مصرية . وآن ان يحل محله تداخل قومي على اساس تركيب قومي اشمل . فالدعم والتفاعل بالنسبة للامة العربية سيبقى صوريا ومصطنعا ان جاء عن طريق التشكلات التجزيئية لهذه الدويلات . ولقد ادركت كل من سوريا ومصر ، ووراءهما الرأي العام العربي ، انه لا يمكن محاربة الاستعمار من خارج ، ومتابعة النهضة الانقلابية في الداخل ان بقي النضال يعتمد لنجاحه ، على ما صنعه الاستعمار كأداة تعمل على افشاله وتحطيمه ، وهو مبدأ التجزئة السياسية تحت شكل دويلات لا طاقة لها لقيادة سياسية تفجرية فاصلة ، كالسياسة التي تخوضها القومية العربية اليوم .

فالاتحاد اذن بين سوريا ومصر ليس هو مجرد نقل مثل اعلى من الخيال الى الواقع . ولكنه اليوم ثمرة اولية لكل هذه الفعالية العالمية التي ثبتت من خلالها ثورية كل من مصر وسوريا باسم الامة العربية ، وباسم القومية العربية . وعدم الاتحاد هو اجهاض للنضال العربي المتحقق حتى اليوم .

والاتحاد كذلك ليس تحقيقا لنظرية الوحدة العربية التي لها مبرراتها النظرية في عقل الجيل ، عندما كان يسعى لتحقيق تكافؤ مثالي في وجدانه ضد ظلم الواقع الخارجي. وهو ان كان ، كفكرة ، تنطبق عليه هذه المبررات ، الا ان نضاليته من داخل الامة فقط . بيد انه كذلك نتيجة لتطور عالمي في سياسة التفتح الايجابي للقوميات الشرقية . انها سياسة ، في العالم ، تسير نحو تركيب انساني اشمل ، وتناظر ، داخل كل قومية منفتحة ، سياسة تسير نحو تركيب قومي اشمل .

فلقد اتحد اليوم الشرطان الاساسيان لكل وحدة قومية سورية تنفذها امة العرب : الشرط الداخلي وهو وحدة النضال . والشرط الثاني هو توفر الظرف الانساني على النطاق العالمي . واحسن ما يمثل هذا الظرف مؤتمر باندونغ من جهة والتساند السوفييتي العربي من جهة اخرى ..

ان الاتحاد العربي ، المتمثل في اولى خطواته بالاتحاد السوري المصري ، هو الذي عليه ملء الفراغ السياسي الداخلي ، وتحقيق التداخل العضوي في النهضة الاجتماعية ، الثقافية والاقتصادية . والتساند بين القوميات الشرقية من طرف ، وبين الاتحاد السوفييتي ، هو الذي عليه ان يؤلف عضويا التساند السياسي الخارجي ، وليس مجرد التعاون السوري المصري .

وفي الوقت الذي يصبح الاتحاد العربي فيه قاب قوسين، نشاهد تركيزا منظما للتفاعل الاشتراكي بين روسيا وسوريا . ان الوحدة العربية التي يباشرها الاتحاد بين سوريا ومصر يعبر عن اعادة الوحدة المنبثقة من صميم روحية الامة ، ويبشر بميلاد حضارة جديدة . والتفاعل العربي السوفييتي يعطي المادة لبناء الشكل العصري لهذه الحضارة ، وهو الاشتراكية القومية .

وهذا كذلك تغلب للواقع الحي على النظر المتنبيء . فلقد صورت الماركسية نفسها ، في مرحلة منقرضة ، على انها النقيض الطبيعي لكل قومية . وعلى انها الشكل الاوحد لتنفيذ كل نهضة انسانية . وظنت الثورة السوفييتية ان على مجتمعها ان يرقى الى النظرية ، في الداخل وان على الانسانية ان تحتذي بالاتحاد السوفياتي في الخارج ، بذات الطريقة السوفيتية . ولكن التجربة الاصيلة ، الطويلة الشاقة ، التي خاضها الجمهور السوفيتي المضحي وقادته ، من جهة . والتجربة العالمية التي كان احد قطبيها الاتحاد السوفييتي كدولة جبارة عند انتهاء الحرب الكونية الثانية ، من جهة ثانية ، اظهرت اولا ان التطور الاشتراكي الداخلي لا ينفذه القائد والنظرية فحسب . بل ان كل خطوة تطورية اقتصادية يقابلها انقلاب مورفولوجي انساني في اعماق الشعب المعاني. وبالمقابل كل خطوة انسانية تقدمية داخل الامة يقابلها تعقيد اقتصادي سياسي .. بمعنى ان روحية الامة تأخذ في تقدمها تغيرات في بذرتها وفي اشكالها الاجتماعية ، تعجز النظرية السابقة عن تحديدها . وقد ادرك الواعون ، منذ ذوبان الجليد الستاليني النظري ، ان الذي يجب ان يتكسر ويلين هو النظرية وليس الواقع الحي المتجدد دائما . وبالمقابل ، بالنسبة للمجتمعات القومية الاخرى ، تبين للمسؤولين السوفييت ، ان الوحدة القومية ، بما فيها من استعدادات وامكانيات وظروف خاصة ، هي اداة النضال الانساني ، والتجمع القومي يصح ان يكون منطلقا للثورة بدل الطبقة المدفوعة باسباب اقتصادية بحتة . وان الشكل اشتراكي لا يستورد ولا يحتذى ، ولكن ضرورته الاجتماعية تثار من داخل الحاجة التنظيمية التي يعانيها كل شعب بعد تحقيق ثورته التحررية من سوء النية الداخلية او التسلط الخارجي ، بحسب خصائصه القومية واندفاعاته الحضارية التقليدية وشروطه الاقتصادية الخاصة به . وكانت كل من التجربة الصينية واليوغسلافية، والهندية ، والعربية اليوم احسن حافز لاعادة الوعي الاشتراكي للواقع المتجدد ، في سبيل توحيد انساني ، وليس في سبيل انسجام نظري بارد .

النشاط الثقافي في الوطن العربي

وهكذا تختفي التناقضات الصورية عندما تعظم التجربة الانسانية وتبرز معطيات تطورها روح نزيهة محبة فعلا للسلام ومنفذة له . فالسلام ياخذ معنى مباشرا عندما يفهم منه لا نقيضا للحرب ، ولكن الحركة المنمية الموحدة لجهود الانسانية في سبيل تفاهم داخلي اعظم، وتركيب قومي سليم يناظره على نطاق عالمي تركيب انساني ، لا يغفل الوظيفة الخاصة للعضو الواحد، ولكنه يغذيه ويمنحه احسن مجال لتكامله وتكامل التركيب الانساني معه ، بشكل ينقله من مستوى مجرد مثالي الى مستوى واقعي اكثر وضوحا وفعالية مجدية .

ان هذا الدرس العظيم يكتسبه عصرنا باستمرار كلما تحققت تجربة القوميات الاشتراكية المتعاونة لسلام الانسانية . واذا كان ماركس يوما قد احتقر قومية سلبية مهاجمة مشوهة لدول اوربية ، مرغ الصراع الاقتصادي وراءها كلقيمة قومية وانسانية شريفة ، فان الاشتراكيين المخلصين تبهرهم اليوم هذه الحقيقة الرائعة التي يخلقها الشرق الاصيل مرة اخرى . فمن الصين الى الهند الى العروبة تنطلق رسالة انسانية زاخرة بالسلام ، يغذيها تحرر روحي داخلي ، وتنظيم قومي اشتراكي منفتح .. هو الذي بدأ يغير من طابع الصراع العالمي . فلقد كان صراعا بين دولتين او حقيقتين . واليوم هو صراع واحد بين حقيقة مطلقة وباطل مطلق . وكلما اتحدت قوميات السلام الاشتراكي كلما برزت هذه الحقيقة. ومجرد تعاظم هذه الحقيقة يؤدي الى عدم الباطل المعارض لها . ولذلك ما استفلحت روح الحرب والعداء في الغرب الاستعماري الا لتنبيء عن فوز مستمر للانسانية الجديدة .

فكلما نما الوعي القومي بين قطبين ، ضروريين لكي يكون الوعي سليما سويا ، هما تحرر سلبي ضد عقبات الاستعمار والانحطاط والجمود ، وارادة في العدالة البشرية تتحقق ضمن تنظيم اشتراكي يستمد اصالته من اصالة النزعة الانسانية لكل قومية صحيحة ، كلما خرج ما يسمى بالمعسكر الاشتراكي عن معسكره ، واصبح تجربة نموذجية ملك الانسانية جمعاء ، وقبع بالمقابل المعسكر الغربي .. او هذه المجموعة من الرواسب الوحشية لحضارة مزيفة تجتر انتحارها البطيء اليوم ، قبع الغرب في عزلة رهيبة ضد كل تعاطف انساني حقيقي . وعزلته هذه هي عنوان فنائه المحتوم .

مطاع صفدي



تيارات الادب العراقي الحديث

بقلم الدكتور يوسف عز الدين

بقي العراق(*) تحت الحكم العثماني حوالي اربعة قرون ونال العراق ما نال الامبراطورية العثمانية من تأخر وانحطاط ، ولم تدخل المطبعة التي هي اساس الثقافة البلاد العثمانية الا بعد استصدار فتوى شرعية على شرط ان تطبع الكتب غير الدينية .

وقد سبقت مصر وسوريا ولبنان البلاد العربية الاخرى في نهضتها عندما وطيء الفرنسيون تلك الديار محاربين او مبشرين ، فرأت ما لم تره

(*) كتبت هذه الكلمة بمناسبة صدور ديوان اليعقوبي

في العهد العثماني من علم وثروة وقوة .

اما العراق فقد بقي متاخرا عن الركب العربي يغط في سبات عميق ، فاخذت الثقافة والادب واللغة في التقلص يوما بعد يوم حتى انحصرت في بقاع محدودة معدودة في المساجد والمدارس الدينية .

ففي النجف الاشرف والموصل وبغداد كانت اقباس من نور ضئيل يانس اليها الواردون من اصقاع العالم لاغراض دينية وطلبا لكسب الرزق، ولم يكن في هذه المدارس غير تيارين اثنين هما : التيار البغدادي الذي اتصل بالحياة التركية سواء في بغداد او في الاستانة فسار في طريق فرضته عليه مثل واهداف واتجاهات تتلاءم ورغبات حياة الولاة والحاكمين.

والتيار النجفي الذي انعزل عن الحكام وانضوى تحت راية اخرى حريصا على كرامته خائفا وجلا لم يثق بالحاكمين واغراضهم ومقاصدهم .

وبين هذين التيارين كانت تتارجح حياة الادب العربي في العراق حتى اوائل القرن العشرين ، سواءفيالموصلاو فيالكاظمية وكربلاء او البصرة. وقد برز شعراء في هذا العصر تختلف جودة شعرهم باختلاف ثقافة الشاعر وقدرته العقلية على فهم الحياة ومدى تاثر المجتمع فيه كالاخرس والحليين والحبوبي والعمري وغيرهم كثير (1) .

وفي اوائل القرن العشرين ظهر تيار جديد ثالث امتاز بتاثره بالثقافة التي وردت من مصر وسوريا ولبنان . فقد كانت الجرائد العربية تصل العراق فيقراها المتعلمون والمثقفونبل انهم كانوا يتفاخرون بانهم من قراء الهلال والمقتطف والمقتبس والمؤيد واخيرا الرسالة والثقافة فيتاثرون بما فيها من مواد سواء أكانت اصلية ام مترجمة . فكانت هذه الجرائد والمجلات نافذة كبيرة تطل على الثقافة الاوربية وتعد من المصادر الممتازة للثقافة العامة . حتى ان معروف الرصافي قال يوما عن جميل صدقي الزهاوي ، انا والزهاوي تخرجنا من مدرسة واحدة هي مدرسة المساجد ونقرأ المجلات المصرية فكيف زادت ثقافته على ثقافتي ؟! »مما يدل على اثر هذه الجرائد والمجلات وخاصة المقتطف على الذهنية العراقية ولم يكن للزهاوي مصدر يعول عليه في ثقافته العلمية غير المقتطف .

وقد كان للاحداث المصرية – ولا يزال – اثر بين في توجيه الراي العام العراقي فعندما نشبت معركة السفور والحجاب ظهر صداها في العراق انشق العراقيون على انفسهم فكان قسم يحارب السفور وقسم ينافح ويذود عن حياضه .

هذه تيارات ثلاثة كانت تعمل عملها في اوائل القرن العشرين وبقيت حتى الحرب العالمية الثانية اي حتى ١٩٣٩ حيث ظهرت تيارات جديدة لسنا بصددها اليوم .

وقد ظهرت اثار هذه التيارات واضحة المعالم حيث انقسم العراقيون على انفسهم بالنسبة لمقدار اثر التيار الجديد اذ بدت مسحة جديدة على اسفارهم فظهرت الذاتية والتجارب الفردية واضحة ، واصبح للمجتمع جزء من اسفارهم وحاولوا الابتعاد عن طريق القرن التاسع عشر . فنحن نجد فرقا بينا بين شعر محمد جواد الشبيبي وبين ولديه محمد رضا ومحمد باقر ونجد فرقا بين شعر محمد سعيد الحبوبي وبين ابن اخيه محمود الحبوبي ونتلمس اختلافا واضحا بين اسلوب شعراء هذا العصر

1) الاخرس عبد الغفار والحليين نسبة الى الحلة وهما حيدر الحلي وجعفر الحلي، شرحت ذلك في كتابي (اهداف الشعر العراقي في القرن التاسع عشر) وهو تحت الطبع .

كالرصافي والزهاوي وبين القرن التاسع عشر كشعر عبد الغفار الاخرس وعبد الباقي العمري وجعفر الحلي وحيدر الحلي .

ما مكانة اليعقوبي بين هؤلاء الشعراء ؟ وما مقدار تأثر اليعقوبي بالثقافة الجديدة ؟! وما اثر التيار النجفي في شعره ؟

وقبل ان نجيب على هذه الاسئلة ينبغي ان نتعرف على طابع النجف وتياره . يمتاز طابع النجف الشعري بالرصانة والقوة في الاسلوب فهو يلتصق بعمود الشعر جهده . ويعتني بالالفاظ عناية كبيرة تصل الى حد الابتذال والسخف فتؤثر في قوة الاسلوب والرصانة الشعرية . ومدرسة النجف مصدر رئيسي لتيار غزير من الرثاء والحماسة والغمز . ولكن هذا التيار ما حاول يوما ان يتجدد او تبدو عليه علائم التحرر والتجديد فقد كررت المعاني فيه واجترت الالفاظ في القصائد . فقد اعتنى الشاعر في النجف في التخميس والتشطير والمجاراة اكثر من عنايته بتطعيم شعره بشيء جديد . حتى اننا لا نكاد نجد فرقا كبيرا بين شاعر وشاعر عاشا في فترة واحدة من حيث استعمال الالفاظ والنهج الشعري الذي يسير في ركابه الشاعر . ويبقى الطابع النجفي مسيطرا سيطرة كبيرة ما دام الشاعر يسكن في النجف ، فالشاعر النجفي يعجب بجيد الحلي واسلوبه اكثر من اعجابه بالجواهري ويهز شعر جعفر اعطافه وعواطفه اكثر من شعر الرصافي والشبيبي (محمد رضا) بل لا يزال كثير من شعراء النجف يعتبرون المكانة الاولى لشعراء تأخروا بمراحل عن ركب الشعر العربي الحديث . ولا تزال اغراض الشعر محدودة متأثرة بالرثاء والفخر والحماسة .

والشاعر النجفي يبرز ويقوي وينبغ متى ترك النجف واتصل بعوالم جديدة وتحرر من بيئة النجف وقد يسف كما سف احمد الصافي النجفي او يعلو ويشمخ مثل محمد مهدي الجواهري . فنجد فرقا واضحا بين الفرطوسي وبين اليعقوبي .فاليعقوبي اكثر تأثرا بالادب وبالبيئة في بغداد منه في النجف فكانت ديباجته انصع من ديباجة الفرطوسي وشعر عبد الرزاق محي الدين اجمل واشد اشراقا من شعره عندما كان في النجف واثر بغداد او الحضارة واضح على شعر محمود الحبوبي .

اليعقوبي لم يترك النجف ولم يسكن بغداد ولكنه دائم الترحال والتجوال فهو بين عاملين يؤثران في شعره ، عامل النجف وعامل بغداد . فهو يريد ان يتخلص من اسلوبه القديم ويريد ان يجدد فهو مخلص في هذه الرغبة بصورة لا ارادية في ان يجدد وان يبدع ولكن الواجبات والتبعات التي القيت على عاهله تلزمه بالقديم لذلك نراه يتدفق مرات ويجمد مرة ولكنه اكثر تجديدا من كثير من شعراء النجف .

النشاط الثقافي في الوطن العربي

ان ابرز مشكلة في العراق هي المشكلة السياسية فقد اكتوى العراقيون باعمال الساسة وذاقوا العذاب والعلقم من السياسة في اكثر ادوار الحكم فاتجه العراقيون نحو السياسة بكل جوارحهم وملء قلوبهم فلا حديث للعراقيين غير السياسة واحداثها لان السياسة في العراق اثرت في حياة العراقي ورزقه واثرت في حريته واسرته . لذلك فاجمل نغمة لدى للعراقيين غير السياسة واحداثها لان السياسة في العراق اثرت في خارجية فهو يتألم لمصر لانها عربية ويتألم لايران لانها مسلمة ويتألم لليابان لانها شرقية ويتألم للمجر لانها تطالب بالحرية . ان العراق مربأ دوار كبتت فيه الحريات ومنع على العراقي ان يتلفظ بكلمات والفاظ حددت من الجهات المسؤولة . لذلك فان اية ثورة تحدث في العالم يؤازرها لانه يشعر بها وانها تنفيس عن ثورة عارمة في اعماق قلبه . فالباحث يجد الشعر السياسي له النصيب الاوفى الاوفر في شعر الشعراء.

واليعقوبي نظم كثيرا في السياسة وقد اجاد في هذا الباب فله مجموعة طيبة في فلسطين (١) فهو يذكرها مرة بمرارة والم ويتمنى لها الحرية والاستقلال ويحي المؤتمرات التي تنعقد لاجلها ويصف جهادها وبلاءها واستغاثتها ويلوم العرب قائلا :

نشكو ولم تصغ للشكوى مسامعنا ... ذنب لعمرك منا غير مغتفر

ويحي ارواح شهداء غزة وطبرية ويؤنب العرب الذين لم يبالوا بما يحيق بفلسطين وما يحدث فيها من مآسي تهز القلوب اسى ومرارة ولا يرى فائدة ترجى من مجلس الامن انما القوة وحدها ، السلاح يرد القطر السليب لاحضان امه البلاد العربية .

ما لفلسطين ان دعتكم ... لم تلف عونا ولا مساعد
حقوقكم تستباح فيها ... بين اولي الغدر والمكائد
تسفك فيها الدماء طورا ... وتارة تهتك المعابد
ما في الدعاوى التي اقيمت ... في مجلس الامن من فوائد
لا خير في الحر لم يناضل ... دون مباديه والعقائد

ومن جميل شعره فيها

يا شقيقي في الهوى عرج معي ... لنرى حال فلسطين الشقيقه
واعني في المواساة اسى ... فرفيق المرء من واسى رفيقه
كم دم زاك اراقوه بها ... احرام دمع عيني ان اريقه ؟!

ويفرد جزء الجهاد المغرب العربي (٢) يندد فيه بسياسة فرنسا الاستعمارية بعد ان يشهد مجازر الغرب فيه فيقول :

أرأيت هاتيك المجازر؟ ... ما بين تونس والجزائر
اي النواظر لا تفيض ... دما ؟ على تلك المناظر ؟
وعلى مراكش ان مررت ... فثم تنشق المرائر
ما بين تلك وهذه ... دارت على العرب الدوائر
ميا حال شعب وادع ... اضحى يحكم فيه جائر
وامض ما اقترف اللئام ... من الجرائم والجرائر
هدروا دم الاحرار فيها ... واستبيح حمى الحرائر

١) الديوان ص ١ — ٢٤
٢) الديوان ص ٢٦ — ٤٠

وقد امتاز اليعقوبي بالجرأة اذا ما قورن بالمعاصرين من شعراء العراق فقد نظم في احداث سياسة ابتعد عنها شعراء الجيل الماضي بل ان من هؤلاء من تنكر لما نظم ولم ينشره مرة اخرى فاذا استثنينا الرصافي فلا نجد من تجرأ على ذكر حوادث ١٩٤١ مرة اخرى بعد ان ذاقوا مر الاعتقال والتشريد . ونظم في الثورة العراقية التي وقف فيها رهط من الشعراء يناضلون فيها وارتفعت سمعتهم بسببها ولكنهم اليوم يرتجفون فرقا اذا ما طالبتهم بشعرهم . وقد نشر الشاعر قصيدة في انتصار الجيوش العثمانية في الدردنيل (١) خلال الحرب العظمى الاولى وفي حصار الكوت(٢)

لم يذكرها شاعر غيره ثم نشر في الديوان قصيدة يهاجم فيها العدوان الثلاثي بينما جل من نظم تجنب ذكر انكلترا . فهو يعير انكلترا ويهاجمها بعنف وسخرية فيقول :

وتعلن في حبها للسلام ... وتكتم غير الذي تعلن
وتضمن حرية المعتدين ... وحرية العرب لا تضمن
لقد عاهدت نفسها ان تسيء ... لكل حليم لها يحسن
الم يكن الغدر من شأنها ... ونقض العهود لها ديدن
سياستها كالرماد الذي ... سنا النار من تحته مكمن
فما تركت من صديق لها ... ولم تبق شعبا لها يركن

وهي نفس الاسباب التي اتخذها حزب العمال ذريعة للهجوم على مستر ايدن . فقد كنت اثناء الازمة في لندن ووقف كل من مستر بيفان واديث سمرسكل النائبان في مجلس العموم في ساحة الطرف الاغر مددين بسياسة ايدن وقد اشتركت الدايلي ميرور بمقال افتتاحي بهذا الهجوم نددوا بسياسة ايدن فقد وصل ايدن الى الحكم باعتباره داعية من دعاة السلام ولكنه هدم سمعة بريطانيا دوليا عندما استعمل القوة في حل مشاكل بريطانيا

لم يضعف شعر اليعقوبي السياسي لانه لم يكن موظفا ولم يلتو في معالجة مشاكل السياسة كما التوى الشعراء الموظفون وكما ضعف شعر حافظ ابراهيم ايام كان في دار الكتب المصرية . لان اليعقوبي متصل بالشعب اتصالا مباشرا فهو قريب من الشعور العام فهو يندد بالشعراء الموظفين قائلا

لا اشك في ان اليعقوبي بدل بعض الكلمات وحذف بعض الكلمات من بعض قصائده ولكنه مع ذلك فالحذف والتبديل لم يفقده صراحته فهو يحيي جمال عبد الناصر تحية اعجاب واكبار ويشرح لنا مشكلة مصر واسباب المشكلة ويعرج على مشكلة قناة السويس والسد العالي فيقول

اعادت عهود الشرق نهضتك الكبرى
فلابرحت في الدهر خالدة الذكرى
تحييك بالبشرى وتهتف بالثنا
بلاد ترى الدنيا تحييك بالبشرى

والملاحظ ان اليعقوبي لم يتأثر كثيرا بالحياة الاجتماعية وكأنه عاش في محيط غير محيط النجف فما استفزته مشاكل الفلاح والفقر والمرض

١) الديوان ص ١٧٣
٢) الديوان ص ١٩٦ و ١٨٣ بشأن البصرة

النشاط الثقافي في الوطن العربي

والجهل كما استفزت بحر العلوم والصافي والجواهري وعلى الشرقي

وكأنه لم ير مشكلة المرأة التي خاض غمارها الشعراء في عصره كالرصافي والزهاوي ومحمد جواد الشبيبي وعبد الحسن الازري وخيري الهنداوي وعبد الرحمن البناء . ان الاشارات التي اشار اليها في الديوان (١) ما هي الا معالجات سطحية غامضة ذات الفاظ عائمة رجراجة تدل على عدم سبر الشاعر غور المشكلة وانها لم تتجاوب مع عاطفته تجاوبا عميقا بل انه ينظر لبعض المشاكل نظرة قاتمة تثبط همة الفقير فهو يخاطب الفقير مشيرا الى الطالب الغني بقوله :

ضمن الثراء له النجاح اذا انى للامتحان ولا اخالك تنجح

وتبدو اثار القرآن الكريم واثر الشعر القديم في شعره فهو لا يزال يستسقي الغمام لقبر والدته (ص ١٥٢) وان شوقه مثل شوق رياض الحزن للمطر (ص ١٨) وان القوم نهب القواضب والاسل (ص ١٥) وان السيف لا يزال يضرب بحده ويسل (ص ١٤) وقد يخرجه هذا عن القصد الذي يريده فيحدث عن قنال السويس وبور سعيد فيحشر شعيب ومدين فيقول :

ولم ينج ان صب سوط العذاب عليها شعيب ولا مدين

فاين شعيب ومدين من مصر وبور سعيد ؟ وعندما اراد ان يذكر فرعون وعصا موسى قال عن الانكليز وجمال عبد الناصر :

فراعنة كادوا البلاد بسحرهم فكنت عصا موسى ـ التي تلقف السحرا

جعل الانكليز فراعنة وجعل عبد الناصر عصا موسى ولا اظن اليعقوبي يجهل قوة الفراعنة ومكانتهم وما كانوا عليه من عزة ومنعة وان عصا موسى لم تؤثر على مركزهم وسياستهم وانما قضت على سحرهم فاذا جاز ان يشبه الانكليز بالفراعنة عنه فهل يجوز ان يشبه جمال بالعصا وقد رجعت العصا عصا بعد ان لقفت ما كانوا يافكون ، وقد بقي جمال بقوته وعظمته بعد ان ابطل سحرهم ولم يستحل الى عصا لا نفع فيها سوى ان تهش على الغنم . خاصة وان اليعقوبي انطلق مرة اخرى من القصيدة ورفع جمال عبد الناصر الى منزلة الابطال المقاومين الذي طهر البر والجوو جعل جثث الاعداء جسورا واختطف الاعداء بطائرته ودحرهم برأي سديد ، ومع ان الشاعر يمدح شخصا بنى بناء فقال فيه .

حزت يا هاشم اسنى رتبة

لم يحزها ابدا من قد سلف

الا يوجد فرق بين من يبني امة ويبني بناء ؟

ومن لطيف شعره :

يا مصر ان نأت الديار فبيننا حبل العروبة لم يزل موصولا

الدين والاخلاق تجمع بيننا لا نبتغي عوضا به وبديلا

وهناك سبب اقوى من الدين والاخلاق هي اللغة والتاريخ المشترك فاللغة بين الشعوب له مكانها الاعلى ومن الطريف ان اليعقوبي لا يفرق بين الطياره والمنطاد وحسب الطيارة مثل المنطاد وهي تنقض على الاعداء كالطائرات فيقول :

حيث غصت بالجيش تلك الفيافي (والمناطيد) ضاق منها فضاها

ويقول :

فلندن حام عليها (زبلن) يقذفها قنابلا وتيران

وفي حرب الحبشة مع ايطاليا يقول

ضيقوا النجد الفضا (بالمناطيد) اجنادهم ملأن الصعيدا

واستعمل اليعقوبي كلمة مرسح للتمثيل (او كما يسميه استاذنا مصطفى جواد المحكى) عوضا عن المسرح . وهناك بعض اغلاط عروضية وحرفية في كتابة الهمزة ارجو ان تصلح في الطبعة الجديدة

وختاما نظم اليعقوبي في تكريم الناس ، الا يجوز لهذا الشاعر ان يكرم بمناسبة اصدار ديوانه وفاء وتقديرا ؟ وانا اول المشاركين .

بغداد يوسف عز الدين

استاذ الادب الحديث في كلية الآداب

السودان

التحضير لمؤتمر القاهرة

تشهد اليوم بلادنا حركة ادبية دائبة ، متصلة النشاط . فرابطة الادباء بالسودان والندوة الادبية بام درمان ونادي القصة بالخرطوم بحري ورابطة التقدم الادبي بالخرطوم ـ كل هذه الروابط تقوم بمجهود واسع لارساء قواعد الادب في بلادنا .

بماذا نفسر هذه الحركة الادبية ؟ ليس هناك سوى تفسير واحد وهو ان الادباء السودانيين قد شعروا بأن لهم دورا في الحياة لا بد ان يلعبوه وبأن لهم رسالة سامية القيت على كواهلهم لا بد من حملها وتأديتها بوعي واخلاص .. وليست هي سوى تفاعل مع هذه الحركة الادبية التي تنتظم جميع بلدان الشرق العربي فتتبلور مع نضال الشعوب العربية من التسلط والقهر الاجنبي .

وفي الخرطوم عقد اول مؤتمر للادباء السودانيين . وتبدأ قصة هذا المؤتمر بخطاب بعثه الاستاذ محمد صدقي ، من القاهرة ، للاستاذ عبدالله رجب ، صاحب ومحرر جريدة « الصرخة » السودانية .. وكان خطاب الاستاذ محمد صدقي يتناول موضوع التحضير للمؤتمر الثالث للكتاب العرب الذي سوف يعقد في القاهرة في ديسمبر القادم ، وكان الخطاب يتضمن الاستفتاء الاتي :

أولا : ما هي اهم المشاكل الرئيسية في ثقافتنا الوطنية التي ينبغي ان يناقشها المؤتمر الثالث للكتاب العرب في القاهرة .. وما هي اقتراحاتك بشكل انعقاده ؟

ثانيا : ما هي ملاحظاتك عن المؤتمر الماضي من ناحية الموضوعات التي نوقشت فيه .. ثم من ناحية الاسلوب الذي انعقد به ذلك المؤتمر ؟..

ولقد طبع هذا الاستفتاء ووزع على كثير من الادباء والكتاب السودانيين لكي يشتركوا في مناقشته . ولقد بادرت الندوة الادبية بام درمان ،

(١) ص ٤٥ و ٥٢ و ٦٦ و ٧٦ و ٨٨ و ١٠٥



الاستاذ الهنداوي وقصة ((العودة))

من عادتي الا يفوتني شيء من كتابات استاذي خليل هنداوي ، وقد يكون مرد هذا ، الى اصالة الكاتب وعمق الملاحظة عنده وتعدد جوانب شخصيته الادبية ، اكثر منه الى الرباط الروحي الذي يشدنا اليه ، منذ ان تتلمذنا عليه يوم كنا نتلقف دروسه في الادب منذ عشرين سنة او تزيد ، على مقاعد الدراسة !

ولعلها المرة الاولى ان احس حاجة الى رد الحكم الذي اصدر ، وقد تراءى لي ان فيه شيئا من تجانف واعتساف ، هما اقرب الى .. التجني! كان ذلك في العدد الماضي من ((الاداب)) ، في ((قرأت العدد الماضي...)) وهو يعقب على القصص التي فيه ،وعلىالتحديدفيحديثهعن قصة ((العودة)) للاديبة الفت عمر باشا الادلبي .

وانا اولا ، اشهد انني اقرب الى رأي الاستاذ هنداوي مني الى رأي الدكتور سهيل ادريس فيما يتصل بمذهب الالتزام في الادب ! واشهد ثانيا انني قليل الاحتفاء بالقصة في سوريا ، اجمالا ، لسوء رأي مني في هذا اللون من الادب عندنا ، فهي ما زالت تحبو وتتعثر وتلهث على طريق بعيد وعر ، باستثناء قصص صديقنا الموهوب الدكتور عبد السلام العجيلي، فقد وصل الدكتور العجيلي في كثير من اقاصيصه الى القمة !

اما قصة (العودة) للاديبة السيدة الفت عمر باشا الادلبي ، التي اوسعها الاستاذ هنداوي لذعا وتجريحا ، فقد تضمنت ، رغم كل شيء ، التفاتات انسانية عالية ، لا ادري لم اغفلها الاستاذ هنداوي او تغافل عنها ..!

ففي قصة ((العودة)) للاديبة الفت الادلبي جانب انساني وددت لو الح عليه الاستاذ هنداوي، هذا الجانب الفني او الالتفاتة القومية ــ الانسانية التي نريدها ان تشيع في فن القصة العربية او في النتاج الادبي العربي عموما ، هي ان صاحبة القصة في سذاجة فنية محببة وعفوية هادئة صافية ، توخت دونما افتعال ، ان توقظ النبل في اعماق ذلك العربي النازح نتيجة للاعتمال النفسي وهو يتسمع الى حوار الخليلين الخليين ، فاهتدى فجأة الى وجوده والى غاية هذا الوجود وانقلب على واقعه ليكون كما ينبغي له ، عضوا فاعلا في ركاب الحق والخير .

فقصة (العودة) كما نجد، حافظ على الجو القومي وعلى الجو الانساني معا ، بهذا الربط العفوي بين المثل العليا القومية وبين المثلالعلياالانسانية في يسر لا اصطناع فيه ولا ثقل .

هذا المغزى الفني ، هو لوحده ، وثبة بارعة تجعل للقصةقيمتهاالجمالية الخاصة وتدل بوضوح على ان لدى صاحبة قصة ((العودة)) من الامكانات في ادب الاقصوصة ما يهيء لها التحليق والابداع ايضا !

وفي القصة جوانب اخرى فيها من البراعة شيء كثير الى حد لم يستطع معه الاستاذ خليل هنداوي نفسه الا الاقرار بها ، منها لفتة الكاتبة الى اعتراف بطل القصة بالجريمة التي ارتكبها هو ووجهاء مدينته الذين الهاهم الترف عن القيام بواجبهم ، هذه اللفتة التي قال عنها الاستاذ هنداوي ((ان فيها اعترافا لا تكاد تسعه السطور)) !

وفي قصة (العودة) ايضا عنصر ايجابي ، هو الروح التفاؤلي ، بان الحياة ليست مجموعة من الحقائق التافهة لا تستأهل ان نتأملها وان نعيشها ، ولكن الحياة شيء ثمين ، فهي مجموعة من القيم الموجبةوالمعاني التي تزخر بالسمو ، ومن هنا كانت جديرة بان نتعشقها ونحيا كل دقائقها بفرح ونبالة ، ومن الجريمة بحق انفسناوانسانيتناانتهرب منهااو نستريب في الوجود الحقيقي لتلك القيم الفاضلة !

هذه الرموز الحية في قصة (العودة) عناصر اساسية في البناء الفني لادب القصة ، وانها لرموز فنية انسانية حفية بالاشارة والاشادة ، وهي دليل على ان صاحبة القصة ، كأدبية ، لا تعيش على البراعم المغلقة ولا تحيا على جفاف ، ولكنها تتمرس بالتجربة القومية ، تجربة المجتمع العربي ، تمرسا فيه تجاوب واندماج وحركة وخصب ،وهي بواكير تبشر بالخير وتبعث على الرضى

دمشق ــ ناجي مشنوح

✶

مشكلة الحوار

(قرأت العدد الماضي من الآداب) ، وفي هذا الباب بالذات ، العزيز على نفسي ، الطموح في ان ياخذ اكبر كمية ممكنة من وقتي ، في هذا الباب بادرة حسنة تضيفها (الآداب) الى سجل حياتها في الجهاد من اجل خدمة الادب ، اذ عهدت بالتعقيب على كل فن من فنون الادب ، لاديب صال وجال في ميدان الادب العربي الحديث . ولن اكتم (الآداب) ما يجول في خاطري : اذ لو كلفت نفسها ــ على سبيل اتمام العمل ــ فوكلت امر الشعر لشاعر ، والقصص لقاص ، والمقالة لكاتب ، لكان من الاجدى والافضل لها في سبيل تحقيق رسالة عاهدت نفسها على سلوكها ، وهي خدمة الادب لوجه الادب .

فقد قال الاديب الاستاذ خليل الهنداوي في تيار من تبيان المحاسن والعيوب ، تعقيبا على (العودة) للقاصة المعروفة الفت ادلبي : (واما الحوار فلم يكن حقيقيا واقعيا بالروح الواقعية ، بل كان اكثره ثقيلا على النفس حين يطغى عليه الجدل المنطقي . بل كأن بعضه جاء منقولا عن غير لغة . ولا ادري أيكون هذا الحوار اصدق لو جاء بلغة دارجة ؟.) . وفي مكان آخر ، وفي معرض الحديث عن (الحاج حمزة) يقول الاستاذ هنداوي ايضا: (واما الحوار فيها فقد جاء باللغة الدارجة المصرية دون ايغال في العامية ، وان كنت لا احبذ اي حوار بالعامية ...) .

وهذا بالذات ، ما دفعني للكتابة . لا لاستهجن ما استملحه او استملح ما استهجنه الاستاذ الناقد . بل لاسجل وقائع مشكلة هامة ارى لزاما على الادب العربي معالجتها بروية وتؤدة ، هممها الوحيد خدمة الادب وتيسيره للقيام بمهامه وواجباته على اكمل وجه . هذه المشكلة هي مشكلة الحوار في قصتنا العربية الحديثة . وليس يخفى ما للحوار من اهمية بين العناصر المكونة لمجموع القصة ، واثرها في النفوس . ولست بحاجة الى الدليل فلقد اورده الاستاذ هنداوي نفسه عفويا ، اذ افرد في تعقيبه على كل قصة فصلا من التعليق على حوار القصة ومدى فعاليته في نفس القارىء .

لقد عرف الغرب وخبر فن القصة قبل العرب بمدة غير وجيزة . فالقصة العربية ، اذن ، حديثة العهد . ولا اشك قط في انها لا تزال تستقي تطورها ووسائل انماشها من قصة الغرب ، أذ لم يشتد عودها ، بعد ، ويصلب ليتمكن من الصمود امام فترة الانتقال والتطور من جهة ، وفترة الخلق والتجديد المبدع من جهة اخرى . فليس عجيبا ، اذن ، ان ينسب لها شيء من البلبلة – مبدئيا – في الحوار ، واعتماد بعض قصاصينا على العامية ، وكل همهم الانتقال بواقع القصة – ولو كانت خيالية – الى مسرحها الحقيقي الذي يعدم وجود اللغة الفصحى كلفة للتخاطب بين شعوبه ... واعتماد البعض الاخر على الفصحى ، اذ لو كانت لا تخلق القصة في جو مشبع بحياة الشعوب ، الا انها تؤدي واجبا قد يفوقه من الارتفاع بمستوى الشعوب الى مصاف الادباء ، ليتتبعوا ما يجول في خواطرهم وما يتطور اليه تفكيرهم .

المشكلة ، اذن ، مشكلة عامية وفصحى . وهما بالفعل – اي العامية والفصحى – قائمتان متطورتان لا غنى لاحداهما عن الاخرى . اذ ان وجودهما مجتمعتين ضرورة تحتمها طبيعة الانسان الحاس العاقل ، وما العامية الا وليدة حاسته ، والفصحى وليدة عقله . وهباء ما يدعيه البعض من وجوب الارتفاع بالمستوى الفكري ... ومن ثم اللغوي . اذ لا يفكر الانسان ثم يلغو ، بمعنى أن التفكير سابق للتعبير ، بل هو يفكر ويلغو في وقت واحد ، وما التفكير الا فكر لاغ ، وما التعبير الا لغة متفكرة . اقول ان للعامية وجودا مستقلا لا يمكن الاستغناء عنه بالفصحى ، والعكس بالعكس . وهذا الدكتور كمال الحاج في كتابه (فلسفة اللغة) يورد الأدلة ثم يقول : (ان العامية فصيلة لسانية قائمة بذاتها . هي لنوع خاص من حياة الوجدان . لها نظامها الصوتي والتركيبي . لها مفرداتها واقتباساتها وقياساتها . لها ادبها ايضا . ونقول ، في الوقت ذاته ، بان الفصحى فصيلة لسانية قائمة بذاتها . هي لنوع خاص من حياة الوجدان . لها نظامها الصوتي والتركيبي . لها مفرداتها واقتباساتها وقياساتها . لها ادبها ايضا ...)

ولكون الحوار العامي ، انما هو تفكير عامي معبر ، فليس من الطبيعي ، اذن ، ان تعتمد قصة على حوار عامي ، وندخلها في مصاف آداب الفصحى. وليس من الطبيعي ، ايضا ، عدم وجود الادب العامي بجميع فنونه : شعر ومقالة وقصة ، اللهم الا القليل من الشعر الزجلي ، والذي يتعرض بين حين وآخر لتهكمات الادباء ، والحط من قدرته ومنزلته ، مما يفت في عضده ويقعده عن الحركة . ولسنا ندري ايكون ادماج بعض ادبائنا للحوار العامي خلال القصة الفصيحة اعترافا وتشجيعا له ؟! أم انه محاولة للافناء وانصهارها داخل الفصحى ؟!.

لقد قام الادب العربي وقعد ، لسنوات خلت ، حتى يعرف مصيره : اهو للعامة أم للخاصة ؟!... وثارت ثائرة الادباء ، وتنافسوا في القول والتحبير حتى وصل بهم الحد الى تبادل الشتائم . ثم انعكفوا على انفسهم خاضعين خاشعين ، دون التعرف الى نتيجة مرضية ، يرضى عنها الاكثرية ان لم يكن الجميع . أليس هذا دليلا آخر يحق لي الاعتماد عليه ، وتقرير ان للعامة ادبهم المستقل ، وللخاصة ادبهم المستقل ايضا ؟ وذلك دون محاولة من احدهما لاستعمار وإذلال الآخر ؟!...

غير انني كنت ارجو ان يشتد خلاف الادباء – على ان يكون رياضيا – وينقسموا على انفسهم : فئة تكتب لنفسها محملة غيرها الصعاب والمشقات في الصعود الى برجها العاجي . وفئة تنزل الى مستوى العامة لتكتب لهم وتعبر عن احاسيسها واحاسيسهم . لو حدث مثل هذا ، لظهر واضحا جليا ادب العامة في سيره جنبا الى جنب مع ادب الخاصة ، ان لم يسبقه اشواطا بعيدة . لانني اؤمن كل الايمان انه يجد من القراء اضعاف ما يجد ادب الخاصة . هذا فضلا عن الشوط البعيد بين الرأي العام المنساق الذي يخاطبه الاول ، والرأي العام النابه الذي يجعل من الكبة قبة في نقاشه ، والذي سيضطر الثاني لمواجهته والكتابة له .

وهكذا نجدنا مضطرين لاستعمال العامية وبعض امثالها – يجعل من الكبة قبة – لحاجتنا الملحة للعامية وادابها ، حاجتنا للفصحى وادابها ايضا . ولا ننس اننا عاميون قبل ان نكون فصحاء.

وبعد ... فليس بمقصودي معالجة هذه القضية والافاضة فيها من جميع نواحيها المتداخلة المتشعبة ... وانما قصدت تسليط بعض الاضواء على مشكلة ارى من الواجب مناقشتها والاستقرار على رأي فيها . وربما كان لنا حظ في تتبع بعض الاراء على صفحات مجلة (الآداب) الغراء ، لسان حال الادب الفصيح ، ولا بأس ان كان ذلك على اسلوب درجت عليه مجلتنا (الآداب تستفتي) .

محمد توفيق مشموشي

موسيقى الشعر العراقي المعاصر

بقلم عبد الجبار داوود البصري

— تتمة المنشور على الصفحة ٣١ —

وكان النجوم القين ظلا
في غدير مرقرق ضحضاح
بين عينيك نهبة ... للرياح
وغياض المروج اهدتك طلا
ان هذا الطير البليل الجناح
المدوي على متون الرياح ... الخ.

ومن المؤسف ان اختم هذه الفقرة وانا لا ادري كيف اقوّم موسيقى الموشح عند المكافحين .. ويبدو لي انها لم تكن ذات قيم فنية يعتد بها في شعر الرصافي والجواهري والزهاوي .

والقيمة التي تبرر وجودها اعتقادهم انها من متممات الحركة التجديدية في الشعر العربي الحديث فتعاطوها واغلب الظن انهم لها كارهون الا جميل صدقي الزهاوي فقد تعاطاها معاندا مكابرا راغبا في مواكبة التطور الفني.

وجاءت المدرسة المنطلقة فتبلورت موسيقى الموشح على ايديهم وآتت اكلها طيبا ولم تكن تلك البلورة امتدادا لاسلافهم كالحبوبي واضرابه ، والرصافي واصحابه بل استيحاء لشعر المهجر ومنافسة له .

ففي القطعة القادمة عن تونس للشاعر العماري انور خليل يسمو بموسيقاه شوطا بعيدا ويخدم الاتجاه الوطني الحر في حين حاول الرصافي هذا فلم يوفق كما سبق :

يا وطني اصبحت سجنا رهيب	تشقى فتضنينا
جهنم الحمراء ذات اللهيب	حلت بوادينا
ما بال جلادك لا يستطيب	الا اضاحينا
وكلما جرد سيفا .. خصيب	اغمده فينا
	هيهات يفنينا
ونحن روح خالد لا يغيب	
الشعب في افظع سجن اليم	ينازع الرقا
ما كان في البستيل او في الجحيم	بعض الذي يلقى
قتل وتعذيب وبؤس مقيم	لن تطفىء الحقا
ودولة الظلم ودنيا الظلوم	مهما التظت حمقا
	هيهات ان تبقى
فنارنا تاكل هذا الهشيم	

ونحن لا يسعنا الا ان نقف باعجاب امام موسيقى هذا الشاعر ونشير الى قصيدته — ظلام وفجر — وانا وكوخي والشتاء في ديوانه من اصداء المعترك اما قصيدته في الطريق فهي صدى باهت لميخائيل نعيمه .

أخي ان طال هذا الليل فالليل له فجر
وان حز بنا القيد وان ارهقنا الاسر
فلا تياس فان الياس موت قد كرهناه
سنطلع من لهيب الروح فجرا قد اردناه
فقم فالفجر يدعونا

ولا نود الاطالة في هذا الشان بل نكتفي ونحيل القارىء الى اساطير السياب وازهاره الذابلة ، وشظايا نازك وعاشقة الليل ، واباريق البياتي المهشمة ، ووتر اكرم الجاهد وقيثارة المحروق وغيرهم .

ولقد ادى الموشح رسالته على ايدي هذه المدرسة واضاف اليها شيئا جديدا هو التحليل النفسي ونجح في مجالات الحماسة والهدوء والطبيعة والتامل والفلسفة .

ومن المؤسف ان يقل الاهتمام بالموشح اخيرا ويهب الشعراء الشباب كل قواهم وامكانياتهم الى الشعر الحر ومعنى هذا انهم تغاضوا عن عناصر جمالية لها قيمتها في نظر النقد ولها قيمتها في اذن الجمهور المستهلك.

٤ موسيقى الشعر الحر

ليست حركة الشعر الحر في طورها الجديد ظاهرة سيئة ولكنها مباركة لانها اذا لم تفد — وهذا خلاف الواقع — فهي لا تضر الاتجاهات القديمة واذا وجدنا ازورارا عن موسيقى البحور والموشح فليس الاسلوب الحر هو المسؤول ولكن الشعراء هم المسؤولون .

والشعر الحر لا يمكن ان نتجاهله لانه اكبر واضخم من ان يتجاهل فهو يسد علينا المسالك في المجلات والصحف والكتب وقريبا يستحوذ على منابر الخطابة والسنة المغنين .

ولا يمكن ان نحارب الشعر الحر مهما أوتينا من قوة لانه حقيقة

والحقائق لا يمكن ان تطمس واكبر دليل على قوته سرعة انتشاره وسيطرته على الوسط الادبي والذوق النقدي مع انه حديث الولادة لا تمتد جذوره الى ما قبل الحرب العالمية الثانية بزمن بعيد .

ومن الخطأ ان يرجع اصول الشعر الحر الى السجع الكهنوتي في الجاهلية او بنود شعراء الانحطاط لان الجذور اليابسة والحبوب الفاسدة لا يمكن ان تنبت منها شجرة خضراء مهدلة الاغصان بالفواكه والورد .

ومن الخطأ ان نرجع حركة الشعر الحر الى الرغبة في الايجاز والابتعاد عن الحشو وفضول القول كما يدعي رواد الشعر الحر في مقدمة دواوينهم لان شعرهم الحر لا يخلو من الحشو والتكرار والاضافات الفجة .

ومن الخطأ ايضا ان يقول القائل ان التحرر من المصطلح القديم كانت غايته توسيع التراث الشعري وتنويعه والتعبير عن صيغة الفرد في المجتمع وتوجيه القصيدة الى الفرد رعاية لاستقلالها لان المصطلح القديم يكذب هذا الزعم كما في ديوان اغاني الحياة ، وافاعي الفردوس ، وشعر عمر ابي ريشة ، وطفولة نهد وغيرهم ولان تجديد المحتوى في الشعر الحر اقل اهمية ووضوحا من تجديد شكله .

ومن الخطأ تلك الاشاعة التي تراه مجرد تحلل من القافية والوزن لان معنى هذه الاشاعة انه امتداد للموشح وتطور له . وهذا خلاف الواقع وطبيعة كلا الفنين . ولا نجد اشارة واحدة تؤيد هذه الاشاعة .

ولكن الشواهد الكثيرة تجبرنا على ان نعده استيرادا من الشعر الاجنبي كما استوردنا غيره من مظاهر الحضارة الغربية عامدين او غير عامدين ..

فنازك الملائكة في قصيدتها الجرح الغاضب تقرر ان اسلوبها الطريف في التقفيه مقتبس مباشرة عن الشاعر الامريكي ادجار الن بو

وقصيدة السياب اغنية في شهر اب كما يعرف الجميع صورة شرقية من اغنية العاشق بروفروك للشاعر الانكليزي ت. س. اليوت وغيرها من القصائد .

والانتصارات التي حققها الشعر الحر لم يكن على يد شاعر يجهل لغة الانكليز او الفرنسيين كما ان الشعراء المتحررين عرفوا بالترجمة فنازك ترجمت كثيرا من الشعر في ديوانها عاشقة الليل ، والسياب ترجم مختارات من الشعر العالمي الحديث واكرم الوتري ترجم من شعر طاغور ، وكاظم جواد ترجم قصائد عن لوركا وغيرهم .

والمفاهيم التي يعتنقها الشعراء المتحررون ليست مفاهيم عربية خالصة وانما هم رواة لافكار النقاد الاجانب ، ومثلهم العليا الفنية ، من غير العرب فاديث سيتول واليوت مثل السياب الاعلى ، وناظم حكمت مثل كاظم جواد الاعلى وهكذا .

فالشعر الحر ظاهرة يجب ان تدرس باعتبارها بضاعة مستوردة لها عيوبها وحسناتها وروادها وانها ليست امتدادا للسجع الكهنوتي ، او الموشح او حركة عربية اصيلة هادفة .

وفيما يلي مثالان ناجحان من موسيقى الشعر الحر يتبين فيهما القارىء الانسياب والتدفق الجارف ، والاتجاه الشعري الذي يخالف في روحه ومنهجه ما تعارفنا عليه ويفصح عن تأثره بالشعر الاجنبي .. والاول من انشودة المطر للسياب :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الاضواء كالاقمار في نهر
يرجه المجداف وهنا ساعة السحر
كانما تنبض في غوريهما النجوم
وتغرقان في ضباب من اسى شفيق
كالبحر سرح اليدين فوقه المساء
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف
والموت والميلاد والظلام والضياء .. الخ..

والثاني من قصيدة ـ غسلا للعار ـ لنازك الملائكة :

أماه .. وحشرجة ودموع وسواد
وانبجس الدم واختلج الجسم المطعون
والشعر المتموج عشش فيه الطين
اماه .. ولم يسمعها الا الجلاد
وغدا سيجيء الفجر وتصحو الاوراد
والعشرون تنادي والامل المفتون
فتجيب المرجة والازهار
رحلت عنا .. غسلا للعار ... الخ..

ونذكر بعد ذلك مثلين لموسيقى الشعر الحر الفاشلة ، وانا آسف ان يرد ذكر كاظم جواد وذكر عبد الوهاب البياتي في هذه الفقرة بالذات لان

لهما روائعهما الكثيرة والانتصارات الفنية العديدة .. ولكن ما حيلتي وانا اريد الاستشهاد برواد المدرسة الكبار ولا اريد ان احتطب من الشارع.

من قصيدة « احد والحرية والربيع » لكاظم جواد وهي من وزن انشودة المطر الرجز ، وهي لا تعدو مجرد حديث من احاديث المقاهي خال من كل موسيقى حتى العروض اذا قرأنا الابيات قراءة والقراءة المتصلة هي الاصل بالشعر الحر لانه يخالف الشعر المحافظ في وحـدة البيت :

الحقـد والمال الوضيع بلد القلوب ،
وحجـر العقـول
ومرغ الارواح في مستنقع كريه ،
واجج الاطماع والالام والغرور
واسـتنزف الدمـاء ،
وانهمـرت سـيول
وحمحمت خيـول
وزمجرت طبـول

ومن قصيدة مذكرات رجل مجهول ـ لعبد الوهاب البياتي ، والقـارىء يستنكر موسيقاه وهو لا يعدها الا ثرثرة تعلو كلما سكت خطيب المنبر وهـو من وزن انشودة المطر ايضا ، ويخلو من كل موسيقى حتـى العروض لو قرىء قراءة متصلة :

انا عامـل ادعى سـعيد
مـن الجنـوب
أبواي ماتا في طريقهما الى قبر الحسـين
وكان عمري آنذاك
سنتين ما اقسـى الحيـاة
وابشـع الليل الطويل
والموت في الريف العراقي الحزين
وكان جدي لا يزال
كالكوكب الخـاوي على قيد الحياة ..

والشعر الحر مدين بوجوده لمدرسة خاصة ولا يمكن ان نؤرخه مبتدئين بمدرسة الحبوبي ثم مدرسة الرصافي .. واذا تأثرت هاتان المدرستان بغيرهما في الناحية الموسيقية ، فان المدرسة المنطلقة اثرت موسيقاها في شعراء مصر وسوريا ولبنان على الرغم من وجود محاولات قليلة الخطر في تلك البلدان سبقت الحركة في العراق .

ونحمد لهذه المدرسة استيرادها الذي يكون اضخم تجديد عرفه الشعر العربي الحديث ونعجب لجرأتها وعزيمتها وهمتها القعساء في حمل لواء الحركة ولقد ابدت من القوة والثبات والمثابرة على نشر الدعوة رغم كثرة الخصوم ما يستحق الاطراء والتنويه كما لا يسعنا الا ان نشير لتقهقر بعض الرواد من الميدان وتنكرهم الجزئي لدعوتهم الحرة في الابـداع الشـعري .

والمدرسة المنطلقةفتحت مجالا واسعا للتعبير واستطاعت ان تقرب بين الشعر والمقالة والاقصوصة وبذلك اخرجته من انفراديته الفنية التـي اوشكت ان تقضي عليه وجعلته بضاعة شعبية في انتاجها وتذوقها حتى فقد بعض الانتاج الاخير رونقه كشعر .

وموسيقى الشعر الحر اكثر انطباقا وتجاوبا مع العصر الحديث الذي رقت مشاعره ، وسمت احاسيسه واصبح ينفر من الموسيقى الصاخبة المقيدة الرتيبة ويعدها سمة من سمات الادب في العصور والبيئـات المتخلفـة .

والشعر الحر ساعد على وجود المذاهب والدعوات الفنية في ادبنـا المعاصر لانه مستعد لتقبل مختلف الاصباغ ، وتبدو فيه مختلف الاصباغ واضحة لا تحتاج الى التأويل المتكلف بينما عاش الشعر المحافظ ذا صبغة واحـدة لا تختلف بين شاعر وشاعر الا بأشياء عرضية ..

بدأ الشـاعر اليوم يتحكم في شعره بعد ان ظل مستعبدا للشـعر عهـودا طويلـة .

البصرة — **عبد الجبار داود البصري**

المراجع

١ نظرية الانواع الادبية — ترجمة الدكتور حسن عمون
٢ في الميـزان الجديد — الدكتور محمد مندور
٣ فنون الادب — تأليف تشارلتن ـ ترجمة زكي نجيب محمود
٤ المرشد الى فهم اشعار العرب — الدكتور عبد الله الطيب المجذوب
٥ التصوف في الشعر العربي — عبد الحكيم حسان
٦ دراسات في الادب الحديث — عمر الدسوقي
٩ شوقي شاعر العصر الحديث — شوقي ضيف
١٠ قصائد من نزار قباني
١١ ديوان الحبوبي
١٢ الترياق الفاروقي — عبد الباقي العمري
١٣ ديوان السيد حيدر الحلي
١٤ ديوان الشبيبي
١٥ ديوان الجواهري
١٦ ديوان الرصافي
١٧ الوتر الجاحد ، اكرم الوتري
١٨ اساطير السياب
١٩ شظايا ورماد — نازك الملائكة
٢٠ من اصداء المعترك — انور خليل
٢١ الناس في بلادي — مقدمة بدر الديب
٢٢ الشعر وقضيته — ابراهيم العريض
٢٣ اراء في الشعر والقصة — خضر الولي
٢٤ اباريق مهشمة للبياتي
٢٥ النقد الادبي — لاحمد الشايب
٢٦ اعداد من مجلة الاداب اللبنانية .